

رواية

مريم الحيسي

الكتاب المتحضر

الجزء
III

مركز الأدب العربي
للنشر والتوزيع

كتابتنا

سلسلة «الكتابة للشيطان»

أكتب حتى لا أنكسر

(الجزء الثالث)

تأليف

مريم الحيسي

© maria_hise5

الطبعة الأولى

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م





قال لي: «اركضي» غير أن الشياطين

تعرف الطريق إلينا دائماً







«في حياتي كلها كنت أواجه الانكسار،
أمنعه أن يدخل قلبي، لذلك كنت أكتب
حتى لا أنكسر، كنت أظن أنه لا أحد
قادر علي كسري، لكنني كنت مخطئة!».

ماريانو..



الإهداء

إلى جميع الفتيات المنكسرات، لا تسمحن
لرجل بائس أن يكسركن، وإن حدث ذلك،
يمكنكن التخلُّص منه في أسرع وقت،
وبأبشع الطرق.

ماريانو..



الفصل الثالث والعشرون الممالك النمانى

من الذاكرة

٢٠١٨م

عدت إلى المنزل بعد يوم طويل، يوم بدا مختلفًا عن سائر الأيام؛ فقد شهد تدشين روايتي الثالثة «لحوم فاسدة». كانت مشاعري متشابكة، بين دهشة وانتصار، إذ أخيرًا وجدت رواية من كتاباتي طريقها إلى القلوب والعقول، على عكس الروايتين السابقتين اللتين عبرتا دون أثر يُذكر. لقد كانت هذه الرواية بوابة شهرتي، وسبب نجاحي، حتى بات اسمي يتردد في الأوساط الأدبية والفنية.

لكن أبي لم يشارك هذا الفرح قط بل على العكس، كان استياؤه يزداد كلما تعاظمت شهرتي، لم يتحدث معي منذ ما يقارب الشهر، وكأن النجاح جريمة ارتكبتها في حقه.

اليوم كان يوم إجازتي جلست في غرفتي أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، غير مصدقة تلك الأرقام التي تتوالى أمامي. كتابي أصبح الأكثر مبيعًا هذا الأسبوع. كان قلبي يرقص نشوة، وأمي وأخي وصديقاتي أقاموا لي احتفالاً صغيرًا، بينما أبي، كما توقعت، لم يحضر.

في البداية، كنت أستسلم للحزن والغيظ من غيابه، لكن مع مرور السنين، صار الأمر عادة مؤلمة أتعامل معها بصمت. كان المنزل هادئًا هذا اليوم؛ الجميع خرج وبقيت وحيدة، أستمتع بلحظة إنجازي على طريقتي.

وفجأة، خطر ببالي أمر قديم: القلادة التي أهداها إليّ أبي في عيد ميلادي الخامس عشر. كنت دائمًا أومن أنها تجلب لي الحظ، لكن في العام الماضي، بعد مشادة حادة بيننا، نزعته من عنقي،

فأخذها وخبأها في خزنته الخاصة.

راودتني فكرة أن أرديها مجددًا.. ربما، فقط ربما، يشعر بشيء من الرضا أو الحنين، انتهزت فرصة غيابه، وتسللت إلى غرفته. وقفت أمام خزنته المعدنية التي يحتفظ فيها بالأشياء القديمة، أدت قرص القفل بيد مرتجفة حتى سمعت الطقطقة التي تعلن فتحها.

مددت يدي إلى الداخل، وعينا ي تمسحان محتوياتها بسرعة، حتى وقعت نظراتي على القلادة. ابتسمت تلقائيًا، وأمسكت بها. لكن قبل أن أعيدها إلى عنقي، لفت انتباهي صندوق خشبي صغير غريب المظهر، وكأنه يحمل سرًا.

وضعت القلادة جانبًا، ورفعت الصندوق بيدي كان ثقيلًا قليلًا، وله رائحة خشب قديم مخلوطة بشيء آخر لا أعرفه. ففتحته ببطء، لأجد داخله أربع خانات. في ثلاث منها أساور غريبة، وفي الرابعة.. فراغ.

تأملت الأساور في صمت، كانت كل واحدة تحمل حجرًا يختلف عن الأخرى: الأولى بحجر وردي اللون، يبدو كجوهرة ثمينة، لكنه غريب الملمس، الثانية حجرها أحمر داكن كقطرة دم متجمدة، والثالثة بحجر أسود قاتم يمتص الضوء من حوله، أما الخانة الرابعة، فبدت وكأنها تنتظر شيئًا مفقودًا، أو أحدًا ما ليكمل مجموعتها.

لم تكن هناك إسورة، قلبت الصندوق مرارًا، فلم أجد عليه أي اسم.

- ماذا تفعلين هنا؟

قفزت من مكاني مذعورة حين سمعت الصوت خلفي، فالتفتُ لأجد أبي واقفًا، ملامحه متعجبة في البداية، ثم سرعان ما تحولت إلى غضب عارم حين رأيته أمسك بصندوق الأساور، انتزعه من يدي بعنف حتى شعرت وكأن كتفي ستنخلع من مكانها.

- أبي، ما بك؟

سألته بصدمة، فأجاب صارخًا:

- كم مرة قلت لك ألا تعبثي بأغراضي الخاصة؟

- أبي، أنا..

- أنت فتاة لا تستمعين إلى أحد!

دخلت أمي في تلك اللحظة، يبدو أنهما عادا مبكرًا من احتفال ما. نظرت إلينا باستغراب، ثم قالت:

- ما الذي يحدث هنا؟

قلت لها:

- أمي، أليست هذه الأساور من صنعك؟ أليست لنا أنا وأخي؟ لكن أبي كالعادة غضب بلا سبب!
توجهت أنظار أمي إلى الصندوق. كانت يدا أبي ترتعشان وهو يمسك به، ولم أعرف السبب،
تبادلت معه نظرة صامتة غريبة، كأن بينهما حديثاً بلا كلمات، ثم ابتسمت أمي ابتسامة مصطنعة،
واقتربت مني، وربتت على رأسي برفق قائلة:

- لا بأس يا حبيبتي، والدك ليس على ما يرام هذه الأيام.

ثم أضافت، بصوت متردد:

- نعم، هذه الأساور أنا من صنعتها، وكنت أنتظر الوقت المناسب لأهديكِ أنتِ وأخاك.

لكن نظرة أبي الغاضبة المتوترة كشفت أن أمي لم تنجح في الكذب. سألتها:

- ولكن أمي، لماذا هناك ثلاث أساور؟ نحن اثنان فقط!

تصاعد التوتر بينهما، واحمر وجه أمي من الارتباك، ثم أجابت بتلعثم: - إنها، نعم، الثالثة لزوجتي
أخيك، «لارا». تعلمين أن زفافهما بعد شهرين، فأردت أن أصنع لها واحدة ما دامت ستصبح من
العائلة.

- وماذا عن الخانة الرابعة الفارغة؟

ابتسمت أمي ابتسامة زائفة، وضحكت ضحكة متكلفة وهي تحتضنني: - أوه.. هذه لي، بالطبع.
كنت أرتديها لكنني أضعتها في منزل خالتك، وبالتأكيد ستجدها لي.

احتضنتني أمي وأنا أتساءل ما خطبهما؟ لماذا كل هذا الجزع والخوف من صندوق أساور!؟

«مملكة الخوف»

ويليام

وضعت ماريان في غرفتها، كنت أتفهم وضعها تمامًا، فالعقاب الذي نالته كان قاسيًا وغير مألوف. لا بأس، عليها أن تعتاد على الأوضاع القاسية هنا. خرجت من القصر لساعات طويلة لأحل بعض الأمور، وعدت بعد منتصف الليل. ما إن تجاوزت بوابة القصر حتى تسلل إلى جسدي إحساس ببرودة غير طبيعية، تبعثها مشاعر مريبة ومزعجة.

توجهت فورًا إلى غرفة ماريان، كان الباب مواربًا، لم أغلقه لأنها كانت فاقدة الوعي كما تركتها. كنت أعلم أنها لن تستيقظ قبل الصباح، خصوصًا أن سمارا كانت تراقبها. لكن ما إن فتحت الباب حتى اتسعت حدقتا عيني - السرير كان فارغًا! صرخت بغضب مكتوم:

- ماريان!

طرقت باب الحمام، لا إجابة. فتحتة، فلم أجدها. عندها فاض الدم في عروقي، اندفعت إلى الممر وأنا أصرخ باسم سمارا والحرس.

- ديموس، ما الذي يحدث؟ ولماذا تصرخ؟!

- أين ماريان؟! ليست في الغرفة! تبذلت ملامح سمارا إلى الدهشة والخوف، وأيقنت من نظرتها أنها حقًا لا تعرف شيئًا.

- لقد كانت في نوم عميق، لذلك ذهبت لأعد لها بعض الكمادات!

قالت سمارا وهي تتلعثم، وقبل أن تكمل حوارنا أو نخمن وجهتها، سمعنا ضجيجًا قادمًا من أسفل القصر من قبو الجناح، حيث يقيم الجنود.

أسرعت نحو المصدر، وما إن وصلت حتى تجمدت مكاني. كان الحرس مجتمعين في احتفال صاخب، موسيقى عالية، نساء، مشروبات، وضحكات تتعالى. لم يكن غريبًا أن يحتفلوا في أوقات فراغهم، لكن الغريب حقًا أن «نجمة الحفل كانت ماريان»!

أغمضت عيني للحظة، ثم فتحتهما غير مصدق ما أراه. ماريان كانت تقف في منتصف الدائرة، وعلى مقربة منها بيانو - لا أدري من أين أحضروه. الجميع كان في حالة ثمل غريب، وكأنهم تحت تأثير سحر ما. لم يلتفت إلي أحد، رغم أن مجرد سماع خطواتي عادة يجعلهم يرتجفون خوفًا، كانوا مسحورين بما يشاهدونه أمامهم.

ماريان نجمة الحفل، كانت ترتدي فستانًا أحمر أنيقًا بفتحة على الظهر والساق، تضع مساحيق تجميل كاملة، حتى إنني لم أتعرف عليها في البداية. شعرها الأحمر المموج ينسدل على كتفيها،

وبريق غريب يلمع في عينيها. بدت كنجمة غنائية قادمة من بعد آخر.

للحظة، رأيت فيها ماريان أخرى، ليست الكاتبة التي أعرفها، بل نجمة فتانة تسحر الحضور، جميلة حد الهلاك، لكن شيئاً في داخلي كان يصرخ: هناك خطأ! هذا ليس طبيعياً.

كانت تغني وترقص بدلال غريب، شعرت بالغيرة أولاً، ثم بالخوف، لأن ماريان لا يمكن أن تتصرف بهذا الشكل فجأة، وخصوصاً أمام هؤلاء الجنود المتوحشين. تسارعت دقات قلبي حتى كدت أسمعها.

وما إن انتهت من الغناء حتى انقضت بحركة مفاجئة على أحد الرجال، وغرست أسنانها في عنقه، تمتص دمه بلا تردد! تجمد الباقون في أماكنهم، ثم بدأوا بالتصفيق والتهتاف وكأنهم في عرض مسرحي! لم أصدق ما أرى. وجهها الجميل وفستانها الأحمر تلمخ بدماء الحارس، الذي مات مبتسماً، وكأنه راضٍ بمصيره.

تقدم الآخرون نحوها راكعين، يتوسلون إليها أن تلتهمهم أيضاً، بينما كانت تضحك ضحكة انتشاء تملؤها اللذة والجنون، عندها أفقت من صدمتي وصرخت بكل قوتي:

- توقفوا!!!

ساد الصمت في المكان، وانطفأت الموسيقى فجأة. التفت الجميع إلي، ووجوههم شاحبة كالأموات.

- ما هذه الفوضى؟! ما الذي يحدث هنا؟!

لم يجب أحد، لم ينحن لي أحد. كانوا كأنهم منومون مغناطيسيًا، وهذا ما كانوا عليه فعلاً. عندها نظرت إليّ ماريان بابتسامة مريبة، وأسنانها ووجهها مغطيان بالدماء. لا أنكر، بدت فاتنة وهي شريرة، جميلة حد الدمار.

قالت سمارا بصوت مرتجف:

- إنها.. ليست ماريان!!

نظرت إليها وأنا أعلم في أعماقي أنها محقة. تقدّمت «ماريان» نحوي، وخلعت القناع عن وجهي. وضعت يدها على وجهي، تتحسسها بأصابعها، ثم التفتت نحو سمارا قائلة بنبرة ساخرة:

- وكيف عرفتِ يا عجوز؟

ثم أعادت نظرها إليّ، وابتسمت ابتسامة مألوفة:

- لم تتغيّر يا حبي، نسيت أنك الثابت الوحيد هنا.

اتسعت عيناى وأنا أتمتم بذهول:

- سيسيليا..!!!



الفصل الرابع والعشرون سيسيليا

ناديتُ اسمها بصعوبة. لم أحتج إلى جهدٍ كبيرٍ لأعرفها؛ رائحتها عادت معي فورًا. سيسيليا التي ماتت قبل مئة عام؛ كانت الأميرة التي أحببتي، وحين مال قلبي نحوها قتلتها! نعم، لأسباب أهمها: لو أحببتها لأهلكني تلك الغاية، لأني لو وَهنتُ فسأفقد الكثير، ولن أتنازل عن مناصبي أو عن قوتي من أجل حبٍ سخيّف.

دارت حولي بدلالٍ خبيثٍ وقالت هامسة في أذني:

- أتعلم ما أمتعته؟ أن أسكن جسدًا بشريًا. إنهم ليسوا ضعفاء كما نظن؛ إنهم أقويان ولحمهم طري.

كانت سيسيليا ساحرة آكلة لحوم، ومن أقوى أميرات مملكة السحر. لهم تاريخ طويل مع مستحضرى الشياطين، وهم يحتفظون بقوة حتى بعد موتهم؛ يستطيعون أن يسكنوا أجساد أي كائن حي. توقعتُ أن تأتي سيسيليا يومًا وتفعل ذلك، لكنها تأخرت حتى نسيْتُ أمرها. على الأرجح كانت حزينة لأنني قتلتها بلا ارتعاشة جفن لديّ. لكن، لماذا قررت الآن، وفي جسد ماريان؟

قلتُ بجدّةٍ محذّرًا:

- اخرجي من جسد الفتاة، هذا تحذيري الأخير. وكنْتُ متيقنًا أنها لن تلتفت إلى تهديدي، لا سيما وأنها تبدو مستمتعة وترغب في الانتقام. ردّت بسخرية وهي تلعق الدم عن أصابعها:

- وإلا ماذا يا حي؟

تدخّلت سمارا قائلة مترددة:

- الفتاة ليس لها أي علاقة، وأظنُّ أن الساحرات لا يروق لهنَّ أن يستولين على أجساد البشر، فهنَّ أسمى من ذلك. حاولت سمارا استفزازها؛ فلم تكترث سيسيليا، هزّت كتفها وقالت:

- لا يهمُّ أبدًا. الأهم أني في جسد الفتاة التي يهتم جلاله الملك بشأنها.

ضاق تنفسي، شعرت بتوتر لوهلة، ورمقتني سمارا بنظرة ملأى بالشك. قطعت الصمت ضحكة ساخرة مني:

- يبدو أنك تزدادين غباءً حتى وأنت ميتة، اخرجي فورًا من جسد ماريان وإلا...

سيسيليا بتحدٍ آخر:

- وإلا ماذا؟ هذا ثاني تهديد يا حبي ولم أر شيئًا!

قبل أن تُدرك ردي أمسكتُ بعنقها وعلقتها في الهواء، بينما كانت تضحك، كانت تعلم أنني لن أؤذي جسد ماريان. ركضت سمارا بسرعة وأغلقت الأبواب حتى لا يدخل أحد ونحن في طقسنا الغريب. ألقيتُ بجسدها على الطاولة؛ لم تكن تقاوم، بل استمرت في الضحك. حاولت كبح غضبي، لأنني علمت أنها تسعى إلى إثارتني حتى أحطم هذا الجسد الذي ليس ملكًا لها.

قامت سمارا بتقييدها بتلاوات وكلمات طقوسية. كانت سيسيليا قوية، لكن جسد ماريان أضعفها، إذ أجساد البشر هشة بطبيعتها. أردفتُ قائلاً لأجل إنهاء الأمر:

- انتهى الأمر يا سيسيليا. ستألمين في كل مرة تعودين فيها إلى حياتي، فلا تحاولي حتى.

ردتُ ببرود:

- تعرف أن هذه هي المرة الأولى يا ديموس، ولن تكون الأخيرة. بوابتي ستكون دائمًا عبر هذه الفتاة. سأحطمكم أيها الملك القدر، لكن قبل ذلك حقق لي أمنية.

لم أعزُ كلامها اهتمامًا، لأنني علمتُ أنها تماطل. وكما طال بقاؤها في جسد ماريان ازدادتُ خشيةً على الفتاة. واصلت سمارا إلقاء التعويذات عليها، بينما لم تتوقف سيسيليا عن الثرثرة والضحك الهستيري. أمسكتُ بيديها، وقبل أن تستسلم وتغادر جسد ماريان قفزت نحو وجهي وطبعت قبلة عليه. همست:

- أراك قريبًا يا حبي. فيما أعود اهتم بجسد هذه الفتاة من أجلي، إنها ضعيفة جدًا.

أطلقت صرخة مدوية، هبت ريح ضريت المكان، ثم سقط جسد ماريان بين يدي مغشيًا عليها. تنهدت سمارا بتذمر:

- رائع، هذا ما كان ينقصنا، انتهى الأمر.

سألته أخيرًا السؤال الذي راودني منذ البداية:

- كيف فعلت ذلك؟ ومتى؟

- فأجابت:

- بالتأكيد أرسلتُ ماريان إلى مكانٍ بعيد عنك وعن القصر، أليس كذلك؟

- تذكرتُ أنني أدخلتها عبر البوابات السوداء، البوابات التي تؤدي إلى عالم الروايات. بالطبع استطاعت سيسيليا أن تنفضَّ على جسد ماريان من هناك.

قالت سمارا محذرةً قبل أن تغادر القاعة:

- لا تكرر هذا ثانية يا ديموس، إن كنت لا تريد أن تموت الفتاة.

كانت ماريان بين يديّ مغشياً عليها، وعرفتُ أنها إن استيقظت فلن تتذكر شيئاً، وهذا في مصلحتها، وإن تذكرت فسيكون ذلك في مصلحتي؛ فكم يبهجني أن أعرف أنها قبلتني دون إذنها، وسأضحك على ذلك سرّاً. لكنني بالطبع لم آخذ الأمر بجدية تامة، فهي لم تكن ماريان حقاً. مع ذلك، علمتُ أنني سأظل أفكر في ذلك طويلاً، ولا أعلم لماذا.

ماريان

فتحت عيني على رؤية ضبابية، وكأن روحي تطفو في فراغ بلا ملامح. شيئًا فشيئًا، بدأت الصور تتضح، لأدرك أنني في غرفتي نفسها داخل قصر الخوف، وأين غير ذلك يمكن أن أكون؟

نهضت بثقل وجلستُ متكئة، حين فُتح الباب للحظة ظننت أن الداخل هو ويليام، لكن بدت سمارا وهي تدخل بابتسامة هادئة، تحمل في يدها صينية طعام وكوب ماء.

- استيقظتِ، أيتها الجميلة؟ لقد أحضرتُ لكِ الطعام.

وضعت الصينية على الطاولة فسألتها، وقد اختلط عليّ الليل بالنهار:

- هل نمتُ طويلاً؟

- لا.. مجرد ساعات.

حاولت عصر ذاكرتي، فتدفقت إليّ صور الليلة الماضية، ليلة العقاب الجديد، وأحداث مدينة الجزارين في روايتي. تذكرتُ ذلك الشاب الذي أنقذني، ووعدني بأن يساعدني على الهروب، العودة إلى بيتي، إلى عائلتي، إلى حياتي الطبيعية والأهم: أن تقتل ويليام.

- ماريان؟ ماريان؟

اخترق صوت سمارا شرودي، وهي تلوح بيدها أمام وجهي.

- عذراً.. كنتُ أحاول استرجاع ما حدث ليلة البارحة.

- لا تُجهدي نفسك بالتفكير. تناولي طعامك، وعندما تنتهي، سأصحبك في جولة.

- جولة؟ أين؟

ابتسمت ابتسامة غامضة:

- في أرجاء القصر والأهم، إلى مكان أنا متأكدة أنك تودين رؤيته.

أنهيت طعامي، وغادرت معها الغرفة. كانت هذه المرة الأولى التي أخرج فيها برفقة أحد غير ويليام. سرنا عبر الممرات الملتوية للقصر، ركبنا المصعد الذي بدأ بالهبوط إلى الأسفل. شعرتُ بفضول ينهشني: ماذا تخفي الطوابق العلوية التي لا تُرى من شدة ارتفاعها؟

عند توقف المصعد، وجدنا أنفسنا في طابق غارق في الخضرة الغريبة. بدا المكان كحديقة كلاسيكية ذات طابع غريب وقديم، تملؤها نباتات لا تشبه ما رأيته من قبل، تتناثر بينها قوارير زجاجية على رفوف خشبية، تحتوي سوائل بألوان متباينة: الأخضر، الأحمر، الأصفر، وغيرها. أدخنة باهتة كانت تتصاعد من أماكن مجهولة، بلا أي رائحة.

كان المشهد أقرب إلى مختبر للأعشاب الطبية والعلاجات الشعبية، لكن مع كل خطوة كنا نتقدم فيها، كان المكان يتسع ويمتد نحو عمق لا يُقاس. تبعنا سمارا بخطوات يختلط فيها الحذر بالفضول، بينما كانت أضواء الفوانيس الشاحبة ترسم ظللاً متراقصة على الجدران العتيقة.

لم يكن هذا بستاناً، بل بدا وكأننا نسير في قلب نابض بسحرٍ أسود، حيث الأشجار كانت ملونة بالسواد، وأوراقها تشبه مخالب ناعمة، تتمايل ببطء كراقصات.

في قلب ذلك المشتل السحري، انفتح أمامي فضاء واسع يثير الدهشة، كانت الأرضية نفسها تحفة فنية حية. لم تكن من حجر أو خشب، بل من جماجم بشرية مرصوفة بمهارة، تشكل خريطة هائلة تُجسد أراضي مملكة الخوف الثماني شهقت في صمت، عاجزة عن إيجاد كلمات تصف ما تراه عيناى، وقد اتسعتا بدهشة وذهول.

تحدثت سمارا بصوت هادئ:

- انظري جيداً، ماريان هذه هي المملكة، وهؤلاء هم من كانوا جزءاً منها، حتى بعد موتهم.

تأملت المشهد بعينين تتنقلان بين التفاصيل المرّوعة: أنهار متعرجة من عظام ملتوية، جبال شُيّدت من جماجم ضخمة، وبحار لم تكن سوى فجوات سوداء سحيقة، توحى بأن ما يختبئ تحتها أفضع بكثير مما يبدو على السطح.

تابعت سمارا وهي تمرر يدها فوق إحدى الجماجم:

- ثماني أراضٍ لكن لا تنخدعي، فالعالم الذي ترينه ليس كل شيء.

وأخيراً خرجت من صمتي:

- أكلُّ هذا العالم الشاسع من صنع مؤلفي أدب الرعب؟

لمعت عيناها، وبقيت لحظة في صمت قبل أن تجيب:

- بالطبع، لكن الكثير منه نحن من صنعناه. لقد خلقنا وفتحنا عوالم جديدة، ومخلوقات تكاثرت بأيدينا، حتى أننا لم نعد بحاجة إلى المؤلفين البشر. عقولهم كانت تبتكر لنا عوالم بلا نظام، عوالم همجية، أما نحن فقد وضعنا القوانين، ورسمنا الأسس، ووسعنا هذه العوالم على مدى قرون، منذ ألف عام، وربما أكثر.

توقفت برهة، ثم استدارت نحوي:

- هناك عوالم مخفية داخل هذا العالم، أماكن لا تراها العيون، ممرات تؤدي إلى ما وراء هذا الوجود. هناك أراضٍ مجهولة ليست ضمن الممالك الثماني، لكن مع مرور الوقت.. سيكتشفها ديموس. مثل عوالم المجهول وأراضى الموتى، وكثير غيرها.

تراجعت خطوة إلى الوراء، وقد تسلل إلى قلمي إحساس غريب؛ لم تكن الأرض تحتي حجرًا باردًا، بل كانت تنبض نبضًا خافتًا، الجماجم المرصوفة تحتها تتحرك، اجتاحتني قشعريرة لاذعة، فتنفّست بصوت مرتجف، ثم سألت همسًا:

- وماذا يختبئ في تلك العوالم الخفية؟

ابتسمت سمارا ابتسامة غامضة، لم تتبعها بكلمة، بل رفعت يدها وأشارت إلى بقعة حالكة في الخريطة، حيث لا جمجمة ولا ملامح، بل فراغ أسود عميق كغم هاوية بلا قاع.

- ذلك، عالم لا ينبغي أن يُرى.

- والممالك الثماني، لماذا سُميت بهذه الأسماء؟

أجابت سمارا واثقة:

- لكل مملكة طابعها، كما لكل رواية تصنيفها. هناك ممالك للرعب النفسي، حيث الجنون هو الملك، وأخرى لرعب الوحوش، حيث تعج الأرض بكائنات مشوهة وغريبة، وأخرى لرعب آكلي لحوم البشر، حيث البقاء للأكثر وحشية وهكذا تتوزع الممالك الثماني، لكل منها روحها المرعبة وسحرها المظلم.

على امتداد الأفق الملطخ بظلال الدماء، حيث يختلط صدى الصرخات بأنين الرياح، وتترنح الأرواح على الحدّ الفاصل بين الحياة والموت، تمتد الممالك الثماني. كل مملكة تمثل كيانًا أزليًا من الرعب الخالص، لا يكفي بالتهام الجسد، بل يغزو العقل ويفترسه حتى آخر خيط من سلامه.

في قلب هذا العالم الموحش، تقع العاصمة العظمى: مملكة أرض الوحوش والملائكة، حيث يسكن التناقض الأعظم، ويقف النور والظلام على كفتي ميزان مهيب، متعايشين في سلام هش، أشبه بهدنة بين عدوين أزليين.

مملكة الكوابيس

هنا، كلُّ الكوابيس التي سَطَّرها المؤلفون عبر القرون، وتلك الأحلام المشؤومة التي لاحقت الشخصيات والكتاب على حدِّ سواء، نجد لها وطناً. في هذه الأرض، يغفو العقل ليصبحو على كابوس لا يعرف الانتهاء، حيث يسيطر كهنة الظلام، وتنتشر الأرواح الضالَّة التي تعيش في ظل الأحلام الملعونة في مملكة الكوابيس، تتحول المخاوف الخفية إلى واقع ملموس، وتُحاك الخيالات المريضة بخيوط الواقع، فلا ينجو من سلطانها أحد.

مملكة الجنون

أرض يعجُّ هواؤها بالهذيان، ويقطر من جدرانها عبث لا حدود له. هنا، القتلة المتسلسلون، والمختلون، وأشد الشخصيات شذوذاً ورعباً، يتقاطعون في مسرح دموي بلا منطق ولا رحمة. العقول السليمة تنهار تحت وطأة الصراخ الخفي، والجنون يترصد بحذر، فيما تنفجر الضحكات في الأرجاء.

مملكة الأحياء والأموات

أرض لم يحسم فيها ميزان الوجود؛ الأحياء والموتى يسرون جنباً إلى جنب، تتزاحم أنفاسهم الفاسدة في هواء واحد. جثث تتحرك بأوامر سادة الظلام، وقلوب تالفة تنبض ببطء تحت ضوء قمر قرمزي، وكأنها ترفض أن تدعن لراحة القبر أو لدفع الحياة. والأهم هنا يوجد سادة الدم، وهم مصاصو الدماء.

مملكة آكلي اللحوم

هنا، لا مأوى إلا للأشد وحشية. المدينة جزار مفتوح، والأجساد سلعة، والدماء عملة. الأنياب تقطر من فرائسها، والأظافر تنغرز في اللحم كأدوات حصاد لا تعرف الشبع. حشود من الهمج يتبعون نداء غرائزهم الأولى، حيث لا أخلاق، فقط فم جائع.

مملكة السحر والسحرة

في هذه الأرض، يتداخل النور بالظلمة كما تتشابك الخيوط في نسيج التعويذات. اللعنات تسقط على العابرين كأوراق خريف مسمومة، والهواء مشبَّع برائحة البخور المحترق. الحكماء والملعونون يتقاسمون العرش، والقوانين الطبيعية تنكسر كما ينكسر الزجاج تحت يد الساحرة، فيما الزمن يلتف على نفسه في دوامات بلا مخرج.

مملكة أرض الخيال والأساطير المظلمة

أرض لا سلطان عليها، ولا يدّ استطاعت إخضاعها. الحكام يتطلعون إليها بشغف، لكنها عصبية، تنتظر فقط يد «ديموس» لتسدل عليها رايته. هنا تستيقظ الكائنات التي اعتبرها البشر خرافة، وتنهض من بين الصفحات الممزقة للكتب المحرّمة: تنانين حالكة السواد، فرسان أشباح، ومخلوقات تتغذى على الأحلام المكبوتة.

مملكة الوحوش

عرين المخلوقات الضارية، حيث يتردد الزئير في الغابات الملعونة، وتغوص الكهوف في أعماق لا ضوء لها. قانون الأرض هنا واحد: البقاء للأقوى. الوحوش، بجلودها المصفحة ومخالبها الحادة، تترصد كل دخيل، لتنهش جسده قبل أن يدرك أنه كان حيًا.

مملكة الجن والشياطين

في هذه المملكة، يحكم الجمر والكبريت، وتتحرك الظلال ككائنات واعية. الكلمات هنا لعنات، والهواء يحمل رياحًا مسمومة تثقل القلب وتربك العقل. القصور مشيدة من العظام، والطرق مرصوفة بالجماجم، وأمراء الجحيم يراقبون كل من يخطو نحو أرضهم بعين ملتهبة لا تنطفئ منذ فجر الخلق.

«هذه هي الممالك الثماني»،
مواطن الرعب السرمدي،
حيث الجنون سبيل النجاة،
والموت وجه آخر للرحمة.

- يا إلهي، أيمكن أن يكون كل هذا واقعًا لا وهمًا؟ حسنًا.. ماذا عن «المكتبة المحرّمة» أين موقعها؟ وما الأسرار التي تحتضنها بين جدرانها؟

تطلعت إليّ بعينين يكسوهما القلق، قبل أن تقول بنبرة حادة:

- وكيف عرفت عنها؟ هل أخبرك بها ديموس؟

أجبتها بتردد:

- نعم.. وويليام.. أعني، لم يحدثني عنها بالتفصيل، غير أنه ذكر في يوم ما أنه يعتزم الذهاب إليها، ومنذ ذلك الحين استبدّ بي الفضول.

أدارت ظهرها لي ومضت بخطى باردة، متجاهلة سؤالي كما وكنت أتمتم بهذيان مجنون، ثم قالت:

- هيا، عودي إلى غرفتك. ستعرفين الكثير في الوقت المناسب، وستنالين حريتك قريبًا ما دميت معي.

عقدتُ حاجبي في ارتياب وسألتها:

- ماذا تعنين؟ وأين ويليام الآن؟

- ديموس.. لن يكون في القصر هذه الفترة. لقد جعلني وصية عليك، فلا تقلقي، لن أحملك عبء كتابة القصص لي.

قالته بابتسامة ساخرة، ثم واصلت كلامها وهي تهتم بمغادرة القاعة:

- سيكون منشغلًا في هذه الأيام، فهي المرحلة الحاسمة التي تسبق تتويجه رسميًا ملكًا على مملكة الخوف.

لحقت بها مسرعة، تتردد خطواتي على أرض الممر:

- ما الذي تعنينه؟ ألم يكن ويليام ملكًا بالفعل؟

- لا.. كان ملكًا تحت التدريب. هنا، كل من يتسلم العرش يخضع لفترة تمتد من عام إلى عامين، يُدعى خلالها «ملكًا بلا تاج». فإذا أثبت قوته وهيبته خلالها، تعقد له مراسم التتويج الكبرى.

ثم أشرق وجهها بوميض حماس غامض وهي تضيف:

- الممالك بأسرها ستغمرها الاحتفالات قريبًا استعدادًا للتتويج الأعظم. سأجعلك ترتدين عباءة سوداء، ونخرج معًا إلى الشوارع. صحيح أنها ستكون مغامرة محفوفة بالمخاطر، لكن لا تقلقي، فلن يجرؤ أحد على لمس شعرة منك وأنا إلى جوارك.

ابتسمتُ، وقد تصاعد في داخلي تيارٌ جارف من الحماس يذكى فضولي الجامح تجاه هذا العالم الملتف بالأسرار.

- لكن.. ماذا عن ويليام؟ ماذا لو علم؟ سيغضب لا محالة.

- لا تقلقي لن يعرف شيئًا.

عدتُ إلى غرفتي بعد جولة طويلة بين أروقة هذا القصر المترامي، القصر بلا بداية ولا نهاية، كما قالت لي سمارة ذات مرة. منذ أن منحني ويليام الإذن بالكتابة، وأنا أدون مذكراتي بانتظام. والآن، ها أنا قد أنهيتُ مذكرتي الثالثة. أكتب فيها كل تفاصيل حياتي معه، ومع العوالم التي يدور في فلکها.

أحببت هذا المكان على الرغم من قسوته، فهو -على الأقل- لا يشبه ذلك القصر الكئيب الذي جئتُ منه. هنا العوالم لا تُحصى؛ تارة تبعث الرعب في عروقي، وتارة تسرق أنفاسي بالدهشة،

وتارة تصفني بصدمة لا تُحتمل.

أفكر أحياناً أنه إن قُدر لي أن أعود إلى منزلي، فسأكتب رواية عن كل ما شهدته هنا، سواء صدّقها الناس أم كذبوها كما كذبوا ماما سارة من قبل.

بعد أن همست لي سمارا ببعض التفاصيل عن هذه العوالم، شعرتُ برغبة في الترحال بينها، في أن أرى كلَّ مملكة بعيني، مهما كان الأمر مرعباً. فالكاتب - كما أوّمن - لا بدّ أن يكون مجنوناً بعض الشيء.

مرّت الأيام ببطء قاتل، رغم أنها لم تخلُ من المتعة. أحببت سمارا، وكانت أوّل شخص وربما الوحيد الذي منحني شعوراً حقيقياً بالألفة هنا. وربما.. هناك شخص آخر، لكنني لست متأكدة بعد. يومٌ يمرُّ، ويومٌ تمضي سما را بي خارج الجدران، نحو العاصمة، عاصمة أرض الملاك الوحوش.



الفصل الخامس والعشرون العاصمة أرض الملائكة والوحوش

عاصمة مملكة الخوف، نيكروبوليس، أرض الوحوش والملائكة

في قلب «مملكة الخوف»، تنتصب «نيكروبوليس» كأعظم عاصمة عرفها هذا العالم المظلم، مدينة لا تشبه غيرها، حيث يتعانق النور والظلام، ويلتحم الرعب بالجلال في توازن مهيب ومرعب في آن واحد.

هكذا وصفتها لي سمارا.. نيكروبوليس بلغتها تعني «أرض الملاك والوحوش»، ويُقال إن حاكميها هما الأخوان فوبوس وديموس.

تنقسم نيكروبوليس إلى أحياء شاسعة وضخمة، تضجُّ بالحياة الغريبة التي تشبه حياتنا في ظاهرها، لكنها في جوهرها شيء آخر تمامًا.

ليس كلُّ من يعيش هنا وحشًا أو ملاكًا، بل مزيج عجيب من المسوخ، والبشر الملعونين، والكائنات التي لا تنتمي إلى أي عالم معروف.

الذي جعلني أضحك أكثر أن هناك مقاهي تقدّم مشروبات غريبة، وأخرى تمنحك قوى سحرية، أو تجعلك تطير إلى أماكن مجهولة. المكتبات تحتفظ بكتب لا ينبغي لأحد أن يقرأها، والمتاجر تباع أشياء لا يدرك معناها إلا المجانين.

المقاهي لن أرحل من هنا حتى أدخلها، أصبح هذا هدفي. لكن سمارا منعتني من الدخول إلى أي مكان!

هناك تفاصيل أخرى لا يمكنني وصفها كلها، فقد مضى أسبوعان دون أن أرى ويليام. لم يأت بعد، إذ ما زال مشغولًا بالتجهيز والتدريب استعدادًا لترسيمه رسميًا كملك.

تساءلت في داخلي: هل افتقدته حقًا؟ لا أدري.. لكنني أشعر بالفراغ من دونه، وأكاد أجزم أنه يتذوق الشعور ذاته.

انقطعت عن كتابة يومياتي حين اخترق أذني صوتٌ قادم من الخارج. أغلقت الدفتر، وضعت القلم، ونهضت ببطء، تقدمت نحو الباب وألصقت أذني بخشبه العتيق، أترصد الهمس أو الحركة لم أسمع سوى صمت، صمتٍ يبتلع أروقة هذا القصر العملاق.

كانت سمارة قد أخبرتني أن هذا المكان هو قصر الحكم، وأنه حين يصبح ويليام ملكًا رسميًا، لن يبقى القصر على هذه الحال من السكون؛ بل سيمتلئ بالجنود والحرس والخدم والعاملين. أما الآن، فما زال يحتفظ بقدر من هدوئه المخيف.

تركت سمارة باب الغرفة مفتوحًا طوال هذه الأيام، فلم تغلقه مرة، دفعته ببطء، فأصدر صريرًا حادًا كصرخة في ليل مقبرة. استقبلي الظلام، لكن لم يكن ظلامًا مطلقًا؛ بقايا أضواء متفرقة وشموع ذابلة كانت تتشبث بحدود العتمة.

التفتُ يمينًا ويسارًا في الرواق الطويل، ثم ناديت:

- سمارة.. أنتِ هنا؟

لم يصلني أي رد. كانت قد أخبرتني صباحًا أنها ذاهبة لإعداد بعض الأزياء الملكية للأميرات استعدادًا لليلة التتويج، لذا افترضت أنها لم تعد بعد. عدت بخطوات مترددة إلى الغرفة، لكنني توقفت حين عاد الصوت مرة أخرى.

ويليام كان محققًا دومًا: الفضول يقتلني، خرجت إلى الرواق، ولفحني هواء بارد كأنني عبرتُ عتبةً إلى عالم آخر. تقدمت في الممر المظلم نحو الجهة اليمنى، ألاحق ذلك الصوت الغامض. ترددت في داخلي فكرة مرعبة: هل أنا وحدي في القصر؟

لمح بصري بابًا أسود مزدوجًا، غريبًا في شكله، ففتحته بلا تردد؛ لعلي أصبحت أتعامل مع القصر كأنه منزلي الخاص. انكشفت أمامي قاعة واسعة فارغة، يتوسطها جدار زجاجي هائل كنافذة عملاقة، يتسلل من خلالها ضوء القمر الشاحب، فوقها كانت سحب سوداء تزحف في السماء، والصمت يطبق على كل شيء.

دخلت الغرفة، فلفحني بردها القاسي، برد يشبه برد ثلجات الموتى ومع ذلك، شعرت بشيء آخر، بدأت الجدران تتنفس من حولي. فجأة، قطرات سوداء تتساقط من السقف، بطيئة في البداية، ثم تحولت إلى انهمار لزج كجدول من الحبر المسموم.

تراجعت خطوتين، أنظر إلى الأعلى بعينين متسعيتين بين الدهول والخوف، لكن ما لبثت أن اكتشفت أن قدمي لا تتحركان! التصقتا بالأرضية التي تحولت إلى سطح لزج نابض، أشبه بقطعة لحم حي يتنفس تحت جلدي.

بدأ الخوف ينهش قلبي وأحشائي، والتوتر يشتد حول أطرافي كأغلال خفية. همسات خافتة راحت تتسرب من الجدران، تلفُّ حول سمعي كالأفعى، تردد اسمي بإصرار مريب:

«ماريان.. ماريان..»

رفعت بصري نحو الجدار المقابل، وهناك تجمد الدم في عروقي. كانت لوحة معلقة لوحتي أنا. لكن ملامحي في داخلها لم تكن ساكنة، بل بدأت تتحرك ببطء، كانت «ماريان» التي في اللوحة تبتسم، لكنها لم تكن تبتسم لي، بل لشيء أو لشخص يقف خلفي.

قبل أن ألتفت، شعرت بنفس بارد يزحف على عنقي، يلامس جلدي كما يلامس ظل الموت ضحيته. صرخت صرخة اخترقت أروقة القصر، واندفعت أركض بكل ما أوتيت من قوة، عائدة إلى غرفتي. لكن الممر بدا وكأنه يطول بلا نهاية، يمتد أمامي كفم وحش مفتوح يبتلع خطواتي.

قبل أن أبلغ غرفتي، انفتح فجأة أحد الأبواب المجهولة، ومنه انبثقت يد قوية أمسكت بي، وجذبتني إلى الداخل بعنف. أطبق كفتي على فمي ليخنق صرختي، بينما أحكمت اليد الأخرى قبضتها على جسدي. قاومت بجنون، أضرب وأدفع، لكن قبضته كانت كالفلواذ.

جاء ذلك الصوت مألوفًا وحذرًا، مثل لص يتسلل بين أنفاس الليل:

- ماريان.. اهديني، إنه أنا.

رفع رأسه قليلاً، واللثام يحجب ملامحه، قبل أن يزيحه عن وجهه. اتسعت عيناى حين رأيته، وتراجعت بحدة من قبضته، يملؤني الغضب والريبة:

- أنت؟! -

كان هو! ذلك الشاب الغريب الذي أنقذني من قبضة الجزارين، والذي وعدني بأنه يستطيع إعادتي إلى حياتي وبيتي. أشار بإصبعه إلى فمه، صوته خافت لكنه حازم:

- ششش.. اهديني، كما أخبرتك من قبل، أنا لا أنوي إيذاءك.

- إذن ماذا تريد؟ ومن تكون حقًا؟

- سأخبرك بكل شيء، لكن ليس الآن. أولاً، عليك أن تأتي معي. هذا المكان لم يعد آمنًا بالنسبة إليّ.

تراجعت خطوة إلى الوراء حتى التصق ظهري بالباب، والخوف ينهش عزيمتي:

- مستحيل لن أذهب معك، صحيح أنني أسيرة هنا، لكنني لن أسمح باختطافي مرة أخرى.

ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة، ضحكة مكتومة لا تخلو من السخرية. عقدت حاجبي، أسأله بحدة:

- ما المضحك في الأمر؟

- كلامك.. قالها ثم مد يده نحوي وهو يتابع:

- أنا.. الأمير المنفي «إلياس»، الشقيق الأصغر لديموس وفوبوس، ولوليتا.

أصابني الدهول. لم يذكر أحد قط وجود شقيق رابع! حتى سمارا، التي أفضت لي بنصف أسرار هذه العائلة الملعونة، لم تذكر اسمه ولو عرضًا. تسلل الشك إلى قلبي: ماذا لو كان يكذب؟

- إذن.. ماذا تريد مني أن أفعل؟ قلت ذلك متجاهلة يده الممدودة، كأنني أرفض عقد اتفاق مع شيطان آخر.

- أجد صعوبة بالغة في الدخول إلى هنا، فضلًا عن دخول العاصمة بأكملها، فأنا سجين محروم من حريتي. أسبابي واضحة: أريد الانتقام من العائلة وربما أنت ستكونين مفتاحي.

- عائلتك؟

- نعم.

- وماذا عساي أن أفعل أنا؟ مجرد بشرية أسيرة، تائهة بين كابوس وحقيقة لا أقدر على تمييز حدودهما! ما علاقتي بكم حتى أساعدك على الانتقام؟!

اقترب مني بخطوات ثقيلة، يطاء الأرض وكأنها تحمل عبء سنين من الغضب، حتى صارت بيننا مسافة أنفاس، وقال بصوت مشحون بالجدية:

- لا تكذبي على نفسك، يا ماريان، أنت أيضًا تريدين الانتقام، بسبب ما فعلوه بأمك، وبحياتك. لذلك سأساعدك، لأن مصيرنا واحد، النتيجة: أنا أجلس على العرش، وأنت تعودين إلى بيتك وعائلتك.

- نعم.. أريده، لكنني لا أعلم كيف! ذلك الشيطان لا يموت حتى حين حاولت.

- بلى، يموت. لكنه مختلف لا يلفظه الموت سريعًا، ولا تقتله أي شفرة عادية، هناك سيف واحد هو وحده القادر على إنهائه.

ارتجفت أطرافي، وارتفع خفقان قلبي حتى شعرت به يطرق صدري بعنف. وضعت يدي على وجهي، ثم همست بتردد:

- أنا؟ لماذا لا تفعلها أنت؟ أنا بشرية يائسة، مجرد فتاة، أتظن أنني أستطيع قتل شخص مثل ويليام؟ أو ديموس أيًا يكن اسمه؟

- من الصعب أن أفعلها أنا. بعد أيام سيصبح ملغًا، وسيكون الوصول إليه أشبه بلامسة القمر. أما أنت فإلى جواره.

صمت لثوانٍ، ثم ألقى بنظره إلى الأفق البعيد، عينيه تترقبان مشهدًا لم يحن وقته بعد، وقال:

- أما أبي.. ذلك العجوز، فسأقتله أنا بيدي.

نظرت إليه، فرأيت في عينيه بئراً لا قاع لها من الحقد والكراهية. أدركت أنه يتحدث بجدية ومع ذلك، لم أستطع أن أوافق بهذه السرعة ربما يريد أن يستخدمني كطعم لويليام، وربما يخدعني. مزقتُ الصمت الذي امتد بيننا:

- ما الدليل الذي تقدمه لي كي أصدقك حين تقول إنك ستعيدني سالمة إلى بيتي؟ ماذا لو كنت كاذباً؟ ماذا لو كنت أسوأ من ويليام نفسه؟ ماذا لو كنت ستجذبني إلى جحيم أعمق؟
- لن أفعل.

أجاب بلا تردد، وبسرعة كمن يحسم مسألة حياته. قلت له بحدة ممزوجة بالريبة:

- إذن، أعطني أولاً سبباً مقنعاً يجعلني أصدقك، وأتفق معك. والأهم، يجعلني أشعر بالأمان تجاهك.

صمت للحظة، بدأت الكلمات تثقل لسانه، ثم تراجع إلى الخلف بخطوات هادئة نحو الشرفة المفتوحة، يستعد للقفز منها. وقبل أن يخطو تلك الخطوة الأخيرة، التفت إليّ وقال:

- صدقيني يا ماريان، لا أخدعك ولا أرغب في أذيتك لكنني لا ألومك على حذرك لهذا.. لقاؤنا القادم سيكون مختلفاً ستعرفين حقيقتي، الحقيقة التي ستنكرينها أول الأمر، ثم ستغير حياتك جذرياً ووداعاً.

وقفز إلياس من الشرفة، تاركاً خلفه هواءً ثقيلاً يتردد صداه في أذني، لم أجد وقتاً لأفكر في كلماته، إذ انفتح باب الغرفة فجأة بقوة أربكت أنفاسي. التففتُ بهلع، فإذا بي أرى الحارس البدين، ذلك الذي قال ويليام إنه الوحيد المخوّل بدخول «مكتبة الظلال»، وهو ذاته الذي أعدّ لي مقهى الكتابة. صوته الأَجش ارتطم بجدران الغرفة كقرع طبول ثقيلة:

- ماذا تفعلين هنا؟ ومع من كنتِ تتحدثين؟

اجتاح التوتر قلبي، لكنني حاولت أن أكبح رعشة جسدي وأتظاهر بالهدوء:

- لم أكن أتحدث مع أحد، السيدة سمارا أخبرتني أن بوسعي التجولُ إذا شعرت بالملل من البقاء في الغرفة. لكنني سمعت أصواتاً غريبة، فأصابني بعض الخوف.

رمقني بنظرة غير مصدقة، ثم أزاح قليلاً ليتيح لي الخروج. خرجتُ على الفور عائدة إلى غرفتي، وأغلقت الباب بإحكام، ورميت بجسدي على السرير الضخم، غارقة في التفكير بكلمات ذلك الأمير الغامض.

عائلة مفككة، غارقة في الظلام، تحاول جري معها إلى أعماقها، تذكرت فجأة أن عليّ أن أكتب في مذكرتي. نهضت بسرعة، فتحت الدفتر على صفحة جديدة، وكتبت:

«شخصية جديدة ظهرت.. أو بالأحرى، ظهرت لي للمرة الثانية. إنه ذلك الغريب الذي أنقذني في ذلك اليوم، عرفت اسمه الآن: «إلياس»، الأمير المنفي، أصغر إخوة ديموس. وعلى الأرجح - دون حاجة للتخمين - هو ابن غير شرعي للملك آريس. لقد أخبرتني سمارا عن أرض المنفيين، وعن أن أكثر من يعيشون هناك هم أبناء غير شرعيين للملوك والأمراء.

علمت -منذ المرة الأولى- أن إلياس ليس فارسًا ولا جنديًا ولا مسخًا، بل أمير، مهما حاول الملوك دفن أبنائهم في الغمامة، فإنهم يعودون يومًا ما إلى السطح. لكنه بدا مختلفًا ليس كديموس أو فوبوس. هناك شيء غامض فيه مختلف، وكأنني أعرفه من قبل.

لكن السؤال.. هل سيكون صادقًا حين قال إنه سيعيدني إلى منزلي؟ هل أصدقه؟ ولماذا يتحدث وكأنه يعرفني؟»

وضعت القلم جانبًا، وألقيت بدفترتي قرب الوسادة، ثم غلبنى النعاس غارقة في أفكار، قبل أن تبتلعني الظلمة تمامًا.



الفصل السادس والعشرون أنت لست وحشًا أنت ملك

ديموس

في أعماق القصر المبتلع بالظلال، وسط قاعة شاهقة يتآكل صمتها إلا من وميض شموع تحتضر،
جلس ديموس متكئًا على عرش جدّه الحجري . عينا ه الغارقتان في العدم كأنهما تسبران أغوار
مستقبل لا يقدر على قراءته سواه. كان السكون سيد المكان، سوى همسات أفكار تتراقص في
عقله كتعويذات ملعونة، تحمل في طياتها نبوءة كارثية تنتظر لحظة ميلادها.

ابتسم وهمس لنفسه:

- لا يدرون ما طلبوه، لكنهم سيندمون.

طالما ضاق ذرعًا بتلك النظرات التي نحكم عليه قبل أن ينطق، وبتلك الكلمات التي تلقى عليه
كقيد أزلي: «فوبوس هو النور.. ديموس هو الظلام».

كانوا دائمًا يصورونه كظل باهت لشيء أنقى، ملاك يقف في مواجهة شيطان، رحمة تعاند العدم،
نور يتحدى الجحيم. لكن الآن؟ لم يعد يكثر، بل بات يعشق هذا اللقب.

إن كانوا يرونه شيطانًا، فليكن! لكنه لن يكتفي بأن يكون لقبًا أجوف، بل سيصبح الكابوس الذي
ينتفسونه، الطاعون الذي يتسلل في عروق المملكة حتى تنحني بأكملها أمام قدميه.

دوى صوت الأبواب العملاقة وهي تُفتح، فتوقف اللوردات والوزراء عند العتبة، يحدقون في
المشهد الذي لم يتوقعوه: ديموس يجلس هناك، وقد سبقهم جميعًا.

كان حضوره في مجالس الحكم نادرًا، إما أن يرسل فوبوس نيابة عنه، أو يتأخر عن عمد، لكن
اليوم؟ اليوم قرر أن يكون هو البداية، أن يحضر ليس كظل يتوارى، بل كقدر محتوم.

دخلوا واحدًا تلو الآخر، اللوردات، الوزراء، فوبوس، وأخيرًا ألكسندر، صديقه ومساعدته المخلص.

انحنى الجميع قبل أن يتخذوا أماكنهم حول الطاولة الحجرية العتيقة، حتى تجرأ أحد اللوردات وقال بصوت متوتر:

- «اعذرننا يا جلالة الملك إن تأخرنا».

أشار ديموس بيده في لامبالاة:

- أنا من أتى مبكرًا.. هاتوا ما لديكم.

رمق فوبوس الحاضرين بلامح مشوبة بالقلق، فتجهمت ونظرت إليه مباشرة:

- ما الأمر يا فوبوس؟

تقدّم مقعده ببطء، وأخرج من عباءته أنبوبة فضية منقوشة برموز غامضة عرفت على الفور أن هذه الرسالة جاءت من مجلس المتنبيين، مدّها إليّ وهو يقول:

- «صراحةً يا جلالة الملك، وردتنا أنباء من أرض المنفيين.. الأسياد قد ماتوا».

تردّدت همساتٌ مذهولة بين الحاضرين، وتبدلت ملامحهم إلى فزع صامت. بعضهم بدأ يهتمهم بتكهّنات عن كوارث وشيكة، وعن ظلام سيبتلعنا جميعًا، في نظرهم أننا سنهلك، لأن الأسياد ماتوا. أما أنا، فلم يهتز لي جفن، فموتهم لا يغير شيئًا، ولن أركع أمام الخرافات، ولن تنشق الأرض تحت أقدامنا لمجرد أنهم ماتوا.

رفعت يدي وأطلقت كلمة واحدة هادئة:

- هدوء!

ساد الصمت من جديد. تناولت الرسالة، ثم ناولتها إلى أحد اللوردات:

- اقرأها.

أوما اللورد الشاب، وفك ختمها بعناية، وبدأ يتلو بصوت عالٍ:

- «إلى جلالة الملك ديموس، ملك مملكة الخوف والرعب، سيد الظلال، ووارث العرش الأسود.. نحمل إليك نبوءة كتبت بالدم قبل أن تُكتب بالحبر، وقد آن أوان تحقيقها. من أعماق الظلام الذي أحكمت قبضتك عليه، ومن بين الأشلاء التي ظننتها رمادًا منسيًا، خرج من لا ينبغي أن يخرج، وتحرك من لا ينبغي أن يتحرك، شقيقك الأصغر، الأمير المنفي إلياس. ذاك الذي ألقى بعيدًا كجرح لا يندمل، عاد الآن كطعنة في خاصرة مملكتك».

لم يعد ذلك الصبي الذي لفظته أقدار العرش، لقد غدا لهيبًا مشتعلًا بالتمرد، وإعصارًا من الغضب الذي لا يعرف سكونًا. أراق دم الأسياد الذين حكموا أرض المنفى، حطّم القيود، وحرّر السجناء والمنفيين الذين أرادت المملكة أن يذوبوا في غياهب النسيان. لكنه لم يكتفِ بذلك، بل

جمع تحت رايته جيشًا من اللقطاء، مخلوقات شاردة لا تنتمي إلى عالم النور ولا إلى عالم الظلال، وحولهم إلى سيوف مُسلّطة نحو قلب مملكتك.

جيشه يزحف الآن.. يزحف من الأراضي التي ظننت أنها لن تنهض يومًا، يزحف كطاعون لا يفرّق بين مملكة ومقبرة. هدفه واضح، ووجهته لا تحتمل التأويل.. العاصمة، أرض الوحوش والملائكة.

إنه ليس مجرد تمرد ولا غضب منفي، بل إعلان حرب.. حرب لم تُسَطّرْها النبؤات، حرب تُكسر فيها أساطير وتولد أخرى من رحم الدم. فكيف سترُدُّ يا جلالة الملك؟ أنتتظر النيران حتى تبلغ عتبة عرشك، أم سترى هذا العالم لِمَ سُمّيت ملك الرعب؟ اختر قبل أن يختار إلياس مصيرك نيابة عنك.

انتهى.

ساد الصمت، والأنظار كلّها مسمّرة عليّ بانتظار كلمتي، حتى أطلقت ضحكة ساخرة اخترقت سكون القاعة:

- أهؤلاء يرتعدون من طفل؟

أجاب أحد الوزراء بسرعة:

- «بالطبع لا، يا جلالة الملك. وربما يحتاج إلياس إلى سنين طويلة ليجمع جيشًا قادرًا على الصمود في حرب كهذه».

أضاف فوبوس بجديّة:

- «صحيح ما قاله الوزير لوكين، الحرب ليست أمرًا يسيّرًا، وجمع جيش أصعب. هو بحاجة إلى أعوان سياسيًا واقتصاديًا قبل حاجته إلى الجنود. قد يستغرق الأمر سنوات، لكن بما أنه تجرأ وقتل الأسياد، فهذا يعني أنه كان يستعد منذ زمن بعيد، وأنه قد خطط لهذه اللحظة بدقة.

ومن المؤكد أن كثيرين صاروا في صفه، لذا وجب الحذر وعدم الاستهانة بأي عدو».

تردد اللورد سليزن قليلًا قبل أن يتكلم:

- «هناك أمر آخر يا جلالة الملك.. وفقًا لما بلغني، فإن الأمير المنفي، بعد أن حرر المنفيين ألقى خطابًا قيل إن صداه بلغ حتى آذان الموتى. في خطابه وصفك بالمجنون والأحمق، وأقسم أن يدمر عائلتك، وأن يقيم نظامًا جديدًا، وأن يجلس على العرش، ويستولي على السيف الأعجوبة!».

تقلّصت ملامحي، وشعرت بضيق غريب لم يسبق أن غزاني من قبل، ثم ارتسم الغضب على وجهي كشراة تسبق الانفجار.

- ماذا قال؟!

سألت بصوت يقطر حدّة، وعينا ي تتطاير منهما شرارات كالجمر.

أجاب اللورد متلعثمًا:

- «نقصد.. قال إنه سيحصل على السيف الأعجوبة؟».

- لا.. ليس هذا، قبلها! ماذا قال؟

- «أراد.. بناء نظام جديد؟».

- لا، ليس هذا.. قبلها، ماذا قال؟!

صرخت حتى ارتجت القاعة، وبدأت نظرات التوتر تتساقط على وجوه الحاضرين، كأنها قطرات عرق باردة.

لمحتُ فوبوس يحدق بي، وكأنه الوحيد الذي فهم قصدي. لكن اللورد المتردد ابتلع ريقه وقال بصوت مرتجف:

- «قال.. إنك غبي.. ومجنون».

في لحظة، هوى كفي على الطاولة الحجرية العملاقة حتى اهتزت أرجاؤها، فارتجف الجميع كمن داهمه زلزال نهضت واقفًا، وصوتي يعلو كهدير العاصفة:

- كيف يجرؤ ذلك الصبي الحقير على نعتي بتلك الكلمات؟

ساد الذهول القاعة، وأرسل إليّ فوبوس حديثه عبر عقولنا، بعيداً عن مسامع الآخرين:

- «اهدأ يا ديموس، أهذا ما يشغلك الآن؟ كان عليك أن تغضب لزحف جيش إلياس نحو أسوارنا، أو لقتله الأسياد، أو لتمرده، لا لأنه نعتك بالمجنون!».

- اخرس!

صرخت بها علناً، فتجمدت القاعة في صمت ثقيل. رأيت الخوف يطل من أعينهم، وربما ازداد يقينهم بما كانوا يهمسون به عني منذ زمن. مجنون يتحدث مع نفسه.

أخرجت سيفي النحيل، ذاك الذي لازمني منذ طفولتي، وأشرت إلى اللورد الذي تجرأ ونطق بتلك الكلمات أن يتقدم. كان يسير بأرجل تكاد تخونه، جسده مبلل بالعرق، وقلبه يخفق كطبول حرب مدعورة.

حين انحنى أمامي، لم أمنحه سوى لحظة من السكون ثم رفعت السيف، وخفضته بخفة خاطفة على عنقه. انفصل رأسه عن جسده، وتدحرج على الأرض، بينما ظل الجسد لثوانٍ واقفًا في انحناءته، قبل أن يهوي صريعاً.

سال الدم على أرضية القاعة الحجرية، لكن هذه القاعة لا تحتاج إلى خدم لتنظيفها، فهي تتغذى على الدماء. سريعاً ما ابتلعت الأرض الحمراء السائلة، كأنها ترتوي من قربانها، تاركة المكان جافاً وكأن شيئاً لم يكن.

وقف الجميع مشدوهين، وجوههم مصغولة بالرعب. حتى أبي.. أقصد ذلك العجوز «آريس»، لم يفعل مثل هذا يوماً، ولا جدي قبله، أما أنا؟ فقد جعلتها أولى هدايا سيفي قبل أن أودعه.

انشق صمت القاعة بصوت فوبوس، وكعادته كان الوحيد الذي يجرؤ على الاعتراض وطرح السؤال:

- ديموس، لماذا؟! لم فعلت ذلك؟!

مددت يدي إلى طرف عباءة أحد الوزراء الواقف بجانبى ومسحت بها الدماء العالقة على نصل السيف، بينما ظل الوزير يطأطئ رأسه دون أن يجرؤ على رفع بصره. أعدت السيف إلى غمده، ثم قلت ببرود:

- انتهى الاجتماع. سنتحدث في كل شيء يوم التتويج.

لم يعد هناك ما يدعو إلى الدهشة أو الاستغراب؛ فقد كان من المفترض أن أعرض خططي الرسمية قبل تتويجي ملكاً على العرش، لتُسجَل في سجلات المملكة وتُعتمد رسمياً. غير أنني آثرت أن أفاجئهم بها الآن، وأمضي في تنفيذها بسلطاني، إذ ليس من الضروري أن أترقب اعتماداً من أحد.

انحنى الجميع وغادروا القاعة، ولم يبق سوى فوبوس وألكساندر. وحين همّ الكساندر بالانحناء لينسحب، أوقفته قائلاً:

- انتظر. خذ رأس اللورد وضعه في صندوق أنيق تفوح منه رائحة عطرة، وزيّنه ببعض الزهور السوداء، ثم أرسله هدية إلى ماريان.

ارتسمت الدهشة على وجهي فوبوس وألكساندر، غير أنّ أياً منهما لم يتفوّه بكلمة. فتابعت قائلاً ببرود ساخر:

- لا شك أنها الآن إما تشعر بالملل، أو ترفل بالراحة لغيابي عنها. فلنفسد عليها سكينتها قليلاً.

فأجاب ألكساندر مبتسماً وقد بدا عليه الانشراح:

- أمرك، يا جلالة الملك.

كان في نظره بريق غريب، كأنه الوحيد الذي يبتسم لجنوني. التقط الرأس وغادر، تاركاً إيّاي مع فوبوس. وما إن أوصد الباب حتى انفجر فوبوس صائحاً:

- أي فوضى هذه التي تُحدثها قبيل تتويجك؟!

أجبتة مبتسمًا بلهفة، كأنني لم أسمع اعتراضه:

- إنني أتشوق لرؤية ردة فعل ماريان حين يقع بصرها على الرأس... سيكون ذلك ممتعًا حقًا.

تنفّس فوبوس بعمق، محاولًا كبج جماح غضبه، ثم قال بصوت هادئ متماسك:

- إلياس... إلياس ليس رجلًا هيئًا ولا بسيطًا كما قد يظن البعض، فهو شقيقنا، وهذا وحده يكفي ليجعله نظيرنا، بل ربما أشدّ قوةً منا. كونه هجينًا لا يعني أنه يفتقر إلى ما نمتلكه من سلطة وبأس، بل يبدو واضحًا أنه استعدّ لهذا، ولعلّه يُباغتنا بما لم نتوقّع.

صمت لحظة، ثم واصل كلامه بنبرة ثقيلة:

- ديموس، أعلم أنك لا تريد أن تكون ملكًا، ولهذا تدفع نفسك إلى هذه الأفعال، وأيضًا...

قاطعته بصرامة حادة:

- لا! من أوهمك بذلك؟ لقد بدّلت أمري. أنا الآن أريد العرش، وهذه هي حقيقتي التي وُلدت بها. لقد كنتُ الظلام منذ البدء، وسأبقى الظلام إلى الأبد.

نهضتُ عن مقعدي وغادرت القاعة بخطوات ثابتة، مردفًا:

- علينا أن نستعد للتتويج. أبي... أعني ذلك العجوز، وزوجته، وأختنا لوليتا، سيصلون مع بزوغ الفجر. كما أنّ الحكام جميعًا سيحضرون. أما ذلك اللقيط فلا تقلق، فأنا أعلم حقًا كيف أتعامل مع أعدائي.

تركت فوبوس وحده، غارقًا في تفكيره بأحوال المملكة أكثر من انشغالي بها أنا الملك نفسه. ولمّا ابتعدت في أروقة القصر، وما زلت قريبًا من القاعة، التقطت صدى أفكار فوبوس، أو لعلّه بعثها إليّ عمدًا:

- لست وحشًا يا ديموس... أنت ملك.

ابتسمتُ بسخرية قاتمة، وأجبت في داخلي:

- فات الأوان يا فوبوس.. فات الأوان كثيرًا.



الفصل السابع والعشرون هدية مميزة!

ماريانا

استيقظتُ هذا الصباح على غير المعتاد، كأنني غدوتُ جزءًا من هذا المكان الموحش. أعددت قهوتي بنفسي، ثم وجدت سمارة تشاركني شربها، حتى خُيِّل إليّ أنني سأجعل جميع المسوخ هنا مدمنين عليها يومًا ما.

مضى شهران كاملان لم أرَ فيهما ويليام، ولا حتى سمعتُ صوته. لم أتخيل قط أنه قد ينشغل إلى هذا الحد. أتساءل: ها هو على وشك أن يتوج ملغًا رسميًا بعد أيام، فهل سيتركني وحدي، بعدما انتزعتني من عائلتي وحياتي؟

أنا اليوم أكملت عامًا كاملًا هنا. عامًا كاملًا من الاختطاف، من الرعب والخوف، من البكاء والكوابيس، من صدمات متلاحقة، ومن حقائق مبتورة لم تكتمل، عامًا لم أرَ فيه أبي ولا أمي، ولا أخي، ولا أصدقائي، ولا حتى أقراني. هل فقدوا الأمل بي؟ هل نسوني؟ هل أصبحت ذكري باهتة في حياتهم، مجرد اسم محذوف؟ لعل الناس قد يعتبروني غريبة أو ميتة، لكن عائلتي يستحيل أن تتخلى عني.

لقد صار داخلي نوعًا من التبُّد، كأنني اعتدت هذه الحياة القاسية. غير أن الأيام الأخيرة حملت فراغًا موجدًا؛ فغياب ويليام تركني عالقة بين العزلة والانتظار. لا أعرف أحدًا سواه، سوى سمارة التي صارت أول صديقة لي في هذا العالم، لم تعاملني يومًا كغريبة ولا كرهينة، ولا سجين، بل على العكس.. منحتني ما يشبه الصداقة.

أتذكر آخر لقاء لي مع الأمير إلياس، قبل شهر مضى. ما زلت لا أعلم إن كان صادقًا أم يتلاعب بي. لكنني أحسُّ أنه يخفي عني ما ينبغي أن يُقال.

في مذكرتي السوداء كتبت عشرات القصص المظلمة، أحفظها كأنها دروس سرية، عليّ أبوح بها لويليام حين يعود. كان قد حذرني من الكتابة، وأقسم أن تدوين الحكايات محرّم عليّ، لكنني لم أبال، فهو بعيد عني الآن.

أخبرتني سمارة أنه يقيم في قصر التدريب، حيث يخضع الملوك للامتحان الأخير قبل أن يتوجوا رسميًا، وما إن يكتمل تتويجه، فسيعود إلى هذا القصر، إذ ستقام فيه الاحتفالات.

دخلت سمارة على حين غرة، تحمل صينية الطعام بابتسامتها المألوفة حيثني بمرح قائلة: - صباح الخير.

رفعتُ حاجبي متعجبة، وسألتها بفتور: - كيف تقولون صباح الخير وأنتم لا تعرفون شمسًا أصلاً؟ وضعت الصينية أمامي، وأجابت بهدوء: - لا يهم.. لدينا نهار، وذلك يكفي.

لكن نهارهم هنا لم يكن نهارًا حقًا؛ لم يكن سوى ضوء باهت رماديّ ضبابي، أشبه بظل مريب يتخفى خلف القمر. هكذا كان نهار المملكة نهارًا بلا شمس، وأملًا بلا حياة.

قالت سمارة فجأة، وصوتها يشي بنبرة مريبة: - اليوم سنذهب إلى مكان ما.

اتسعت عيناى حماسًا وفضولًا: - إلى أين؟

لم تجبني بعد، إذ قُطع الحديث بطرقٍ خافت على باب الغرفة. ارتفع صوت سمارة بثقة: - تفضل.

دخلت فتاة صغيرة في السن، شاحبة الوجه، تعلقو محياها ندوب غريبة، لكن جمالها العابر يقاوم قسوة تلك الندوب. كانت خادمة من خادمت القصر غير أنّ مظهرها بدا خارجًا عن كلّ مألوف، ولكن، وهل في هذا المكان شيء طبيعي أصلاً؟

بين يديها صندوق أحمر، تتدلى فوقه شريطة سوداء، تعلقه بطاقة حالكة السواد منقوش عليها جمجمة. توقفت أنفاسي لحظة، ثم اجتاحني شعور مألوف، أين رأيت هذا من قبل؟! نعم.. إنه ذات الشكل، ذات الهدايا التي كان ويليام يرسلها إلي حين كنت لا أزال في منزلي! عرفت أنه هو قبل أن تنطق الشابة بكلماتها المرتجفة:

- هذا الصندوق من جلاله الملك ديموس إلى الأنسة ماريانا.

بادرتها سمارة بلهجة قاطعة: - حسنا، شكرًا لك. ضعيه هنا وانصري.

وضعت الخادمة الصندوق وغادرت، فيما اجتاحني رعشة غامضة. أحسست بحرارة تتصاعد في عروقي، وأنفاسي تضيق شيئًا فشيئًا. لم يكن في داخلي أي فرح؛ لم أصل بعد إلى تلك المرحلة من الانسجام مع هدايا ويليام، بل كنت مدركة تماما أن الرومانسية لا تليق به، ولا تُولد فجأة من قلبه المظلم. كنت أعلم، بل أكاد أقسم، إن ذلك الملك المجنون السخيف دسّ شيئًا لا يروق لي في

هذا الصندوق. لعله شعر بالملل وسط انشغاله الحقيقي بالعرش والدماء، فقرر أن يعث بي بطريقته الخاصة.

- ماريان، أيتها الجميلة!

نادتني سمارا، فانتبهت من شرودي وعيناى لا تفارق الصندوق. - آه.. آسفة، لم أسمعك.

سألتنى بابتسامة مشاكسة: هل ترغبين فى فتحها؟

ترددت، لكننى زفرت قائلة، وأنا أحاول أن أبدو شجاعة وطبيعية: - نعم.. نعم، سأفتحها. لست واثقة مما قد يخبئه ذلك الملك المجنون.

توقفت لحظة، ثم أضفت بنبرة نصف مزحة: - سمارا، لا بأس إن شتمته أمامك، أليس كذلك؟

ضحكت سمارا بحرارة: - ماذا تقولين؟! هل نسيت أننا نشتمه كل يوم سوياً؟

ضحكتُ معها ضحكة سريعة كأنها وسيلة دفاع، ثم مددت يدي نحو البطاقة. التقطتها بأصابع مرتجفة وفتحتها، فإذا بها مكتوبة بكلمات غامرة بالرهبة: كانت البطاقة تقول بخط متعجرف: «مرحباً يا ملكة الفضول، أثارنا حين فى غيايى، أم أنك لست كذلك؟».

هزرت رأسى بغیظ، وألقيت البطاقة جانباً. مددت يدي إلى الشريطة السوداء، سحبتها بتردد، ثم رفعت الغطاء.. وليتنى لم أفعل! ظهر أمامى رأس رجل مقطوع، متعفن الملامح، فمه مفتوح باتساع مريع، عيناه جاحظتان كأنهما لا تزالان تصرخان من لحظة الموت. كان الوجه رمادياً مسوداً، يحمل أثر الرعب الذى جُمّد فيه إلى الأبد. أطلقت صرخة مفزعة وألقيت الصندوق أرضاً، فارتطم بقوة، وإذا بالرأس يتدحرج فوق البلاط فى مشهد مرعب، تتساقط معه زهور سوداء قاتمة مثل وريقات متعفنة.

بينما أنا أرتجف رعباً، نظرت سمارا إلى المشهد ببرود عجيب، ثم ابتسمت ابتسامة خالية من أى انفعال. تقدمت بخطوات ثابتة، التقطت الرأس بيديها كأنها تمسك ثمرة عادية، وقالت بنبرة لامبالية: - آه.. مسكين هذا اللورد «سليزن»! أتساءل ما الذى اقترفه ليُقطع رأسه؟ على أية حال، سنفتقده.

ثم لمحت الزهور السوداء على الأرض، فانحنيت قليلاً وأشارت إليها، بينما ما زلت أرتجف غير قادرة على التقاط أنفاسى: - هل تعلمين يا ماريان؟ ديموس لا يمنح هذه الزهور إلا لأشخاص يعزّهم كثيراً.

انتفضت من مكاني، والغضب يشتعل فى صدري: - والأشخاص الذين يعزّهم.. هل يرسل لهم رأساً مقطوعاً أيضاً؟!

ضحكت سمارا بخفة لا مبالية كعادتها، لأن الدم والرعب جزء من حياتها اليومية: - اهدي، اهدي.. سأهتم بتنظيف المكان الآن. لكن قبل ذلك، دعيني أخبرك إلى أين سنذهب، ربما يتحسن

مزاجك قليلاً.

نظرتُ إليّ نظرةً واثقةً، ثم تابعت: - اليوم سنزور خيَّاطة القصر، مصممة أزياء الأميرات. سأتسلّم منها فستاني الذي سأرتديه في يوم التتويج وخمّني ماذا؟ لقد أعدتُ لكِ فستانك الخاص أيضًا.

رفعتُ رأسي نحوها في ذهول، مترددة بين الغضب والاستغراب: - ماذا تعنين؟

قالت بابتسامة غامضة: - قصدي واضح ستحضرين الحفل العظيم، يوم تتويج الملك. -
لكن...!!!

قاطعتني بنبرة حاسمة: - هذه المرة ليس قراري أنا، بل ديموس نفسه هو من أمرني أن أحضركِ.
لذلك.. اشتريت لكِ فستانًا يليق بكِ.

مرّت على خاطري ذكرى حفل غريب، لا أزال أرتجف كلما استدعته ذاكرتي: يوم ميلادي، حين رقصوا على رؤوس الجثث! كيف لي أن أطمئن إلى حفلاتهم بعد ذلك؟! لكن هذه المرة مختلفة؛ فالحفل ليس عبثًا من عبثيات ويليام ورفاقه المجانين، بل تتويج ملك، أي أن الأمراء والوزراء والسياسيين وأهل النفوذ سيجتمعون في قاعة واحدة. لم أتصوّر يومًا أنني سأشهد حفل تتويج ملك.. وملك من؟ ملك مملكة يُطلق عليها اسم الخوف والألم

ذلك اليوم اختارت سمارا لي الفستان الذي تراه مناسبًا، كأنها تريد أن تصوغ حضوري على طريقتها. ثم تركتني فجأة، دون مبرر، بعد أن وعدت بأخذي معها. ثلاث ساعات كاملة قضيتها غارقة في قراءة كتاب، بينما يساورني الظن أنها تلقت أمرًا ما جعلها تتراجع؛ ربما لاحظوا تجوالي في الممرات أكثر مما ينبغي، وربما خشوا فضولي. لكن الأمر لم يعن لي الكثير.

في غيابها، جاءني تلك الخادمة الغريبة بوجهها الشاحب، تحمل طبقًا من حلوى لم أر مثلها من قبل. قالت إنها مصنوعة من التوت، وكانت رائحتها شهية تُغري رغم أنني اعتدت أن أرتاب من كل ما يوضع أمامي هنا. ومع ذلك، أكلت منها في النهاية ويا للعجب! كانت لذيذة على نحو لم أتوقعه.

انتهى اليوم، ولم تأتِ سمارا خَمَّنتُ أنها انشغلت، وربما ستظهر غدًا. بدا أن الجميع منشغلون بالتحضير للتتويج الذي لم يبقَ على مواعده سوى أيام.

تمدّدت فوق سريري، مثقلة بملل خانق لم أعرف مثله من قبل. لكنني معتادة على هذه الحالة: أحيانًا يغمرنني الملل، وأحيانًا تُطبق الكآبة على صدري، خاصة حين نعود بي الذاكرة إلى حياتي السابقة.. إلى هاتفي اللوحي، إلى مواقع التواصل الاجتماعي، إلى روتيني اليومي الصغير الذي كنت أعتبره عاديًا، فإذا بي هنا أشتاق إليه كأنه جنة مفقودة.

وبينما كنت أغرق شيئًا فشيئًا في ذكرياتي، سقطتُ في نوم عميق، دون أن أشعر..



الفصل الثامن والعشرون لمست وجهه

حسبت أنني أقبل ويليام! ما هذا الحلم الغريب، بل الكابوس حسب، والأدهى أنني أنا من بادرت بالقبلة! سأموت على أن نعي ذلك..

- ماريان!

استيقظت على نسمة باردة تتسلل إلى عظامي، جلست معتدلة في فراشي، وشعري يتطاير حول وجهي كما لو كنت وسط عاصفة خفية. التفت نحو الشرفة، كانت مفتوحة، لكنني متأكدة أنني لم أتركها كذلك! بل كانت سمارا وحدها من تفتحها وتغلقها دائمًا. شعور غريب اجتاحني، نهضت وأغلقتها، لكن البرد لم يهدأ، بل ازداد، حدة الرياح كانت في الداخل!

تقدمت نحو الباب، كان مفتوحا مجددا، خرجت إلى الممر فوجدت الرياح هناك أيضا، تهب في كل زاوية، باردة جدا القشعريرة، تداعب بشرتي العارية، تتخلل ثوبي الحريري الأبيض المزين بزهور وردية. شعرت بأني وحيدة وسط هذا النفس الموحش، ممراته غارقة في ظلام ثقيل، صمتها يتكلم بلغة الرعب

استيقظت على صوت ويليام.. كان يناديني! هل كنت أتخيل؟ لا، أنا متأكدة مما سمعت! قلبي بدأ يخفق بجنون وأنا أتقدم بين الممرات، حتى وصلت إلى مفترق الطرق الذي يفصل بين الصعود يمينًا ويسارًا. لم يسبق لي أن سلكت أيًا من هذين الطريقين من قبل، لكن قدماي حملتاني نحو الممر الأيمن بلا تفكير. الأرض كانت باردة حد الألم، وعندها فقط أدركت أنني حافية القدمين.

سرت في الممر الطويل، أضمت نفسي بيدي بحثًا عن بعض الدفء، لكن البرودة كانت تتسلل إلى أعماقي. كنت أسير بلا وجهة أو هدف، فقط أطارد ذلك الصوت الغامض، حتى شعرت بشيء ناعم تحت قدمي، توقفت وأخفضت نظري. جنوت على ركبتي بهدوء، ومددت يدي لألتقطه.. كانت وردة سوداء!

حملتها بحذر ثم تابعت السير. بعد خطوتين فقط، وجدت وردة أخرى، التقطتها، ثم الثالثة، ثم رابعة.. وردة بعد أخرى، كأنها طريق مرسوم خصيصًا لي يقودني نحو شيء مجهول. لم يكن الأمر محض صدفة، كان ويليام!

نبضات قلبي كانت تتسارع مع كل وردة أضمرها إلى باقي الصغيرة. ابتسامة خفيفة تسللت إلى شفتي، لكن قبل أن أشعر بالطمأنينة، هبت الرياح فجأة، أقوى من أي وقت مضى، كأنها تحاول انتزاع الزهور من بين أصابعي. الممر بدأ يتسع شيئًا فشيئًا، والجدران من حولي أصبحت أكثر ظلمة كأنني أدخل عالمًا - ما آخر، عالمًا لا رجوع منه!

غمر الممرّ ظلام غير مألوف، حتى ضاق صدري وتقطعت أنفاسي. أردت أن أعود أدراجي، غير أن الطريق الذي كان مضاءً قبل لحظات انمحي في سديم دامس لا منطق فيه؛ كأن أجفاني أطبقت قسرًا، أو كأنني فقدت بصري فجأة! لم أر حتى كفي حين رفعتها أمام وجهي، فأحسست كأن العمى حل بي دفعة واحدة.

ارتجف قلبي، وارتبكت خطواتي، مددت يدي أتحمس الجدران، بينما الأخرى تضمُّ الزهور كأنها آخر ما يربطني بالواقع، فجأة اصطدمت بشيء! شهقت، وتراجعت بخوف، ثم أدركت على الفور: لم يكن شيئًا، بل شخصًا. عرفت رائحة عطره الثقيلة، وملامح جسده الصلبة التي ارتطمت بها. همست باسمه مترددة، يكسو صوتي ارتعاش:

- ويليام.. أنت هنا؟

انسلَّ صوته من العدم، قريبًا حدًّا أن شعر جسدي كله بالقشعريرة:

- «أتخافين مني يا ماريان؟».

ارتجفتُ للحظة، لا رعبًا محضًا، بل رهبة من حضوره الذي غمرني مثل ظلام أبدي. مددت يدي بتردد، فلامست شيئًا دافئًا..

كان وجهه، لم يكن يرتدي قناعه! إذن لهذا أغرق المكان في ظلام كثيف؛ ما زال لا يريد أن يريني وجهه!

للمرة الأولى، شعرت بملامحه تحت أناملي: مررت يدي على وجنتيه، ثم شفتيه، ثم الخط الحاد لفكه. كان الاكتشاف حادًا مهيبًا، كأنني ألمس سرًا لم يكتب لي أن أعرفه.

لكن فجأة أحسست بحركة، كان يقترب مني، التصقت بالحائط، لا منفذ للهرب، سوى لو ابتلعني الجدار نفسه. لم أره، بل أبصرته كظل أسود يتنفس قرب وجهي. أنفاسه كانت دافئة خافتة، تحمل وقعًا أشبه بلحن سري لا يسمعه سوانا.

تسارعت نبضاتي، حتى حسبت قلبي سيخنقني بين لحظة وأخرى. لم أعد أملك القوة على الحركة انتظرت النهاية أيًا كانت، كان قريبًا جدًا، قريبًا حد أن أفقد ذاتي. ومع ذلك، لم يمنحني الانفراج ولا

السقوط؛ تركني معلقة في خيط من توتر خانق، لا ينقطع.

تحرك فجأة، فشعرت بجسده يستدير نحوي، وهالة صمت ثقيل تلتف حوله. دفعني قليلاً جانباً لأتحرك، بينما بقيت أنا متصلبة كتمثال. وحين تجاوزني ووقف خلفي بدل الحائط، تسرب ضوء باهت من نافذة ما، كأنه انعكاس قمر بعيد. ومع ذلك ظلت العتمة متريصة بالمكان. أردت أن ألتفت، مدفوعة بفضول لا يُقهر؛ هو بلا قناع هذه المرة، غير أنه لم يمنحني الفرصة. قبض بيديه القويتين على رأسي، وثبته بقسوة كي لا ألتفت.

أنفاسي تضطرب، جسدي بين البرودة والحرارة، كأنني أؤذف من جليد إلى جمر. لزممت الصمت، كأن لساني انعقد. رفع يده تجاه وجهي، وما زال خلفي، وفي راحته تمرُّ قلادة فضية تتدلى منها جوهرة على هيئة قلب أحمر نابض، محفور عليها نقوش غامضة.

قال بعد صمت طويل، بصوت يشبه سكيناً تمرُّ ببطء على الروح:

- "لقد مضى عامٌ، ماريان.. عامٌ كنتِ فيه أسيرتي".

اتسعت عيناوي، تبعت القلادة بنظري، ثم مددت يدي ألمسها. رفعها، ووضعها حول عنقي، بينما صوته ينحدر عليّ كهمسٍ مثقل بالقدر:

- "القلب بلا سيف هسّ، والسيف بلا قلب أعمى فلا تضعني أمام الأول، ولا ترحمي الآخر".

لمست القلادة بأطراف مرتجفة، والحرارة تنبعث منها كأنها تنبض بنبض ليس نبضي وحدي. ومعها، ثقل لا أستطيع حمله ولا التخلص منه ثم أضاف، كمن يربط وعدًا بقدر:

- "في كلِّ عام تصمدين فيه، سأمنحك هدية".

وحين رفعت رأسي نحوه، خابت توقعاتي؛ كان القناع قد عاد فجأة، يظهر من العدم كما لو أنه وُلد من الظلال. لكن ارتعاشي ازداد حين رأيت أنه يرتدي قلادة أخرى سيقاً أحمر يتوهج، مكماً لقلادتي، قلبٌ وسيف، كيانان لا ينفصلان: هل هما رمز للعداء، أم لشيء أعمق؟ وقبل أن ينسحب لاحظت أن شعره الأسود اللامع قد طال خلال هذه الأسابيع.

لم يقترب، لم يلمسني، فقط تركني بين سؤالين: أأقيد بالقلب، أم أواجه ذاك السيف؟

تراجع ببطء، يسحب معه الظلام، حتى ابتلعته العتمة. قبل أن أنطق بأي كلمة كان قد اختفى. عاد الضوء، انقشع السكون، تلاشت الرياح، وكلُّ شيء من فعله هو ويليام.

عدت إلى غرفتي مسرعة، أغلقت الباب خلفي بإحكام. وما زلت أمسك بالزهور السوداء في يدي. وضعتها برفق على السرير، ثم توجهت نحو المرأة لأتمعن في القلادة عن قرب. كانت جميلة إلى حدٍّ لا يُصدق، قلادة على شكل قلب أحمر به فجوة من الأعلى، ففهمت أن السيف يدخل بداخل القلب، وهو السيف الذي يكملها!

جلست أحاول تحليل مشاعري، أحاول فهم ما يختلج في داخلي منذ لحظة استلامها، هل هذا حب، أم مجرد اعتياد؟ لم أجد إجابة واضحة. لِمَ فعل ذلك؟ هل لأنه أعطاني القلادة لأجل صمودي؟ فأنا أسيرة عنده منذ عام كامل، بينما لم يقدر أي كاتب أو كاتبة على الصمود ستة أشهر فقط، ربما هذا سبب، لكن لماذا اختار أن يقدمها بهذه الطريقة، بطريقة رومانسية؟ هل يمكن أن تكون رومانسية؟

تذكّرت صباح ذلك اليوم، حين أرسل لي رأسًا، واليوم وفي المساء منحني قلبًا، هل هو مختلٌّ؟! ولماذا يرتدي قلادة مشابهة لقلادتي؟ هذه القلادات تخصُّ الثنائيات، هل يعني هذا أننا ثنائيٌّ؟ ثنائيٌّ في الكره، في الغرابة، في الظلام، وربما في الدم؟

رأسي يكاد ينفجر من التفكير، وقلبي مشتت بين مشاعر متناقضة. هل ما أشعر به حب، أم اعتياد، أم مجرد إنكار لمشاعري؟ لحظة، ماذا لو اكتشف هذا الشيطان خطي المبتذلة وأقدم على قلب المعادلة؟ لقد خططت لجعله يقع في حبي، انتقام البطلات الغيبات البائسات في الأفلام والكتب، لكن ماذا لو انقلب السحر على الساحر؟ لا، أنا لست غبية، لن أسمح له.

لكن لم أستطع منع نفسي من الشعور بغرابة هذه الحرارة في معدتي، شعور لم أشعر به من قبل في حياتي. استلقيت على السرير، كما أفعل عادة، ممسكة بالقلادة، ولأول مرة منذ عام كامل، لم أذرف دمعًا، بل ابتسمت.



الفصل التاسع والعشرون معركة التحرير

إلياس..

«معركة تحرير المساجين»

على أطراف مملكة الخوف، خلف جبال الجنون، حيث يتشبع الجو برائحة الدم والعفن، ينتصب سجن «الهاوية السوداء»، ذلك المكان الذي لا يغادره أحد إلا جثة هامدة. غير أن هذه الليلة ستقلب الموازين.

تحت جناح الظلام، كان إلياس يقود جنوده عبر الضباب الكثيف. شبه أشباح خرجت من عالم آخر. عيونهم تتلألأ تحت أقنعة الحرب، أسلحتهم تقطر إصراراً، وقلوبهم تخفق كطبول الموت.

قال إلياس قبل أن يشعل بيده شعلة من اللهب:

- «لا رحمة هذه الليلة.. فهذا ليس وقت الأسر».

ثم قذف بالنار نحو بوابة السجن العملاقة، فاهتز المكان بانفجار مدو، وترددت صفارات الإنذار في الأرجاء. هرع حراس «السجن الأسود» إلى الخارج، وجوههم مرتجفة من الذعر، لكن قبل أن يصرخوا، مزقتهم سيوف الأحرار إربا. تحولت المواجهة إلى حمام دماء، صرخات تختلط بصليل السيوف، ولهيب إلياس يلتهم الحراس، فيما السجناء يتشبثون بقضبان الزنازين، يراقبون المشهد بأعين جاحظة: أهو خلاصهم المنشود أم موت بلون آخر؟

وفي لحظات، غدا السجن مسلخا. الدماء تلتخ الجدران، النيران تلتهم الأرض، وصوت إلياس يعلو فوق الفوضى:

- «لقد حطمنا القيود.. والآن سنحطم العرش!».

ارتفعت أعمدة الدخان نحو السماء، حاملة نذر الخراب القادم. وهناك، في ظلال الجبال السوداء، حيث يرسو صدى الصرخات القديمة، وقف الأمير المنفي إلياس وسط أنقاض السجن المشتعل، وبين أجساد السجناء المحررين الذين رمقوه بذهول وامتنان.

فمنذ أعوام لم يصدق أحد أن هناك من سيأتي لإنقاذهم.. لكنه فعلها.

رفع رأسه، ونظر إلى جنوده وإلى الأسرى الذين تحرروا، ثم قال بصوت كالنار يحرق الصمت:

- كل معاناتنا لم تذهب هدرًا!

- تابع والغضب والقوة يتفجران من كلماته:

كل سوط مزق جلودنا كل ليلة قضيناها في ظلام الزنازين كل لحظة خلت من الأمل، لم تكن بلا معنى. لقد عاينا الجحيم وعشنا، لكننا لم ننكسر. ومن يخرج من الجحيم، لا يخشى النار أبداً.

نحن لسنا ضعفاء ولسنا عبيداً، نحن أبناء العتمة، لكننا نضيء بنار الحرية. أيها الإخوة، لقد سقط أول السجن، وستسقط القلاع من بعده. هذه ليست النهاية، بل البداية.. ونحن من سيكتب الخاتمة.

ثم رفع سيفه المشتعل نحو السماء، فاشتعلت خلفه أسنة اللهب في بقايا السجن المحطم، وتعالى هتاف الجنود والأسرى، هتاف وحوش ومسوخ حرة، دوى في الجبال حتى كاد يزلزلها:
«الحرية.. لإلياس!».

في أعماق قلعة الضباب، حيث تتصاعد الأبخرة الكثيفة، دخل إلياس عائداً من معركة تحرير السجناء. بالنسبة إليه، لم تكن سوى مواجهة عابرة في سلسلة الحروب التي اعتادها. جلس على كرسي حجري في قاعة العرش الباردة، وسكب لنفسه كأساً من المشروب الأحمر، يتأمل لحظة كأنما يرى انعكاس الدم في عتمته.

إلى جانبه جلس غبرائيل، رفيقه الأبدي ومصاص الدماء العتيق، ذاك الذي لم يعرف طفولة قط، إذ ظل على هيئته منذ قرون. كان وفيًا لإلياس منذ صباه، لم يكن حارساً فحسب، بل ظلًا يرافقه عبر الزمن، يراقب نمو الأمير الذي صار اليوم رجلاً يسعى إلى تغيير مصير المملكة بيديه.

قال غبرائيل بصوت هادئ:

- سيتوج شقيقك ديموس ملكاً غداً. المملكة بأسرها تتحدث عن الحدث، والاحتفالات بدأت منذ أسبوع وستستمر لشهرين. غير أنّ الأهم من ذلك أنّ ديموس لم يكشف عن نواياه، لا للمتنبئين، ولا للوردات، ولا حتى لوزرائه. الجميع ينتظر يوم التتويج لسمع كلماته الأولى، كذلك وأخشى أننا مقبلون على زمن الهلاك.

أدار إلياس الكأس في يده، يراقب انعكاس ضوء المشاعل على سطح المشروب القرمزي. لم يُظهر
اكثرًا، ولم يتفوه بكلمة، حتى قطع غبرائيل الصمت متسائلًا:

- قلت ذات مرة إنك قادر على قتل ديموس حتى وهو محصن في قصره. ماذا كنت تعني بذلك؟

رفع إلياس الكأس إلى مستوى عينيه، تمعّن في السائل كأنه يرى مشهدًا في بعد آخر، ثم همس
بثقة:

- ستقتله تلك الفتاة.. إن امتلكت الشجاعة.

ضحك غبرائيل ساخرًا، فارتد صدى ضحكته في القاعة الجوفاء:

- ما الذي دهاك يا صديقي؟ ظننت أنك تخطط لمكائد جهنمية، فإذا بك تراهن على بشرية واهنة
لقتل رجل مثل

ديموس؟ هذا جنون! لو سمع الأحرار حديثك لضجوا بالضحك حتى الموت!

تبسم إلياس ببرود:

- اسخر كما تشاء، لكن خلال يومين سيصلي الخنجر الأعجوبة وسأقدمه إليها.

اتسعت عينا غبرائيل دهشة، وانتصب في جلسته متحمسًا:

- ماذا؟! كيف حصلت عليه؟!

ارتسمت على شفتي إلياس ابتسامة واثقة، وأجاب بصوت خفيض:

- يظنون أنني ضعيف، لكنهم سيغيرون رأيهم قريبًا. ليس المهم كيف حصلت عليه، بل المهم أنّ
هذه الفتاة هي من ستقتله.

تراجع غبرائيل في مقعده قليلاً، محدّدًا فيه بعينين ضيقتين، ثم قال ببطء:

- لكن.. لست واثقًا أنها ستفعلها. ماذا لو فشلت؟

وضع إلياس الكأس على الطاولة بعناية وردّ بصوت حازم:

- لن تفشل. في ذلك اليوم سأكون معها، المهم أن تستدرجه إلى الفخ.

هز غبرائيل وهو يرفع كأسه:

- حسنًا، سأثق بك، لكن لا تنس أنك أملنا الأخير، ولا مجال للتهور.

- ليست لدي فرصة أخرى، إنها اللحظة المثالية لمن أراد أن يقتل، فالأقربون أقدر على ذلك.
ديموس حصن منيع، حتى الأشباح والشياطين لا يجرؤون على الاقتراب منه. كنت بحاجة إلى

شخص من دائرته، لكن المقررين جميعهم أسرى خوفه. أما هذه الفتاة، فهي أشبه بقنبلة موقوتة، سلاح لا بد من استغلاله، لن أنتظر سنوات لأواجهه في حرب مفتوحة. سأختصر الطريق، وأتسلل معها حتى أقف أمامه وجهًا لوجه.

ضحك غبرائيل وأشار بكأسه قائلاً:

- نخب الخطط القادمة التي ستنجح. سنبدأ بتوسيع جيشنا، ونكسب المزيد من الأنصار، نقنع الأحياء والأموات من الزومبي بالانضمام إلينا. أما المستذئبون، فسيخضعون بسهولة، فهم مظلومون ومضطهدون في كل مكان.

رفع إلياس حاجبه وسأل بفضول:

- سمعت أن قومك، مصاصي الدماء، يخططون لطرد الزومبي من أراضيهم؟

تنهد غبرائيل وهز رأسه بضيق:

- نعم.. لقد ارتكب الملوك الأوائل خطأ جسيماً حين وضعونا في أرض واحدة مع تلك الجثث المتعفنة. كيف يمكن لنبلأ مثل مصاصي الدماء أن يتقاسموا موطنهم مع مخلوقات نتنة كهؤلاء؟

ارتشف إلياس رشفة من كأسه، ثم ابتسم ابتسامة جانبية:

- أظن أن ديموس سيحقق حلمكم، فلطالما فضل أن يكون مصاصو الدماء إلى جانبه. قريباً سيُطرد الزومبي، وحينها سنكون نحن من يجمع تلك الأجساد العفنة إلى صفوفنا، لا بأس بذلك، فهم على الأقل يجيدون القتل بلا رحمة.

ارتفع نخب المؤامرة في القاعة، واختلطت أصواتهما بأصوات الريح التي كانت تعوي خلف النوافذ، كأنها تنذر بأن الظلام يتهاياً لاستعادة عرشه من جديد.



الفصل الثالثون الملك ديموس

اليوم هو اليوم المنتظر بالنسبة إلى الجميع، أما بالنسبة إليّ فلم يكن لأمر مجرد رغبة في رؤية ويليام ملكاً، بل كان أمني أن أرى وجهه أخيراً بعد عام كامل. لست واثقة إن كان سيكشف عن وجهه أم لا، لكنني خمنت أنه سيفعل، فالיום ليس عادياً أبداً، لا بالنسبة إليه ولا بالنسبة إلى الآخرين. أعلم أن كثيرين قد رأوا ملامحه من قبل، لكنني لم أظن أن وقت ارتداء الأقنعة مناسب في يوم مهيب كهذا.

كان إحساسي يخبرني أن هذا اليوم بالنسبة إليهم أشبه بعيد. القصر الذي ظل خالياً لوقت طويل أصبح مكتظاً فجأة، بعد أن كنت أعيش فيه شبه وحيدة. حتى سمارة، التي اعتادت في الأيام الماضية أن تترك باب غرفتي مفتوحاً، أغلقت عليّ في اليومين الأخيرين.

بينما كنت أجلس أكتب مذكرتي، دخلت سمارة ومعها امرأة شاحبة الملامح، يعلو وجهها طابع من عدم الارتياح. كانت سمارة تحمل بيديها فستاناً ضخماً، أشبه بذلك الذي ارتديته في عيد ميلادي. فردته على السرير وقالت بلهجة مفعمة بالحماسة وابتسامة مشرقة: «لقد جئنا لنجهزك، هل أنت مستعدة؟».

أومأت برأسي بصمت وعينا معلقتان بالفستان. شرعنا في تجهيزي بسرعة، فيما كنت غارقة في أفكار. لم أفكر إلا في ويليام، وفي هذا اليوم الذي لم أستطع أن أطرد عن نفسي الشعور بأن شيئاً ما سيحدث خلاله، كما يحدث دائماً في كل مرة. كان قلبي يخفق بعنف دون سبب ظاهر، لكنني كنت على يقين أن هناك سبباً خفياً. «انتهينا». قالت سمارة، فانتبهت من شرودي. شعرت فجأة بثقل جسدي بعد أن ارتديت الفستان. أخذتني سمارة ببهجة، كما لو أنها تقود ابنتها إلى زفافها، نحو امرأة طويلة. وقفت أمامها، وحين رفعت بصري إلى انعكاسي، ذهلت. لم أعرف نفسي، فقد بدا مظهري مختلفاً تماماً.. حتى أنني شعرت كأنني أرى غريبة تقف أمامي.

قالت سمارة بابتسامة يعلوها الفخر:

- هذا الفستان يُسمّى «بلون الدم الملكي».

أما أنا فاتسعت حدقتاي بدهشة، إذ كان المنظر أمامي أغرب وأروع، بل وأرهب ما ارتديت في حياتي. لقد كان فستاناً قرمزيًا قاتمًا، كدم جفّ على شفرات قديمة، لونٌ لا يذكر إلا في الأساطير.

نسيجه بدا حيًا نابضًا، حرير أسود تتشابك فيه خيوط حمراء عميقة، كعروق تضجُّ بالحياة فوق بشرة ميتة.

الجزء العلوي من الفستان كان ضيقًا عند الخصر، تتوجّه كورسيه من جلد أسود مُطرز بزخارف باروكية داكنة، يبرز نحولي وهشاشتي كدمية زجاجية على وشك الانكسار. أما ياقته العالية، المغطاة بالدانتيل الأسود، فقد بدت كطوق ملكي في الوقت نفسه الذي تُشبه فيه عقد جنازة.

أكمام الفستان امتدت طويلة، شفافة من تولّ أسود، تنتهي عند المعصمين بزخارف حمراء قاتمة تحاكي أزهارًا ذابلة، مرّت بها لمسة الموت فجعلتها جميلة بطريقة مأساوية.

تنوّرتة انسابت حولي مثل الظلال، طبقات من الشيفون والحرير تتماوج مع كل خطوة، وكأنني أخطو وسط ضباب أحمر، أو أن الأرض تنزف خلفي مع حركتي.

وعلى ظهري، كانت سلسلة ذهبية رفيعة تتدلى، تحمل تعويذة صغيرة على هيئة قلب مكسور، تتلألأ كلما لامسها وهج الشموع، رمزاً لقلبي الذي سيتشقق اليوم دون أن يلحظ أحد.

أما شعري، فقد تُركّ منسدلاً بحريّة، متموّجًا بلونه الأحمر الناري، يتوجّه تاج صغير من الأشواك السوداء والورود القرمزية الذابلة.. كأنني ملكة حزينة، ستُلقي في مملكة الكوابيس.

قالت سمارا بعد أن رأني ألتمز الصمت دقيقة كاملة:

- هل أعجبك؟ إن كان ثمة ما لم يرق لك يمكننا تغييره.

تلعثمت أخيرًا، أخرجني صوتها من دوامة صدمتي:

- أوه.. نعم.. أقصد لا.. لا أعلم! إنه جميل جدًّا، كل ما فيه أسر، لقد أعجبني حقًّا.

ضحكت سمارا بفرح:

- إنك تبدين أميرة الآن.

سألته بارتباك:

- هل سأكون أنا الإنسانة الوحيدة هناك؟

داهمتها بهذا السؤال الذي بدا غريبًا بالنسبة إليها، لكنها سرعان ما ابتسمت وهي تمسح على شعري قائلة:

- لا تخافي، لن يجرؤ أحد على لمسك، ولن يستطيع أحد اعتراض طريقك. سأكون معك طوال الوقت هيا بنا، لا ينبغي أن نتأخر.

كان في داخلي سيل جارف من الأسئلة، غير أن الوقت لم يترك لي مجالاً لطرح أي منها. اتجهنا نحو المصعد السماوي، صعدنا فيه، وضغطت سمارا على زر مختلف عن تلك الأزرار التي اعتدت أن يضغطها ويليام كلما صعدت معه. تحرك المصعد مرتفعاً، وكانت تلك أول مرة أصل فيها إلى الطوابق العليا. لطالما راودني الفضول تجاهها، تلك الطوابق التي تقع بين السحاب.

ها أنا اليوم أشبع فضولي. بدا واضحاً أن قاعة الاحتفال هناك، وربما أيضاً قاعة العرش.

توقف المصعد أخيراً، وغادرناه لنجد أنفسنا أمام عالم آخر، لم يكن طابقتاً عادياً من طوابق القصر، بل شيئاً مختلفاً تماماً. دخلنا قاعة واسعة بدت كقاعة استقبال قبل الوصول إلى قاعة الحفل. كانت القاعة ذات شكل دائري، جدرانها تكسوها رسومات مظلمة في غاية الجمال، تتدلى فيها ثريات ومصابيح ضخمة بألوان صفراء وبيضاء، بينما اصطفت طاولات طويلة مهيبه لتقديم الطعام والمشروبات. كلُّ شيء هناك بدا وكأنه مقتطع من قصة خيالية مظلمة.

كنت أمشي مذهولة، عيناى متسعتان من الدهشة، لا أنظر إلى طريقي بقدر ما أتبه في تفاصيل المكان، فيما كانت سمارا تقودني ممسكة بيدي. وصلنا إلى بوابة مزدوجة ضخمة مطلية بالذهب، مرصعة بأحجار سوداء لامعة أشبه بالنجوم، وقد نُحت عليها وجه رجل مسنّ يرتدي تاجاً ذهبياً، يوحي بأنه ذو مكانة عظيمة، ربما المؤسس الذي أنشأ هذا العالم.

كان الحراس منتشرين بكثرة حول البوابة وفي أرجاء المكان. وما إن رأونا تقترب حتى تقدم اثنان منهم، طولهما يكاد يعادل ارتفاع البوابة نفسها، وفتحا الأبواب الثقيلة. لم يعد الخوف يسيطر عليّ بقدر ما يسيطر عليّ شعورُ المفاجأة في كلِّ مرة أرى حين انفتحت البوابة على مصراعيتها، اجتاحتني رياح باردة تحمل رائحة غريبة، لكنها عذبة، واختلطت بأنغام موسيقى غامضة وأصوات أحاديث المدعوين. كانت تلك بوابة الدخول إلى قاعة «الخوف والرعب».

تراجعت خطوة إلى الوراء دون وعي، جف حلقي وتباطأ نبضي، غير أن يد سمارا أمسكت بمعصمي بلطف، وجرتني عبر العتبة إلى عالم لم أخلق للانتماء إليه.

وهنا دخلت، المشهد أمامي كان أشبه بلوحة جهنمية مرسومة بأيدي كائنات من كوابيس البشر.

لم تكن قاعة وحسب، بل عالماً قائماً بذاته، أشبه بكابوس معماريٍّ شُيّد من الجنون والعبقرية والرعب. كانت القاعة هائلة الاتساع، بسقفٍ مرتفع حتى بدا وكأن لا نهاية له. تكسوه لوحات جدارية تتحرك ببطء كما لو دبّت فيها الحياة: لوحات لكوابيس سحيقة: وجوه تصرخ بلا صوت، تنانين تلتهمها النيران في السماء، وملوك سقطوا منكسرين أمام عروش ملعونة. جدران القاعة شُيّدت من رخام أسود لامع، يعكس السنة النار الخافتة المعلقة في ثريات حديدية ضخمة تتدلى كسلاسل مقابر ملكية. كلُّ شعلة فيها كانت تتراقص بلون الدم، لا بوهج النار المعتاد، وكأنها تغلي بأرواح معذبة. وفي منتصف القاعة، امتدّ سجاد قرمزي كلسان شيطان يقود نحو العرش. كان

المدعوون يطؤون عليه بأحذيتهم اللامعة، غير أن أحدًا لم يجرؤ على استكشاف أطرافه المظلمة. بدت كأنها تنزف دمًا خفيًا. أما الحضور فكانوا مشهدين فوق الوصف: لوردات الظلال، جنرات الليل، سحرة القمر الأسود، ومصاصو الدماء النبلاء بعباءاتهم الثقيلة، يختلطون مع وزراء مملكة الخوف، والقتلة المتسلسلين الذين بدا وكأنهم خرجوا من صفحات جرائم منسية. وجوه الحاضرين كانت أبعد ما تكون عن المألوف؛ بعضهم بلا عيون، بعضهم خلف أقنعة معدنية باردة، وبعضهم لا يملك ملامح بشرية أصلًا. وكلما جُلت ببصري، شعرت أنني محاطة بمخلوقات لا ينبغي لها أن توجد إلا في أعماق الكوابيس. ومن زوايا القاعة، انبعث عزف الأوركسترا، لكنه لم يكن موسيقى بالمعنى التقليدي. كان مزيجًا مروعًا من الكمان والهمسات والتنهيدات الثقيلة، يعزفه كائنات عمياء، بأيدي مشوهة وأعين مكتمة، غير أن أصابعهم النازفة أطلقت لحنًا من لعنة وألمًا. كانت الألحان تنخر في الأعصاب، توقظ ذكريات مدفونة، وينبعث الحزن من أعماق الروح. الموائد امتدت طويلة من حطب مصقول، مغطاة بأقمشة داكنة منسوجة بخيوط العناكب السوداء. والأطباق لم تكن طعامًا بشريًا، اتسعت عيناى بدهشة لم أعرفها من قبل، وفي داخلي انكمش الجزء الصغير الذي كان يظن أنني ما زلت إنسانة. اختنق شيئًا فشيئًا، ارتجفت رغم حرارة المكان، وكنت أرمش سريعًا محاولة استيعاب ثقل هذا العالم الملعون. أحسست أنني غريبة، بشرية ضائعة بين ملوك الرعب. وزاد الطين بلة نظرات الحضور التي تسلت إلى داخلي كفيروس سام، بعضها بالدهشة، بعضها بالسخرية، وبعضها بالجوع. كنت أعلم أنني لست ضيفة بينهم، بل فريسة مؤجلة.

مشيت بخطوات مرتجفة، مذهولة، فمي مفتوح دون أن كان كل شيء حقيقيًا، لا حلم ولا وهم، كدت أجن. الآن فقط أعد ألوم ماما سارة حين فقدت عقلها، فكيف كان يمكن لأحد أن يصدقها؟ وأنا نفسي بالكاد أصدق ما أراه.

أخذتني سمارا بخفة إلى طاولة طويلة، تزينها شموع سوداء تشتعل بلهب أزرق، وأطباق غريبة لا تمت إلى مطبخ البشر بصلة. لكن ما قطع أنفاسي لم يكن الطعام.. بل العيون!



الفصل الحادي والثلاثون البشرية الوحيدة

كانت كل العيون عليّ أنا، حاولت أن أتجاهل النظرات، وألقيت نظرة على الطاولة أمامي. الأطباق مغطاة بأطعمة لا يمكن أن تكون مخصصة للبشر.

كنت أتظاهر بأن كل شيء من حولي طبيعي، أحاول إخفاء خوفي وتوتري، فيما أنا ملتصقة بسمارا التصاق طفلة بأُم لم تنجبها. كنت أتصلب من الذعر والدهشة والصدمة في كل مرة تقع عيناى على شخصية خيالية لم أكن أظن أنها ستوجد إلا في القصص، فإذا بها الآن أكثر حضورًا منى أنا نفسي. حاولت تجاهل الطعام الموضوع على الموائد، وتجاهل تلك النظرات الغريبة التى تخترقنى، أعينهم التى تكاد تخنقنى بنظراتها المتفحصة.

لاحظت سمارا ارتباكى، فأشارت بإصبعها إلى خادم تقدم نحونا يحمل طبقًا وشرابًا طبيعيين. كان الطبق فخماً، يحتوي بعض المعكرونة مع صلصة حمراء، وشريحة لحم ناضجة، إلى جانبه كأس من النبيذ الأحمر. وضعه أمامى برفق، فيما ابتسمت سمارا وقالت:

- هيا، تناولى طعامك.

هزرت برأسى، عيناى لا تزالان معلقتين على ذلك الحشد المرعب:

- لا، لست جائعة.

قالت سمارا بنبرة مطمئنة:

- إنه طعام طبيعى.

أجبتها بتردد، وكأننى أحاول أن أقنع نفسى أكثر مما أقنعها:

- نعم، أعلم.. لكن لا رغبة لى فى شيء. سأكتفى بالشراب. كيف تتوقع منى أن أضع لقمة فى فمى وسط هؤلاء الوحوش؟!

لم نكمل نقاشنا، إذ فجأة، دوى الطبل الأسود. صوته بطيء، ثقيل ومع كل دقة، اهتزت القاعة، كما لو أن الزمن نفسه يتراجع خطوة إلى الوراء.

ثم دوى صوت البوق، غريبًا، مثل زئير وحش انبعث من أعماق الجحيم.

صوت عميق، أجش، خرج من قبر لم يُفتح منذ قرون، ارتدَّ صدهاء بين الجدران القوطية، معلنًا لحظة لا مهرب منها.. لحظة وصول العائلة الحاكمة للظلام.

ارتفع الصوت الجهوري:

- «انحنوا، اخفضوا رؤوسكم أمام القادم من العدم، أمام السيد الذي لا يُقهر، أمام من نقش اسمه على لحم الملوك بحدِّ سيفه! ها قد جاء ملك الظلال والعتمة.. الملك الذي جعل كوابيسنا واقعًا، سيد الخراب، والد الظلام. الملك أريس بن داميان إيريس!».

ومع ذكر اسمه، انفتحت الأبواب العظمية بصيرير يشبه نواح الموتى، ودخل أريس، ملك العصور، وسيد الملوك الذين سقطوا.

«أريس داميان إيريس - ملك الظلال الحي»

كان ضخم البنية، طويل القامة، شعره الأبيض الطويل ينسدل على كتفيه، ولحيته الرمادية تزيده مهابة. لم يكن يسير فحسب.. بل كانت العتمة نفسها تتحرك معه، تبتلع الضوء أينما مر، وتجعله مركزًا للعدم. إلى جانبه سارت زوجته، الملكة الصغرى، التي كانوا يلقبونها بـ «الوردة السوداء». ثم لحقت بهما لوليتا، الأخت الصغرى ذات الأسرار المحرمة.

كانت نحيلة القوام، فاتنة الجمال بملامح غريبة أسرة، وشعرها الأسود يتدفق كشلال مظلم. على كتفها استقر غراب أسود، عيناه تتوهجان بوميض غامض، كأنه يبصر ما لا يحق للبشر أن يبصروه.

ثم ظهر فوبوس، سيد الكوابيس السوداء والابن الأكبر. سار بخطوات ثابتة، صامتة، وجهه مغطى بقناع فضي ليس جامدًا، بل عاكسًا. كلُّ من تطلع فيه رأى وجهه مشوهًا، كأنه يرى نفسه بعد الموت. وفي يده حمل سلسلة قصيرة تتدلى منها قلادة سوداء، رمزًا لا يعرف معناه سواه! غريبون حقًا! أعرف وجه فوبوس، ولكن لماذا اليوم قرر أن يرتدي قناعًا؟ هل هذا يعني من الممكن أن ويليام أيضًا لن يخلع القناع؟!!

وحين تقدمت العائلة المالكة إلى قلب القاعة، لم يجرؤ أحد على البقاء واقفًا. سقط الجميع على ركبهم.. سادت الفوضى، حكام العالم السفلي، ملوك الوحوش، مصاصو الدماء، السحرة، القتلة. كلهم انحنوا أمام من حكم قبل ديموس. أمام الظل الأعظم. أمام العائلة الحاكمة التي صنعت هذا العصر بدمائها.

وها هم الآن، يجيئون ليشهدوا التتويج، ليشهدوا سقوط عائلة كاما، وولادة كاما كامل، وولادة كابوس جديد.

كنت الوحيدة التي لم أنحن ليس تعمُّدًا، بل لأنني كنت غارقة في دهشتي، مسمّرة في مكاني كأنني صرت تمثالاً من حجر.

عيناى متسعتان حتى كادتا تخرجان من محجريهما، فمي مفتوح بدهشة أشبه بالصمت المدعور، وعقلي يحاول جاهداً استيعاب ما يحدث حولي لكنه يفشل، يتعثّر بين الرعب والذهول.

بينما كانت عائلة ويليام تسير بخطوات ثابتة عبر الممر الأوسط للقاعة، ظللت وحدي واقفة، ساكنة، أقاوم الانهيار، فيما انحنى الجميع حتى التصق جبينهم بالأرض.

وعندما بلغوا مكاني.. توقف الملك أريس فجأة. التفت نحوي، والتقت عيناى بعينه. كانت تلك اللحظة أشبه بالسقوط في هاوية بلا قاع.

شعرت بارتجاف يسري في كل خلية من جسدي، بالعرق يتفجر من مسامي، بأنفاسي تضيق حتى كدت أختنق. نظراته اخترقتني.. غريبة ومربكة، عصيّة على الفهم. لم أعرف إن كان غضبه لأنني لم أنحن، أم أنه أدرك حقيقتي، أنني بشرية بين وحوش. أسئلة قاتلة ضربت رأسي بلا رحمة، لكن قبل أن أغرق في الهلع، صرف بصره وأكمل مسيره بخطواته المهيبه، يتقدّم مع عائلته حتى وصلوا إلى مقاعدهم العظمية.

عندها فقط نهض الجمع واستقاموا في صفوفهم كجدار من الظلال، وجاء صوت الملك أريس، أجش عميقاً، يحمل صدى قرون من الهيمنة والدماء، يشبه صوت ويليام، ولكن أكثر ثقلاً ورعباً، صوتاً بدا كأنه خرج من صدر الأرض نفسها:

- «مرحبا بكم، يا أبناء وشعب مملكة الخوف.. في هذا اليوم العظيم، الذي سيُسَطَّر في صفحات التاريخ بدم و نار.

اليوم الذي انتظرناه طويلاً، اليوم الذي ستغمرنا فيه بينما يغرق أعداؤنا في الرعب، فيحترقون قبل أن تلمسهم نار ملكنا الجديد.

اليوم سنعيد كتابة التاريخ لهذه المملكة، وللعالم، ولأبنائه الذين ولدوا من رحم الظلام.

اليوم، ومن هذه اللحظة، سنرحب بملكنا الأعظم في هذا العصر وسنمنحه أرواحنا ودماءنا.

فلنرفع رؤوسنا جميعاً.. ولننحِن أمام الروح المظلمة للعصر والنور الأبدي لمملكتنا!«.



الفصل الثاني والثلاثون قلب محطم

دَوَّى البوق المهيب ارتجت الجدران من شدّته، ورقصت ألسنة الشموع المرتجفة حتى أوشكت على الانطفاء. الهواء أثقل من أن يُستنشق، وكأن قوة تفوق الحياة والموت قد اخترقت القاعة.

ارتفع صوت جهوري يخترق السكون:

- «قفوا جميعًا..»

- ارفعوا أبصاركم إلى القادم من رحم الظلام والدم!

- ها قد أتى النار التي لا تخمد، الظل الذي لا يُكسر، الجحيم الموعود.

- ها قد جاء سيدنا المولود ليحكمنا. والمولود ليفيننا.

ها هو الوريث الذي خُطَّ اسمه في نبوءات الخراب!

- «ها قد أطلَّ ملك الكوابيس، سيد الدمار، الملك الأسود، الملك ديموس إيريبوس!».

في لحظة واحدة انتفض الجمع، وقفوا كأنهم آلة واحدة بلا إرادة، ثم ببطء مشوب بالذعر، جثوا على ركبهم. لم يكن انحناء احترام، بل انحناء النجاة؛ انحناء من يخشى أن يكون الضحية التالية.

ساد الصمت.. ثم خرج هو.

من بين الظلال التي لا يسكنها أحد، انبثق جسد مكسوٌ بالسواد والذهب، كليلاً حالك يعكس ضوء نجم مشؤوم. كان يرتدي عباءة ليست كسائر الأثواب، عباءة حالكة كالفجوة بين العوالم، وحوافها مطرّزة بخيوط ذهبية تتوهّج كالشمس. وعلى وجهه قناع نصفه من ذهب ونصفه من سواد، يفصل بينهما خط متعرج كجرح قديم، يبدو وجهه مثل ساحة حرب بين النور والظلام، بين المجد والدمار.

لكنّه كان الحكم، وكان الخراب.

كلّ خطوة يخطوها لم تكن بطيئة، بل مثقلة، كلّ حركة تدفع العالم قليلاً نحو حتفه.

أما العيون فقد تفرّقت نظراتها، مضطربة وهاربة، باحثة عن مأمّن، لكن لا ملاذ. كيف يفز المرء من قدره؟ وكيف يهرب من نبوءة وُلدت قبل أن يولد؟

ومع كلّ ذلك الرعب والرهبّة كانت هناك نظرة واحدة، وحيدة، لم تتوجّه إليه خوفاً، بل ألماً. وتلك النظرة.. كانت نظرتي.

كان قلبي يخفق بعنف، يتردد صداه في صدري مع كلّ خطوة يخطوها ويليام وهو يدخل القاعة، لا كخاطف اقتادني يوماً، بل كملك متوج. كان يرتدي ثياباً تليق بجلاله، تحيطه هيبة تنطق وحدها أنه وُلد ليحكم.

بدوت وكأنني مسحورة، ساكنة النظرات، فيما الجميع انحنى إجلالاً إلا أنا.. لكن مهلاً! تلاشت ابتسامتي، وتوقّف قلبي عن النبض لحظة حين رأيت امرأة تسير إلى جواره.

كانت شابة فاتنة، بشعرها الأسود اللامع، وبشرتها البيضاء، وملامحها المصقولة بجاذبية أسرة. كانت تحمل أنوثة طاغية وقوة مبطنّة في آن واحد، ترتدي فستاناً أزرق يفيض سحراً وجمالاً، تبدو كملاك وشيطان معاً، ساحرة لا تُقاوم.

الجميع ما زال منحنياً، أما أنا فكنت أراقبها وهي تمسك بيده، تسير إلى جانبه بثقة من تملك العالم. أردت أن أصرخ وأسأل: من هذه؟ لكن لا أحد كان سيلتفت إليّ وسط هذا المشهد.

مرّ ويليام من أمامي دون أن يمنحني نظرة، وكأنني لم أكن. وحين وصلا معاً إلى منصة العرش، نهض الجمع في آن واحد. يدها في يده، صورة لا تُحتمل كأن أصابعه خُلقت لتتشابك مع أصابعها أكثر من انتمائته إلى الأرض التي يسير عليها. كانا يشبهان كأنهما كيان واحد، رغم أن أعينهما لم تتلاق، ورغم برودة خفيّة... ، لكن ما جدوى ذلك؟ المهم أنه لم أتمالك نفسي، التفتُ إلى سمارة التي كانت تبتسم بجانبني وسألتها بصوت مرتعش:

- من تكون هذه؟

أجابت ببرود، دون أن تصرف بصرها عن المشهد كي لا يفوتها شيء من الموكب:

- إنها الملكة «ليليث».. ملكة مملكة آكلي لحوم البشر، وزوجة ديموس.

وصلت كلماتها إلى مسامعي منخفضة، لكنها كانت كافية لتحطم كلّ أوهامي. توقّف العالم لحظة.. زوجته؟

كانت كلمات سمارة كخنجر يغرس في صدري، مع أنني لم أكن أملك الحق في الشعور بالألم. حاولت أن أبتسم، أن أبدو غير مكترثة، وكأن قلبي لم يتناثر إلى شظايا في تلك اللحظة، غير أن

الاختناق خنقني.

قلت لنفسي:

«لا يهم، لا أبالي، لم أحبه أبدًا».

لكن، لماذا أشعر بشيء يسحق صدري؟ لماذا كان قلبي يؤلمني كما لو أن يده تلك لم تمسك يد الملكة، بل أمسكت قلبي وسحقته؟

حاولت إقناع نفسي بأنني لا أشعر بشيء، ولكن لم أتوقعها. لكن العاصفة في داخلي لم تهدأ، بل تمردت.

كيف؟ كيف بعد كل ما مضى، بعد كل اللحظات التي توهمت فيها أنه ينتمي إليّ بطريقة ما، يمكن أن يكون متزوجًا؟

رددت لنفسي مجددًا:

«لا يهم، أنا لا أهتم، لم أحبه أصلاً!».

لكن الألم ظلَّ ينمو في داخلي، يتسلَّل كما يتسرب السم في جسد الضحية. حتى حين همست لي سمارة بأن زواجه مجرد تحالف بلا حب، مجرد مصلحة باردة، لم يكن ذلك كافيًا. ما كان يهم هو أنه لم يكن لي.

عندها فقط أدركت الحقيقة التي حاولت طويلاً إنكارها. لم يكن مجرد رجل اختطفني، ولا مجرد ملك يثير الرعب، لقد كان الرجل الذي وقع قلبي في حبه، رغما عني، رغما عن كل شيء. لكن هذا الحب لم يعد لي حقُّ فيه.

أكرهك يا ويليام. أكرهك كثيرًا. لقد دمرت حياتي. يجب أن أمحوك من وجودي. أتمنى أن تموت.

في «صراع العروش» كانت آريا ستارك، ابنة الذئب، تكتب أسماء من تكرههم وتتمنأهم للموت، وتردها حتى يسقطوا واحدًا تلو الآخر، بيدها أو بيد غيرها، ما دام الموت مصيرهم بأبشع الطرق.

ومن اليوم سأفعل مثلها، لكن قائمتي قصيرة.. اسم واحد فقط سأردده: ويليام. بل ربما اسمين: ويليام وديموس. كلاهما أتمنى لهما الموت بأبشع الطرق.

أما أنا، فلم يعد لي أي حق في ذلك الحب.

جسدي يرتعش بلا توقف، والأصوات حولي بعيدة، كأنني انتقلت إلى بُعد آخر. رغبت أن أغادر القاعة، أن أركض بعيدًا، لكنني تساءلت: لماذا؟ من أكون لأفعل ذلك؟ لقد صدق ذلك الشيطان حين قال: يجب ألا أنسى دوري هنا، أنا مجرد محظية لا أكثر.

- ماريان.

أخرجني صوت سمارة من دوامة الإحباط، ثم أردفت باستغراب:

- هل أنت بخير؟

تداركت نفسي، أخفيت الدموع التي تترقق في عيني، وأجبت بصوت خافت:

- نعم، أنا بخير.

لم يكن لديها وقت للتأمل وجهي أو تحلل ارتبائي؛ فقد كانت مشغولة بهذه الليلة الاستثنائية. وقف ويليام إلى جانب زوجته ليليث، ثم تقدم والده إلى الأمام.

كانت دقات ثقيلة تهز القاعة كنبض المملكة نفسها، ومع كل دقة تباطأت أنفاس الحاضرين.

أريس داميان إيربوس، الملك الذي حكم العصور، وقف أمام وريثه. وحدها هيئته كانت تكفي لخنق الهواء، لكنه اليوم بدأ كظل يتلاشى أمام قدوم عاصفة جديدة. رمق ديموس بنظره وحشية، نظرة اختبار أخيرة، ثم رفع «سيف المؤسس»، ذاك السيف الأسود المرصع بجماجم صامته، انتزعه من غمده المصنوع من جلد الأرواح، فانبعث منه وهج ألقى ظللاً راقصة على الجدران كأنها تبشر بميلاد عهد جديد.

صوته الضخم دوى في القاعة:

- باسم الظلام الذي يسبق النور، باسم الرعب الذي يسود الهيمنة، باسم الدماء التي تسفك لتطعم العرش.. أعلن ميلاد ملك لا يموت، ملك لا يخضع، ملك ليس كغيره، ملك الذي لا قلب له، الملك ذو الرؤوس الثلاثة.

ثم تقدم حامل التاج.

«ميراثين»، الكاهن الأعظم للطقوس السوداء، رجل بعينين غارقتين في سر أزلي. في يديه المرتجفتين حمل «تاج العظام السوداء»، تاج لم يصنع من ذهب أو مجد، بل من عظام الأعداء الذين سقطوا في حروب التوحيد. وفي مركزه عين ميتة تتأمل ببطء، تحديق في ديموس، لتحكم: أهو جدير بالحكم، أم إنه سيُمحي كما مُحي من سبقه؟

اقترب ميراثين وثبت التاج فوق رأس ديموس، ثم همس بكلمات لم يسمعها أحد. ارتجفت الأعمدة، وتزلزلت القاعة وكأن زمنهم نفسه انحنى للملك الجديد.

وهكذا، في تلك الليلة، تحت أنظار كل الحاضرين، وُلد عهد الرعب المطلق.. وصار ديموس ملك مملكة الخوف والرعب.

انطلقت الصرخات والتهتافات مؤيدة. ارتخت الهامات انحناءً لملكهم الجديد. دام الاحتفال دقائق ثلاث من الأحضان والتبريكات، حتى رفع ويليام يده اليمنى، فعم الصمت من جديد.

وقف ديموس، متشحاً بعظم الملوك السابقين، متوجاً بتاج الجماجم، قابضاً على سيف المؤسس الملعون. حبس الجميع أنفاسهم، حتى الظلام نفسه انحنى لحضوره.. ثم تكلم.

- اسمعوني أيها الأحياء والموتى، يا من تنحنون أمام أعظم ملوككم، يا من تتوسلون إلى الظلام طلباً للرحمة، ويا من تتوهمون أن الهرب ممكن؛ اليوم أعلنكم جميعاً عبيداً في مملكتي!

أنا ديموس بن أريس داميان إيريوس، وريث العرش الأبدي، ملك الخوف والرعب، سيد الجحيم الذي يمشي على الأرض. أنا الطاعون الذي لا دواء له، النار التي لا تنطفئ، الظل الذي يبتلع كل نور.

ظننتم أن الممالك الثمانية ستبقى قائمة على حكمكم؟ ظننتم أن الرحمة ستجد سبيلاً إلى هذا العرش؟ كلا! آتٍ أنا لا يعرف الشفقة، لا يهاب الدم، ولا يطلب الغفران. ومن تجراً على العصيان.. فسأمزقه بيدي، وأحرق لحمه، وأجعله وقوداً لنشيد أيامي القادمة!

أيها الحكام، أيها السادة، أيها الكائنات التي تعيش فوق هذا العالم، أعدكم: سيعاد تشكيل الأرض تحت قبضتي.. ستسقط السهول بلهيب. وتسقط الممالك أمام زحفي. كل من يرقص، كل من يقف ضدي لن أكتفي بقتله، بل سأجعله عبرة، مادة تُكُسد تحت أقدام عرشي.

من هذه اللحظة لا خلاص، لا رجاء، لا أمل، إنما حكم السحر وحده.

أشعلوا النيران، مزقوا الأجساد، اجعلوا الليالي سجيناً من دم ورعب، فزمن الرعب لم يعد أسطورة، بل صار حقيقة!

تعال الصرخات، وارتفعت الضحكات الوحشية، وبدأت مراسم ولادة العالم من جديد تحت سطوة عهد ديموس الأبدي.

شعرت بالاختناق الحاد، لكن الصمت عم القاعة مرة أخرى حين رفع ويليام يده. كان لم يفرغ بعد.. وحين التقت عيناه بعيني، تجمد الدم في عروقي. لأول مرة في هذه الليلة ينظر إليّ. ضرب قلبي بعنف، وغمرني يقين أن ما سيقوله سيكسرني أكثر من خبر زواجه.

ورّع نظره على الحاضرين، ثم صرح صوته الحاد العميق فقال:

- سقوط عالم البشر.. وبداية عهد الظلام!

أيها السادة، يا وحوش الخراب، يا أبناء العدم، اليوم نهاية أسطورة البشر.

لقد اعتمدت مملكتنا عبر العصور على كوابيس خيالاتهم التي صنعت لنا القوة من خوفهم، كتبوا أساطيرهم، رونا وحوشاً في قصصهم، أشباحاً في ليلهم. لن نكون مجرد خرافات تملأ كتبهم، ولا ظلالاً لنومهم حان الوقت لنطأ أرضهم، لنحرق مدنهم، لنحوّل سماءهم ليلاً أبدياً!

لن يكتب البشر بعد اليوم عن الرعب، بل سيعيشونه!

من هذه اللحظة، تُفتح بوابات ممالكنا، تنطلق جيوشنا، يُمحي الحاجز بين عالمنا وعالمهم. لا انتظار بعد اليوم لا تستتروا خلف الظلال، فالظلام ذاته سيصير قانونهم الجديد.

أيها القادة، أطفئوا شمسهم، اجعلوا أنهارهم دماً، خذوا أرواحهم وقوداً لعرشنا! سيصرخون، سيتوسلون، سيلجؤون لملوكهم، لكن لا ملوك بعد اليوم، لا نور بعد اليوم، لا خلاص!

كانت كلماته الأخيرة موجهة إليّ. شعرت بدوار وغثيان فيما ارتفعت الهتافات أكثر، وكأنها إعلان رسمي للحرب على البشر. مَنْ يظن نفسه؟ أهذا كان طموحه منذ البداية؟ تدمير عوالم البشر؟

نظرت حولي، فرأيت في بعض الوجوه ملامح توتر ودهشة ورفض صامت. لم يكن الجميع راضياً، لكن لم يكن أحد يملك خياراً آخر غير الانصياع، وإلا كان الموت مصيرهم.

ثم ارتفع صوته من جديد، يختم خطبته بنبرة كاسرة:

«أنا ديموس، سيّد هذا العصر الجديد، عصر العدم والقوة، والعالم لن يعرف إلا اسماً واحداً..

اسم الملك الذي جلب النهاية!»



الفصل الثالث والثلاثون طغوس الدم

ما إن انتهت مراسم التتويج حتى بدأ ما يُسمّى «الوليمة المقدسة». قالت سمارة إنه الطقس المقدس الذي يُقام لكلّ ملك جديد، لم أكن أعلم ما هو تحديداً، غير أنّي كنت متأكدة أنّ رعباً سأشهده في حياتي.

وما إن فُتحت البوابة حتى أُدخلت مجموعة من الأسرى البشر، مقيدين بالسلاسل الشائكة، وقد غُطيت وجوههم بأقمشة خشنة. كانوا يجهلون المصير الذي ينتظرهم. خفق قلبي بعنف وارتعشت أطرافي، وشعرت بدمائي تتجمد في عروقي. أردت التحرك، أن أفعل شيئاً، لكن سمارة كانت تُمسك بيدي وتحاول منعي. رفع الملك ويليام يده ثم خفضها بحدة.

وعند إشارته أُطلق سراح الأسرى داخل الساحة كالفئران بين الوحوش، فيما كان الحراس يحيطون بمشهدهم يأسين يبحثون عن مخرج لا وجود له.

وهنا بدأ الصيد.

لكن قبل ذلك رفع ويليام يده مشيراً إلى مكان انطلاق موسيقى قائلاً وهو ينظر إليّ بينما أنفاسي كانت معدومة:

- لرحب بضيوفنا البشر، لذلك هذه الأغنية لمسح عالمهم، إنها تناسب وضعهم تماماً، سكت لثوانٍ ثم أمال رأسه نحوي أكثر:

- أهديها تكريماً لإحدى كاتباتي المبدعات التي صممت لوقت طويل.

بدأت الموسيقى والجميع يضحك، عرفتها على الفور، إنها أغنية: «- RUN Dutch Melrose DUTCH MELROSE».

Oh Father, please, please, forgive all my sins

أوه، أبي، أرجوك، أرجوك سامح كلّ ذنوبي

The water is way too deep, the deep end is where I live

المياه عميقة جداً، الأعماق هي حيث أعيش

Father, please, there's blood all over these sheets

أمي، أرجوك، يوجد دماء في كل مكان

The Devil is in the mirror, he's staring right over me

الشیطان في المرآة، هو يحدق بي مباشرة

I always thought it would be easy

كنت أظن أنه سيكون سهلاً

To get you out my mind

من إخراجك من ذهني

I think I found a new addiction

أظن أنني وجدت إدماناً جديداً

And it feels so right

ويبدو صائباً للغاية

Run, baby, run, run for your life

اركضي، حبيبتي، اركضي، اركضي من أجل حياتك

I'ma tear out your heart, it'll always be mine

سأقتلع قلبك، سيبقى ملكي دائماً

Run, baby, run, run for your life

اركضي، حبيبتي، اركضي، اركضي من أجل حياتك

Gonna tear out your heart, it'll always be mine

سوف أقتلع قلبك، سيبقى ملكي دائماً

بيديه العاريتين قبض ديموس على أحدهم، رفعه عالياً أمام الجميع، ثم غرس أنيابه في جمجمته محطماً العظم بأسنانهم وسحب دماغه من رأسه مباشرة، يلتهمه كما يلتهم الأسد فريسته! تعالت صيحات النشوة من الحضور، ورفع بعضهم فوق رؤوس القتلى، فيما غرس آخرون سكاكينهم في اللحم، فامتلات القاعة بدماء متدفقة كالبحر الأحمر.

ثم أتى دور الضيوف الغرباء، والحكام، والوزراء، جميعاً، الوليمة السوداء. فالليلة لم تكن احتفالاً فحسب، بل كانت إيذاناً عن عصر جديد، العصر الذي سيحكم فيه ديموس بقبضة من جماجم.

تلطخت القاعة بالدماء، تعالت ضحكات الوحوش، ومع صوت تكسير العظام بايقاع الطبول السوداء، وجدت نفسي وحيدة رغم ازدحام المكان، غريبة رغم حضوري، محاطة برعب لا أملك سبيلاً للهروب منه.

اتسعت عيناى ترفضان التصديق، غير أن المشهد أمامي لم يكن وهماً، لقد كنت أرى كل شيء بوضوح وحشي يفوق تحمله روحي: اللحم يتمزق بين أنيابهم، الدماء تتطاير على وجوههم، الأجساد تتلوى في لحظاتها الأخيرة قبل أن تتحول إلى طعام للملوك والوحوش.

حلقي جاف، معدتي تتقلب، وقلبي يخفق بسرعة تخنقني. لم تكن صرخة واحدة تكفي، ولم أستطع إخراج صرخة واحدة من فمي المشلول. لم يصدر عني سوى ارتعاشة في أصابعي، ونظرة زائغة أبحث بها عن شيء طبيعي، أردت أن أغمض عيني، لكن الخوف شل جفوني أردت أن أهرب، لكن قلمي لم تتحركاً. كل ما استطعت فعله هو المراقبة، مجبرة، والعيش داخل هذا الكابوس الواقعي.

وفي ذروة الجنون، التفت بصري نحو العرش نحو الملك المخيف، نحو ديموس.

رأيته جالساً هناك، هادئاً وسط الفوضى، متلذذاً بما يجري دون تردد، مغموراً في ظلال هيبتة القاتمة. لم يكن هذا مجرد تتويج، بل كان إعلاناً صريحاً عن موت الرحمة. وحين التقت عيناى أخيراً، بدا كأن نظرتة تخترقني من خلف القناع، نظرة كالسيف، كأنه يستمتع بتعذيبي بكل ما يفعله. كان يعلم أنه يغرس خناجره في نفسي ويغمري بالاختناق.

والمفاجأة، أو لعلها لم تكن مفاجأة، أن سمارا نفسها لم تتردد؛ ركضت بسرعة البرق كوحش متعطش، ومزقت العروق بين يديها، والتهمت لحمهم أمام الجميع. لم أر في حياتي ما يفضح حقيقة الوحوش مثلما رأيت تلك اللحظة. لكن الرعب الحقيقي لم يتجلّ إلا عندما انحدرت نظراتي نحو الدماء السوداء، هناك شهقت وتراجعت مذعورة حتى اصطدمت بالكراسي الفارغة؛ كراسي الضيوف الذين لم يجدوا أحداً للجلوس عليها.

على البلاط، انعكست حقيقتهم؛ بعضهم تجلى مسوخ مشوهة، وآخرون بدوا وحوشاً مرعبة، فيما ظلت هيئتهم البشرية كما هي. أدركت أن تلك هي الأصلية، وحشية مخبوءة خلف قناع بشري هش. لم أعد أحتمل تلك الليلة، ولم أعد أطيق البقاء في هذا المكان... الجميع منشغلون في الصيد، لم يلحظ أحد أنني أمسكت طرف ثوبي الثقيل، واندفعت أركض بأقصى ما أملك من قوة.

لم أعرف إلى أين، لم أفكر في وجهة، كان هدفي الوحيد أن أخرج من حفل التتويج الوحشي، من تلك الليلة الكابوسية.

حينها فقط أدركت الحقيقة المرعبة: لقد دخلت عالماً لا مكان فيه للبشر، عالماً لا يسكنه سوى الوحوش.

ركضت كالمجنونة، غير عابئة بشيء، ولا أظن أن أحداً لاحظ هروبي. حتى الحرس الذين مررت بهم تجاهلوني، يعلمون أنه لا مهرب حقيقي. ومع ذلك لم أكن أهرب بقدر ما كنت أتحرر؛ كنت فقط أبحث عن نفس هواء بعيداً عن الدماء، عن رائحة الموت، عن وحشية القتل التي غمرت القاعة.

لكن الأفكار لم تتركني، كانت تنهش رأسي ككلاب جائعة: ويليام متزوج، الأبرياء يذبحون، سمارا مثلهم، وأنا.. عالقة هنا. كنت أركض وأنا لا أعلم أين أنا، ولا إلى أين أتجه. كنت أركض فقط، يثقلني فستاني الطويل، وأتمنى لو أن معجزة تنقلني فجأة إلى بيتي.

لكن المعجزة لم تأت. وجدت نفسي في مكان غريب لا أعرف كيف وصلت إليه، ولا كيف قطعت هذه المسافة. كان قلبي يخفق بعنف حتى شعرت أنه سيخرج من صدري، عرقي يتصبب، أنفاسي متقطعة، ألهث محاولة السيطرة على نفسي توقفت أخيراً، جسدي يرتعش، عينايتي تدمعان بلا توقف. مسحت دموعي سريعاً، لكن الارتجاف لم يفارقني.

أخبرت نفسي مراراً أن دموعي تنهمر بسبب خوفي وصدمتي مما رأيته من مشاهد القتال، لا أكثر. حاولت أن أتمالك نفسي، وأنفحص المكان من حولي. بدا وكأنني في ساحة خارجية واسعة ومقفرة، تحيط بها السحب من كل جانب، كثيفة مرعبة وغامضة. ومع ذلك ذات جمال غامض. الأرض تحت قدمي بدت ملساء ولامعة، كأنها من زجاج أو جليد، لم أستطع تمييزها.

رياح باردة اخترقت جسدي حتى شعرت بها تعصف في داخلي، شعري تفرق بعشوائية، ولم أعلم إن كان ذلك بفعل الرياح أم بسبب الركض الطويل. وجهي تبلل بالعرق حتى تلاشي كل أثر لمساحيق الزينة، ولم يعد في ملامحي سوى الرعب والذهول. سألت نفسي في حيرة: أين أنا؟ كيف وصلت إلى هنا؟ الأدهى أنني لا أذكر أنني خرجت عبر باب، أو عبر ممر ما. كنت مشوشة الذهن، لكنني متأكدة أنني كنت سأشعر بذلك لو حدث.

وفجأة، اخترق أفكارني صوت غريب آت من أعالي السماء. رفعت رأسي فرأيت طائراً عجيب الشكل. يحلق بسرعة هائلة، لم يشبه أي طائر رأيته من قبل، اقترب أكثر فأكثر شاقاً طريقه بين الرياح والسحب الرمادية، حتى هبط عندي بدأ يسير نحوي بخطوات بطيئة مرعبة، وعيناها اللامعتان تحدقان بي مباشرة. اجتاحني خوف غامض، فتراجعت خطوات متعثرة. ثم انكسر الصمت فجأة لقد تحدث! نعم، لقد خرج منه صوت واضح، طبيعي، كأنه يتحدث بلسان البشر، شعرت بمعدتي تنقبض:

- «اهدئي، لا أريد أن أؤذيك».

ارتجفت، وتراجعت أكثر إلى الخلف، وصاح صوتي ليرتبك:

- كيف لك أن تتحدث؟! لا تقترب مني!

أجاب بهدوء:

- «حسناً، لن أقرب أكثر لكن يجب أن أكون سريعاً. لقد أرسلني الأمير إلياس. يقول إن كنت مستعدة للهرب والعودة إلى حياتك الطبيعية، بل وإن كنت مستعدة للانتقام من ذلك الشيطان، فأخبريه بموافقتك، وسوف ينقذك الليلة، بعد قليل، في سراديب الموتى».

شعرت بأنفاسي تتقطع. لم أستوعب ما يحدث من حولي. طائر غريب يتحدث بطلاقة تفوق لساني، ورسالة غامضة عن «الأمير إلياس». للحظة تذكرت، نعم، ذلك الشاب الذي أنقذني من قبل، والذي التقيته مرة أخرى فيما بعد، كان يتحدث دائماً بنبرة مريبة. لا أملك خياراً آخر، كان عليّ أن أثق به.

يجب أن أخرج من هذا المكان يجب أن أقتل ويليام. رغبة الانتقام تتقد في داخلي أكثر من أي وقت مضى. هل السبب أنني أدركت أنه متزوج؟ لا، لا يهمني الأمر، فقد كانت رغبتى الانتقامية مغروسة في أعماقي منذ البداية.

أجبت بصوت متوتر متردد:

- وأين تقع هذه السراديب؟ أنت تعلم جيداً أنني لا أستطيع التحرك كما أشاء. كيف أصل إليها دون أن يلاحظني أحد؟

قال الطائر بصوت هادئ رغم غرابته:

- «لا تقلقي، سأوصلك إلى هناك، لكن إن كنت موافقة فقط. لا نريد أن نجبرك على شيء، أو نخيفك، فالاختيار لك».

سألت بريية لم أستطع إخفاءها:

- وماذا لو شعر أحد باختفائي؟

أجاب بثقة مطمئنة:

- «لن يحدث ذلك الآن، فالجميع منشغولون بمراسم التنصيب والاحتفال. ثم إن لدينا عيوناً تراقب المكان، ولو لاحظ أحد غيابك فسيصلني تحذير على الفور».

تنفستُ بعمق، كان الهواء يهرب من صدري، أحاول التماسك بينما داخلي ينهار. كانت مشاعري كلها تتصارع في داخلي؛ خوف، يأس، بؤس، وحطام. غير أن شرارة الانتقام في صدري ازدادت اشتعالاً. كان عليّ أن أقرر لا سبيل آخر. وبعد لحظة من التردد نطقت بحزم لا رجعة فيه:

- حسناً.. أنا موافقة. هيا بنا.

تحرك الطائر المريب أمامي، أحياناً يحلق ببطء، وأحياناً يسير على قدميه كي لا يبتعد كثيراً عني. تبعته بخطوات متسارعة، حتى قادني عبر مداخل مجهولة وأماكن غريبة، يغمرها الصمت بعيداً عن صخب الاحتفال والمذابح التي تقام في القاعة.

دخلنا ممرات ضيقة ملتوية، جدرانها خانقة، تضيق عليّ كلما تقدمت. كان داخلي يصرخ: هل يقول هذا الطائر الغريب الحقيقة أم يجزني إلى فخ؟ لكنني تابعت السير خلفه على أي حال، لم يعد يهمني الأمر، فما عشته من رعب حتى الآن جعلني أتقبل أي سيناريو آخر، ولو كان أشد رعباً.



الفصل الرابع والثلاثون الحقيقة

وصلنا أخيراً إلى مكان لا يختلف كثيراً عن السرايب الرطبة التي عرفتها من قبل في القصر القديم، حين كنت أهرب من ويلجاه ورأيت تلك الفتاة والزنازين الغريبة. ومع ذلك، كان هذا المكان مختلفاً؛ فجدرازه ممتلئة بالفجوات السوداء، وبعض عصي نيران مغروسة في الجدران، تصدر ضوءاً خافتاً لا يكاد يبدد شيئاً من عتمة تكاد تبتلع كل شيء. كان الهواء مشبعاً برائحة غريبة خانقة، مزيج من العفن والدخان.

وفجأة انتبهت.. أين الطائر؟ يا إلهي، لقد اختفي! أدخلني إلى هنا ثم تبخر، لم أشعر حتى بلحظة غيابه. هل كان يقودني إلى فخ؟

وقبل أن أستسلم لقلقي، اخترق السكون صوت أجش مألوف:

- مرحباً مجدداً، ماريان.

ارتجف جسدي والتفتُ سريعاً، فرأيت ذلك الشخص الذي أنقذني مؤخراً.. «إلياس». كان يرتدي ثياباً سوداء تتألف من عباءة وغطاء رأس يخفي ملامحه. لكنه أزاح الغطاء عندما اقتربت، أدركت أنه متسلل خفية إلى القصر.

خرجت من صمتي بصوت متلعثم:

- أنت هنا مرة أخرى؟

ابتسم بخفة وقال:

- تبدين جميلة بهذا الفستان، لكنك حزينة جداً.

شعرت بالضيق وقطعت حديثه بحدة:

- ليس لك شأن بما أبدو، أخبرني فقط، ما الذي تريده؟

- أنت تعرفين مسبقاً ما أريده. لكن أولاً، يجب أن تأتي معي.

ازدادت نبضات قلبي عنفاً، وتراجعت خطوتين للخلف، وصوتي يرتجف بالسؤال:

- ماذا تعني؟

ردّ بهدوء:

- لا تقلقي، لن أخطفك مثل ديموس. أنا لست خاطفاً. إنها مجرد رحلة قصيرة. دقائق معدودة بالنسبة إليهم، ولن يلاحظ أحد غيابك.

- ولماذا لا تقول لي كل شيء هنا؟

همس بصوت جاد يحمل صدقاً لا يمكن تجاهله:

- الأمر صعب، إخوتي قادرون على سماعي من مسافة مئة متر، فما بالك ونحن معاً في المكان نفسه؟ لا أستطيع البقاء هنا طويلاً. أرجوك، ثقي بي. ما سأقوله مهم للغاية، ولا يتعلق فقط بالانتقام، إنه شيء آخر.

رغم الخوف الذي كان ينهشني، ورغم الارتعاش الذي يسري في أطرافي، لم يكن أمامي سوى خيارات محدودة في هذا العالم المخيف. لم أجد سبيلاً آخر غير أن أتبعه، حتى وإن كنت أجهل أين سيأخذني.

أنهى حديثه ثم مد يده نحوي، يتعمد أن يبرز شيئاً يحيط بمعصمه، سواراً معدنياً غريباً، مألوفاً بطريقة مرعبة، ما إن وقع بصري عليه حتى تجمد الزمن من حولي. شعرت وكأنني أسقط في هاوية بلا قاع، بينما الدم يتجمد في عروقي.

لقد رأيت هذا السوار من قبل، نعم! إنه السوار نفسه الذي كان يخصني أنا وأختي وشقيقي التوأم! والرابع؟! لمن كان يعود الرابع؟

اجتاحني الذكرى كطعنة مباغته: أمي - زوجة أبي كذبت حين قالت إنها من صنعته، لكن الحقيقة أن «ماما سارة» هي من نسجت هذه الأساور الأربع بيديها. كانت لنا نحن الثلاثة، فأين اختفى الرابع؟

لم يمنحني الوقت لأستوعب أكثر قبل أن أنطق بكلمة، شد إلياس يدي بقوة، وفجأة.. تحول كل شيء إلى ظلام دامس.



الفصل الخامس والثلاثون الحقيقة دائماً ما تكون مرعبة

الحقيقة دائماً مربكة وموجعة ومرعبة، ومدمرة. تأتي محملة فوق أكتافها بجبال من الثقل، والرعب. هذا ما تعلمته منذ أن وطئت قدماي هذا العالم؛ فكل يوم يكشف لي سراً جديداً أشد رعباً، وحقيقة أكثر قسوة مما سبق. لم أكن أدرك أن حياتي مثقلة بهذا الكم من الأسرار حتى جئت إلى هنا.

أشعر وكأن جبلاً يطبق على رأسي، وغثياناً يجتاح أحشائي ورائحة غريبة تتسلل إلى أنفي مع نسيمات باردة تداعب بشرتي وتعبث بخصلات شعري. أين أنا؟ أحاول فتح عيني بصعوبة، أعتدل جالسة، شيئاً فشيئاً تتضح الرؤية أمامي. الرياح تزداد قوة، قلبي يخفق بعنف يكاد يمزق صدري. حينها فقط أدركت أنني أجلس على حافة صخرية عالية، ليست جبلاً فحسب، بل قمة تخرق السحب الضبابية وتلامس السماء.

ألثفت حولي مرتبكة، وإذا بالضباب ينفرج قليلاً، يخرج منه «إلياس». يسير نحوي بخطوات هادئة، وبصوت دندن به لحن أغنية ما.. نغمة لامست شيئاً عميقاً في داخلي، كأنني سمعتها من قبل. مألوفة بطريقة موجعة، تبدو من ذاكرة بعيدة ترفض أن تمحي.

صوته يتردد مع الرياح:

- «لو كنت مكانك لهربت، لو كنت مكانك لاختفيت. لو كنت مكانك لكنت خائفاً.. خائفاً مما في الداخل!».

وبينما عيناي معلقتان به، دون أن أشعر، خرج صوتي المخنوق يغني معه، كأن الكلمات انبعثت من أعماق ذاكرتي:

- «أستطيع أن أسمع صوتك، وأشعر بمكانك. لا يهم منذ الآن، ولا تجرؤ على إغماض عينيك. إن النهاية تقترب وسأخبرهم أنك حاولت. أذرف دمعة واحدة الآن، فقد حان وقت الوداع».

اقترب وجلس إلى جوارى بهدوء، كأننا مجرد صديقين في رحلة عابرة فوق الغيوم، بينما الصمت يخيم علينا. لم أتمالك نفسي فانسابت دمعة من عيني اليمنى. وبصوت متهدج، قطعت الصمت:

- «أنا أتذكر أراها الآن، هذه الأغنية كانت...».

توقفت لحظة أبحث عن أنفاسي، ثم همست:

- «كانت أمي من تغنيها».

هتفنا، أنا وإلياس، بالجملة نفسها. التفتُ إليه وجسدي يرتجف، وجهي شاحب، وعينا غارقتان بالدموع، شعرت بقلبي يتوقف عن النبض للحظة. تمتمت بصوت مرتعش:

- «من تقصد؟ عمن تتحدث؟».

- «سارة والدتك يا ماريان، هي والدتي أيضاً».

ساد صمت، لكنه لم يكن صمتاً عادياً؛ كان صمتاً يطبق على صدري كجبل. ما قاله لم يكن صدمة فحسب، بل فاجعة، كارثة تعجز عن أن يستوعبها العقل أو يقبلها القلب أو تدركها الحواس. كل ما كشفته منذ قدومي إلى هذا العالم كان ممكناً أن يُصدّق. لكن.. هذا مستحيل!

شعرت وكأنني في دوامة كوابيس جديدة. ربما هو مجرد حلم مثل وليم، يتلاعب بي من جديد. ربما هو كابوس من وهم أو خيال أي شيء إلا أن يكون حقيقة. لماذا؟ ما الذي فعلت لأستحق أن أسحب مراراً إلى جحيمهم؟ لماذا يتحول واقعي يوماً بعد يوم إلى كابوس؟ لماذا تتحول أحلامي إلى مرار صلب؟ لماذا عليّ أن أحتمل هذا الكمّ المهول من الصدمات؟ قلبي لم يعد قادراً على المزيد. كيف يمكن لشخص غريب لا أدري حتى أهو إنسان أم لا، أن يكون أخي؟!

صرخت برعب:

- لا! لا.. هذا مستحيل!

نهضتُ من مكاني بعنف، أرفض بقوة، بينما الرياح تشتد حولي وأنفاسي تتلاحق بسرعة تكاد تخنقني. ظل إلياس صامتاً، أراد أن يمنحني وقتاً للاستيعاب، لكنني اندفعت أقول بحدة وارتعاش:

- أنت وشفيقك تتلاعبان بي! أنا متأكدة، هل تظن أنني سأصدق هذا الهراء فقط لأنك ارتديت هذه الإسورة؟ بالطبع أنت سرقته، هذا أمر سهل!

نهض هو الآخر، وقف أمامي مباشرة، ثم أمسك بذراعي وسحبني بقوة. سرنا بسرعة على حافة ذلك الجبل، والضباب الكثيف يبتلع كل شيء، فزاد خوفي حتى شعرت أن الطريق قد يبتلعنا في أي لحظة. إلى أن توقف فجأة أمام مرآة!

نعم، مرآة ضخمة قائمة على حافة الجبل بطريقة غريبة ومريبة، لكنني سرعان ما تذكرت أنني في عالم لا يخضع لقوانين المنطق. وقفت مشدوهة، بينما هو يتحدث بجدية صارمة:

- لا ألومك، ومن حقك ألا تصدقي. لكن يجب أن تعلمي أنني أقول الحقيقة، وهذه المرآة ستثبت لك ذلك.

نظرت إليها، فرأيت انعكاسي إلى جانب انعكاسه. غير أن الصورة لم تلبث أن تغيرت فجأة. سطح المرآة بدأ يتماوج كالماء، يتحرك ذهاباً وإياباً، ثم تكونت في مركزه دوامة صغيرة راحت تتسع شيئاً فشيئاً، ظهرت صورة من الماضي، صورة تلك المرأة التي لا تفارق رؤاي، صاحبة الشعر الأحمر الطويل.

هي هي نفسها! المرأة التي رأيتها جالسة على البيانو في قصر وليام وهي تغني، نفسها التي رأيتها في تلك اللوحة، تهرب من صرح بناه أمام سرها!

ظهرت في المشهد وهي تسير في ذلك العالم، لكن ملامحها لم تكن خائفة أو مرعوبة، بل كانت سعيدة، مرتاحة في موضعها الطبيعي. تابعت خطواتها حتى وصلت إلى مكان يشبه قاعة ضخمة، وهناك ظهر رجل ضخم، الملك «أريس» والد وليام، من خلفها. لم ترتجف، لم تهرب، بل بدا وكأنها تنتظر هذه اللحظة منذ زمن. ابتسم هو الآخر حين رآها، ثم تقدم إليها ورحب واحتضنها.

لكن المشهد اختفى فجأة في ضباب كثيف، ليظهر مشهد آخر مختلف تماماً، كانت سارة هذه المرة منهكة وشاحبة، يعلو ملامحها التعب والحرمان. كانت تبكي وتتوسل للملك أريس أن يمنحها طفلها الذي لا يزال في بطنها، وتطلب أن يتركها ترحل. غير أنه رفض ببرود وقسوة.

انطمس المشهد مرة أخرى وسط الضباب، وكنت عاجزة عن الكلام، عاجزة حتى عن التفكير. دموعي وحدها كانت تصرخ بالنيابة عني، بينما الصدمة التهمت لساني وروحي. شعرت بيد إلياس تمسك بكتفي وهو يهزني محاولاً أن يعيدني إلى وعيي، وصوته يعلو بإصرار:

- ماريان! لا وقت لدينا. سأرجعك الآن لكن عليك أن تعرفي الحقيقة، الحقيقة التي لم يعرفها سوى إخوتي ووالدهم، لقد أخبوها عن الجميع، لأنهم يعلمون جيداً أن ثورة الناس على الملك الأعظم أريس إذا عرفوا أنه أحب بشرية وأنجب منها طفلاً هجيناً.

كنت أتنفس بصعوبة، ألثت محاولة أن ألملم أنفاسي المجهدة. أحاول أن أرتب كلماته في عقلي لأكمل الأحجية، لكن الكلمات كانت أثقل من أن أحتملها. أردت أن أقنع نفسي بأن ما أراه مجرد كابوس. صرخت في وجهه وأنا أراجع خطوات إلى الوراء:

- أنت تكذب! كاذب! أمي متزوجة، ومستحيل أن تخونه. أنتم من جعلتموها مجنونة، أنتم من سرقتم منها حياتها وسلبتم منها كل شيء.

- لا يهمني إن خانك والدك أم لا.. لكنها ارتكبت أسوأ حظ في حياتها، حين أحبت شخصاً وحشاً مثل الملك أريس. أسأل ديموس، يا ماريان، الآن لن يستطيع نكرانه، سيخبرك عن انتقامه، لم

يختطفك بمحض الصدفة، ولا لأنك كاتبة فحسب، بل ليكمل انتقامه، انتقامه من سارة وما فعلته هو وشقيقه، لديهم انتقامهم، ونحن أيضاً لدينا انتقامنا. علينا أن نسبقهم، يا ماريان، لتنتقم لوالدتك. سنترك لك مهمة ذلك العجوز لي وعليك بديموس، أنت الوحيدة القادرة على قتله.

انتفضت داخلياً من المفاجأة، «انتقام»؟، ترددت الكلمات في رأسي بلا ترتيب، كيف يريد هذا الشخص أن أستوعب كل هذه الصدمات بسرعة هائلة؟ كيف يمكن أن أخطط معه لقتل وليام... لماذا يريد وليام الانتقام؟ لماذا يصير الموت بهذا الشكل؟ وضعت يدي على قلبي وأنا أشعر بضيق، اقترب مني إلياس وهمس في أذني:

- سيخبرك بكل الحقيقة كاملة.. بعدها يجب أن نستعد للانتقام.

أصبح كل شيء ضباب، يليه ظلام دامس.

شهقت وأنا أستيقظ، والتفت يميناً ويساراً، فوجدت نفسي نائمة في تلك السرايب المظلمة. لم يكن إلياس موجوداً. الجميع لم ينهض سريعاً، بل بقيت جالسة على الأرض. فستاني الخمري الذي أصبح هزياً ومتسخاً قليلاً من هذه النومة الطويلة والمستعمرة. بدأت مساحيق التجميل على وجهي اختلطت بالبكاء، ما زلت أجهل الحقيقة الكاملة عن سارة، اللعنة على الحقيقة، واللعنة على سارة! لماذا هي أمي؟ لماذا لم تكن زوجة أبي هي أمي؟ لماذا كل هذا الضياع؟

نهضت أخيراً ببطء وثقل، قدماي أكاد لا أشعر بهما، ولم أكن أعرف في أي اتجاه أسير، لكن قررت أن أتحرك. سرت في الاتجاه الذي أمامي بلا وعي، غير مدركة إلى أين أتجه، كل ما كنت أفكر فيه، كل ما يتردد في ذهني، هو ما قاله إلياس.. إلياس هو شقيق وليام من والده وهو شقيقي من والدتي! فوضى عارمة تعصف بحياتي، وسيناريو لم أتخيله ولو بنسبة واحد بالمئة، لم تكن سارة مجرد كاتبة مخطوفة فحسب، بل أكثر من ذلك:

- «لم تكن مخطوفة أصلاً!».

انتفض جسدي وفز قلبي حين سمعت صوت وليام. التفت في الظلام، لكن لم أر أحداً، نادى بصوت غير مرئي:

- إذا خرجت عن أوامري وقابلت ذلك «اللقيط» سترين ما لا تعرفينه؟».

ظلمت ألتفت يميناً ويساراً بلا جدوى. صرخت بكل قوتي:

- أين أنت؟ وليام! اخرج الآن وأرني الحقيقة المرة! لماذا تكذب في كل مرة؟ لماذا تختبئ تحت جبة؟ لقد سئمت منك ومن عائلتك، ومن عمك، ومن غيابك أيضاً! دعوني وشأني فقط، أرجوكم!

أجاب بصوته دون أن يظهر:

- «أنت مثلها.. لا تتوقفين عن ادعاء المظلومية».

واصلت السير بلا وعي، حتى وصلت إلى مكان تحت الأرض، وما إن خطوت خطواتي الأولى عمياء، حتى دهست شيئاً، وصدر منه صوت صفير. ارتجفت كل أوصال جسدي بعد الخطوة التالية دهست على الشيء نفسه مرة أخرى.

اشتعلت عصا النار في الحائط، كاشفة ما كنت أقف عليه، فأيقنت أنني أسير وسط جحر ضخمة للجردان، كانت ألوانها رمادية وسوداء، وجلودها منكمشة ومقززة، وأنيابها بارزة للخارج، وأعدادها تجاوزت الألف، بعضها تلتهم جثثاً متعفنة.

انقبضت روحي، وامتنعت الصرخة عن الخروج، ووقفت في صدمة لم أشهد مثلها من قبل، ألهمت وسط أكوام الجردان. حتى مزق أحدهم فستاني، فصرخت صرخة مدوية، تراجعت للخلف، حيث نفش الفستان الضخم، لكنهم منعوني من التحرك. دست عليهم بينما أحاول الركض، حتى تعثرت وسقطت أرضاً، ارتطمت برأسي، شعرت بألم حاد، والرؤية بدأت تتلاشى.

شعرت بجرذ يسير فوقي.. هل سيلتهموني وأنا حية؟ لا يمكنني الموت وسط هؤلاء الجردان، أو ربما الأفضل أنهم يخلصونني من حياتي البائسة.



الفصل السادس والثلاثون أدريانا

كانت الملكة أدريانا أجمل نساء هذا العالم، لكنها في الوقت نفسه كانت الأضعف فيه. فقد جمعت في شخصيتها كل معاني الطيبة والرحمة، حتى بدت الوحيدة في هذه الأرض التي ما زالت تحتفظ بملامح الخير. ففي عالم يسوده الرعب والخوف لا مكان للنقاء، غير أن الملكة أدريانا كانت مختلفة تمامًا؛ مختلفة عن عائلتها، عن شعبها، عن زوجها، وحتى عن أولادها. ولعل الأمير فوبوس وحده كان يشبهها قليلاً.

لقد اعتبرها الجميع ملعونة فقط لأنها طيبة، مع أنها تنتمي إلى أقوى العائلات نفوذاً وسلطة في هذا العالم. ومن أجل توطيد حكم، رُوِّجت بالملك آريس. أنجبت منه ثلاثة أبناء، اجتمعت فيهم القسوة والشر والخبث، حتى فاقوا والدهم في قوة وشراسة، فكان فوبوس أشدهم قوة وشرًا، ولكنه كان يمتلك ملامح وخبثًا، أما ديموس فكان الأشد رغبة وسيطرة. ومع ذلك كانت أدريانا تراهم بعيني أم لا ترى في أبنائها إلا ملائكة.

لم تكن الملكة تؤمن بنظام الفوضى والقتل، لكنها علمت أن هذا العالم لا يعرف غير ذلك. لم تعش إلى جانب الملك آريس أياماً سعيدة، فهو لم يحبها يوماً، وكانت بينهما مجرد علاقة سياسية تحفظ مصالح المملكة. ومع ذلك أحبته الملكة بكل قلبها، وبذلت في سبيله أشياء كثيرة، حتى ظلت حياتهما تسير في مسار طبيعي إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم.

في تلك الفترة كنت أعلم على اختطاف المؤلفين من تحت عيني آريس، لكنني ارتكبت خطأ - ليس مهماً ذكره الآن - فقرر أبي منعي من هذه المهمة مدة من الزمن، وحبست في زنزانة داخل غرفتي حتى تنتهي محكوميتي. وكانت المملكة في أمس الحاجة إلى المؤلفين وصانعي العوالم والأراضي، إذ لم يكن سواي قادراً على عبور البوابات والعودة بالمؤلفين. لكن أبي أعلن أنه سيتولى المهمة عني حتى تنتهي عقوبتي، واقتصررت مهمتي على فتح البوابة له.

كنت أشعر في أعماقي أنه سيفشل، وليته حين ذهب لم يذهب ومات، قبل أن يرتكب الفعل الأسود الذي دمّر حياتنا جميعاً. خرج أبي إلى تلك المهمة، وما إن خطت قدماه في عالم البشر رأى

شيئاً لم يألّفه من قبل، رغم أنها كانت الزيارة الثانية له في حياته، فكل ما يعرفه كان عالمهم، وأشكالهم، وصفاتهم، وحياتهم بعيدة عن كل ما عرفه في حياته. وعندما هم ببدء مهمته، التقى صدفة بتلك المرأة التي جعلته يشعر بما لم يختبره قط، فنحن لا نعرف المشاعر، غير أن الملك أريس - ولأول مرة في حياته - أحس بشيء جديد، أحس بالحب.

كان اللقاء الأول في حفل توقيع روايتها الجديدة. ظهرت بملامح حزينة، أو هكذا أقنع نفسه، وربما هكذا أقنعت هي أيضاً. نسي أبي مهمته الحقيقية، ونسي من يكون، إذ أوقعه عالم البشر في دوامة أفقدته صوابه، لم يحتمل جمال حياتهم ولا صفاء عيشتهم ولا إشراق شمسهم التي لم يعرف مثلها قط. ولهذا كنت أنا وحدي المؤهل أصلاً للقيام بتلك المهمة.

اقترب أبي من تلك المرأة شيئاً فشيئاً، دخل حياتها في صورة الفارس الغامض الوسيم المريب، يراقبها يوماً بعد يوم وقد امتلأ قلبه شغفاً بها. والعجيب أن تلك المرأة لم تُبدِ خوفاً ولا ارتباكاً مما زاد من تعلقه بها. لم تكن كمبقية البشر؛ تبادلت معه الرسائل وحدثته عن كتاباتها وعوالمها المظلمة التي تستوحىها في رواياتها، فأخبرها هو بأنه معجب بعالمها، وأنه سيلاحقها إلى الأبد. وقد رحبت به بحماسة شديدة، حتى التقيا وجهاً لوجه، دون أن تدرك أنها أمام كائن لا ينتمي إلى عالمها.

تكررت لقاءاتهما كثيراً، أخبرته بأنها متزوجة، وأن لديها صبيّاً في الرابعة من عمره، وأنها رزقت قبل أشهر بتوأم من البنات، لكنها شكت من إهمال زوجها الذي كثيراً ما يسافر بسبب عمله، ولم تشعر يوماً بالحب معه. ادعى أبي أنه يعشقها لمحبهته، لكنه كان كاذباً؛ فجميعهم يختلقون الأعذار ليبرروا أخطاءهم. ومع ذلك، استطاع أبي أن ينتشلها من دوامة الحزن والوحدة بمهارة، وصارت لقاءاتهما تدور حول الكتب والكتابة والقصص الغريبة وكل ما يثير مخيلتها.

وفي النهاية حسم أبي أمره، وقال إنه إن لم تقبله كحبيب، مجرد وحش، فإنه سيختطفها. لكن المفاجأة لم تكن في رفضها، بل في ردها؛ إذ لم ترفضه، ولم تهرب، بل ازداد هيامها، وأبدت رغبتها في رؤية تلك العوالم التي حدثتها عنها؛ فهي كاتبة روايات رعب، كانت تحلم أن ترى شخصياتها التي تصنعها أقلامها تتحول إلى حقيقة أمام عينيها.

شعرت تلك المرأة بأنها مميزة، إذ أحبها رجل قادم من عالم يتكون من الروايات والكتب. أدخلها أبي إلى عالماً، فأصبحت تكتب له بإرادتها الحرة، دون اختطاف أو عذاب، بل في حب وحكايات غريبة، وأسهمت في صناعة العديد من العوالم من أوجاعه. عاش أبي معها أسعد أيام حياته، متناسياً من يكون وما يترتب عليه من مسؤوليات. لقد كانت الوحيدة التي سُمح لها بالدخول والخروج كما تشاء، حتى إنه أخبرها أنه مستعد لأن يبقيا بجانبه إلى الأبد.

غير أن غيابها المتكرر عن زوجها وأطفالها أثار شكوكه. وأدرك في أعماقه أنها تخونه، وإن لم يعرف مع من؟ قرر حينئذ أن يطلقها ويأخذ أطفاله الثلاثة، عندئذ فقط أدركت المرأة أنها لا تستطيع أن تفرط في أطفالها، وأن هناك من يحتاج إليها وهي

منغمسة في حب رجل غريب، تذكرت فجأة أنها أم، وأن أطفالها في حاجة إليها. لكن الأوان كان قد فات، فقد انهار كل شيء فجأة.

كانت تلك المرأة قد حملت بطفل من أبي، وحين أرادت الانسحاب من هذه العلاقة، رفض آريس أن يسمح لها بذلك، وأجبرها على أن تخبر زوجها بأنها ذاهبة في رحلة كتابية تمتد لأشهر كما اعتادت، غير أن الزوج لم يعد يبالي، وأخبرها أنها حين تعود ستجد أوراق الطلاق بانتظارها، ولن تجد أبناءها الثلاثة. تجاهلت تهديده، فقد كان همها الأول أن أطفالها في مأمن، لكنها أدركت أن طفلها الرابع، الذي تحمله في أحشائها، لن يكون آمناً في هذا العالم المظلم، وأن عليها أن تجد وسيلة للهروب به بعيداً عن هذه المملكة المرعبة.

وإزداد الوضع سوءاً حين تخلى عنها آريس بدوره، وأخبرها صراحة أنه لن يترك عالمه ومملكته وأبنائه وشعبه ليعيش معها في عالم البشر حياة يراها سخيفة. وفي تلك الأثناء بدأت الشكوك تحوم حوله، وبلغ الأمر مسامع العائلة، فعلم الجميع بما فعله الملك آريس، الملك العظيم الذي سطر التاريخ اسمه في سجل مملكة الرعب والخوف. كيف له أن يقع في مثل هذا الخطأ المحرّم؟ وكيف له أن يخون الملكة أدريانا.. مع بشرية؟

ومع كل ذلك، كانت أمي هادئة للغاية، لم تغضب من أبي ولم تُر عليه، وخلال الأشهر التي قضتها تلك المرأة البشرية حاملاً في عالمنا، عاشت في خوف وعذاب، وكأنها تنال عقاباً على فعلتها، إذ كان والدي ينتظر أن تضع طفلها ليقوم بالفتك بها. غير أن أمي، الملكة أدريانا، لم تراها كذلك، رأت فيها امرأة مثلها تستحق العطف والرحمة، اعتنت بها طوال حملها، وأشفقت عليها، رغم أنها لم تكن سوى عشيقة والدي، وتحمل في أحشائها طفله.

صارت الملكة أدريانا مسؤولة عنها، وسهرت على علاجها والدواء وتلازمها. ومع مرور الأيام، نشأت بينهما صداقة، فكانتا تغنيان معاً وتعزفان معاً، وتتبادلان الأسرار، وتتحدثان في حب رجل واحد اسمه آريس، تتحدثان عن ثباته، بل تذبذب قدرته على التخلي عن أي امرأة بسهولة مروعة.

وجاء اليوم الموعود، فولدت المرأة البشرية في بيئة مظلمة طفلاً هجيناً، يحمل دماء مختلطة بين عالمنا وعالمكم، فعم الغضب المملكة بأسرها؛ إذ رأى الجميع أن دمائنا قد تلوّثت بدم تافه. انقسم المجلس قسمين: فريق يطالب بقتل الطفل وأمه، وفريق آخر يريد نفي الطفل وقتل الأم وحدها، غير أن الملكة أدريانا أصدرت حكمها بأن يبقى الطفل حياً.

تآمرت أدريانا مع المرأة على تهريبها، لكن الأخيرة أصرت على أن تأخذ طفلها معها، أوضحت لها الملكة أن هذا خارج عن إرادتها، ووعدتها بأنها ستعيد طفلها إليها يوماً ما، أما الآن فعليها أن تهرب وحدها. وبالفعل، قبل ليلة تنفيذ حكم الإعدام، ساعدت الملكة أدريانا صديقتها - وعشيقة زوجها في الوقت نفسه - على الهروب.

لكن أدريانا كانت مخطئة في تقديرها. لقد ظنت أنها تتعامل مع امرأة مسكينة، بينما كانت تلك المرأة تخفي قلباً مظلماً مفعماً بالكراهية. في تلك الليلة الحالكة السواد، قررت أن تنتقم من الملك

الذي خذلها ولم يلتفت إليها، ذلك الذي حكم عليها بالموت بعد أن منحته كل شيء؛ حياتها وجسدها وروحها وكيانها. فقدت زوجها وأبناءها الثلاثة، ثم حملت بطفل جديد سيُنتزع منها كذلك. لم يعد هناك ما تخسره، فأرادت أن تفعل ما يهز عرش آريس ويزلزل عرش المملكة.

وأثناء مرورها بالبوابة سراً برفقة الملكة أدريانا، عرفت أن حراستنا تضعف وتتركنا بلا قوة. فاغتنمت الفرصة، وقبل أن تستوعب أي ما يحدث، غرست المرأة خنجرها في قلبها، بلا تردد ولا ذرة شفقة.

وهكذا قتلت عشيقة أبي أمي، المرأة الوحيدة التي وقفت في وجه الجميع لأجلها، والتي أنقذتها من حكم الإعدام، والتي رغم خيانتها مع زوجها، مدت إليها يد الصداقة والثقة.

وإنني دائماً أتساءل: هل كانت أمي حمقاء إلى تلك الدرجة، أم أن التضحية والخير يجعلان المرء أحمق وضعيفاً بطبيعته؟ لهذا السبب نحن هنا نحترم الخير، ولا نعترف إلا بالشر.

تلك المرأة الشيطانة اقتحمت حياتنا، وانتزعت من أمي كل ما تملك، ثم قتلتها. بعد تلك الحادثة عادت إلى حياتها الطبيعية وكأن شيئاً لم يكن، وواصلت العيش بين البشر بثقة، لكنها لم تكف عن البحث عن البوابات، راغبة في العودة إلى عالمنا شحاذة جائعة لتسمعها، لعلمها، غير أنها لم تنجح في الأمر ثلاث سنوات كاملة حتى انتهت مهمتها، وعادت إلى عالم البشر.

كنت أحمل في داخلي جبلاً من الكراهية والبحث، وكأنهم جميعاً شاركوا في جريمة قتل والدي، خاصة الإشاعات التي انتشرت عن موت تلك المرأة، أو أنها لا تزال حية. بحثت عنها طويلاً حتى وجدتتها، وقد كبرت، وأصبحوا في عمر أكبر. رأيت في ذلك ظلماً صارخاً؛ أن تعيش حياتها كأم بينما أنا فقدت أمي؟ لم أحتمل التفكير، فقررت أن أدمرها وأدمر حياتها بأكملها.

وبالفعل، اختطفتها هذه المرة في سرية تامة، دون أن يشعر أحد، وحين وقفت أمامي، عرفت على الفور من أكون، فارتجفت بالرعب. وكان أول ما نطقت به سؤالاً مرتجفاً: «كيف...؟» عندها أخبرتها أن اسمه «إلياس»، وأن أمي، التي قتلتها، هي من منحته هذا الاسم حتى لا يبقى مجهولاً بلا هوية.

كنت أتنقل بين تعذيبها وإجبارها على الكتابة. جعلتها في دهاليز الجنون، ووعدتها بأنني سأقتل أولادها الثلاثة وزوجها، وأمحو سلالتها من الوجود. أشهر طويلاً غرقت في العذاب، ولم تكن نيّتي أن أقتلها، بل أن أجعلها تتذوق كل أشكال الألم. أردت أن ينفطر عقلها وتتحطم روحها كما تحطمت حياتي.

لكنها، مرة أخرى، تمكنت من الهرب. كانت ذكية وخيرة ولعلها المرأة الوحيدة التي استطاعت أبي، الملك آريس، تصويره بصورة مشابهة لعقليته المليئة بالمكر والدهاء. ورغم ذلك لم تكن هي النهاية، لأنني كنت أعلم أنني حققت هدفي؛ فلقد أصبحت مجنونة.

في الحقيقة، كانت مجنونة منذ البداية:

مجنونة حين وقعت في حب أبي.

مجنونة حين هامت بعالمنا المسكون بالرعب.

مجنونة حين سرقت كتبنا وعلومنا لتُغرق نفسها في أشياء لا تخصها.

مجنونة حين خانت زوجها وتخلت عنه.

مجنونة حين عبرت إلى عالمنا وحياتنا.

مجنونة حين قضت سنوات تكتب عنا بينما لم يصدقها أحد.

مجنونة حين تجرأت وقتلت الملكة أدريانا.

مجنونة حين حملت بطفل من شخص مثل الملك آريس.

ومجنونة أخيراً، لأنها قررت أن تكون كاتبة لروايات الرعب. كل تلك الأخطاء، وكل تلك الخطايا التي ارتكبتها في حق عائلتنا، وفي حق عائلتها أيضاً، كانت من صنع يدها. لم يجبرها أحد على شيء، ولم يوجهها أحد لهذا الطريق، بل هي من اختارت خياراتها، وهي وحدها من تتحمل عواقبها، لذلك لم تكن لي يد في جنونها؛ لقد كانت مجنونة منذ البداية، ولم يكن الجنون إلا جوهرها الحقيقي.

وحين شعرت بالنهاية تقترب من أبنائها، لم تجد سبيلاً غير جنونها حتى اتخذت قراراً مرعباً؛ فضلت أن تميتهم على أن يصل إليهم أحد. وهكذا، دفنت ابنتها «ماريان» حية تحت التراب، فقط خوفاً من أن ألتهمها أنا، ولولا أن نجحت في العثور عليها، لكانت «ماريان» الأخرى قد لقيت المصير ذاته، لكن النهاية سبقتها، إذ غلبها جنونها وانتحرت داخل غرفتها في المصحة النفسية، بعد أن غرقت في هذيانها عن الشياطين، وعن الملك آريس، وعن عوالمه المظلمة، وعن زوجة الملك، وعن ابنها المختطف «إلياس».

قال الناس إن كل ما كانت تردده لم يكن إلا عوالم سحر بها عقلها المريض. وماتت مجنونة بعد أن قتلت ابنتها، وماتت بعد أن زرعت الفوضى في حياتنا وحياتها وحيات أطفالها. لقد تركت نهايتها قدراً يشبهها، فوضوياً وممتلئاً بالدمار.

ومع ذلك، أنجزت لها أمنية واحدة قبل موتها؛ حين اختنقت وطلبت مني أن أمنح ابنها «إلياس» شيئاً يتذكرها به، فأعطيته سواراً كانت قد صنعته، لكنه لم يكن ذكرى رحيمة، بل لعنة أخيرة.

قتلت نفسها بيدها لأنها لم تكن سوى امرأة مجنونة.

لم تكن تلك المرأة البشرية عادية أبداً. كثيرون يحتقرون البشر، لأنهم لم يختلطوا بهم كما فعلت أنا، كنت أعي دائماً أن البشر مخلوقات خبيثة، مخيفة أكثر منا، يعشقون تعريضنا للدمار. وكانت تلك المرأة تجسيدا صادقا لذلك؛ لم تكن مسكينة تعرضت للاختطاف كما قد يظن البعض، بل كانت صورة أخرى للبشر، وجهها يشبهك كثيراً، إذ تذكرني بغضها الجامح، وهوسها الطاغي، وأنانيتها العمياء. لم تكن مجرد امرأة عبرت حياتنا ثم رحلت، بل كانت بصمة محفورة في تاريخنا، بعد أن نزعنا منا حياة أمي بكل بساطة. تلك المرأة، التي كان اسمها «سارة»، لم تكن إلا أكثر سواداً للبشر. كانت الوجه المرعب لمؤلفي رعب أنفسهم.

الأنهار القرمزية

على تخوم أرض الأنهار القرمزية، حيث تجري أنهار من الدم القاني وتعكس ضوء القمر مثل مرآة شيطانية، تنسد السماء بغيوم سوداء مثقلة بالمطر، إلا أنها لا تنزل غيثها بعد، فالأجواء الداكنة تحيط بالمكان إحاطة السوار بالمعصم، ويهب ريح مشبع برائحة السحر والموت.

في قلب منتصف الليل، في الساعة التي تبلغ فيها قوى الشر ذروتها، يشتعل حقد مصاصي الدماء والسحرة بلا هوادة. لا سبب لذلك سوى كراهية أزلية متجذرة في العصور الغابرة قديمة لم تجف، ولعنات لم تُمح من الأجساد.

حين اندلع القتال، ساد صمت مميت لم يقطعه إلا صوت الريح قبل أن تمزق السماء صرخة سحرية خارقة. أطلق السحرة تعاويذهم أولاً؛ كرات من اللهب الأسود تتطاير، وصواعق تنفجر من تحت الغيوم، ودوامات من الظلال تشق الأرض.

أما مصاصو الدماء، فلم يترجعوا خطوة، بل اندفعوا يتحدون الموت؛ عيدونهم الحمراء تتقد جحيماً، مخالِبهم الحادة تمزق الهواء، وأنيابهم المتعطشة تبحث عن أعناق السحرة. اشتعلت المعركة..

أحد مصاصي الدماء قفز بسرعة خاطفة، فاخترق صدر ساحر همست بكلمات محرمة، فتحول جسدها إلى مزيج من الظلال والدخان، تتفادى هجمات خصمها. ثم وضعت يدها على رأسه، وامتنعت روحه حتى تهاوى جسده متحولاً إلى غبار.

قائد مصاصي الدماء، بعينه السوداوين العميقتين، رفع يده وأطلق صرخة آمرة، فانتفضت الأنهار القرمزية، وارتفعت مياهها كأنها سكاكين من الدم تقطع أجساد السحرة. لكن زعيمة السحرة لم تأبه بالقسوة، رفعت عصاها وأطلقت لعنة جعلت الأرض تتمرد، فانشقت الصخور وابتلعت عشرات من مصاصي الدماء في هاوية بلا قرار.

امتلاً المكان بالدماء، واختلطت صيحات الألم بضحكات الجنون. فكلا الطرفين قد فقد العقل. لم يكن هناك نصر أو هزيمة، فهذه الحرب أبدية، تتكرر كما تتكرر الفصول.

ومع اقتراب الفجر، انسحب الفريقان، لا رهبة ولا ضعفاً، بل انتظاراً للجولة القادمة. فلقد كانوا، وما زالوا، أعداء لا يكون ولا يملون.

«مصاصو الدماء والسحرة.. قوتان لا يمكن أن تتصالحا، إذ لا حياة لأحدهما إلا بموت الآخر.»

وفي اللحظة ذاتها التي كانت فيها ساحة الأنهار القرمزية تشتعل بالدماء والحديد، بعيداً قليلاً عن مركز المعركة، في قلب غابة الأشجار السوداء المتفحمة، وقف طيفان من الماضي وجهاً لوجه. لم تكن تلك مواجهة عابرة، بل صداماً بين قلبين يملأهما جراح لا تشفى وكراهية عمرها قرون.

الأولى: ●●إيلارا●● - ساحرة الظلال، ذات الشعر الذي يتطاير في هواء الليل كموج باهت لونه أرجواني، وعينين عميقتين كأبار السواد. كانت في زمن مضى فتاة هادئة، أما الآن فهي همس الرياح الباردة التي تجلب الموت والدمار.

الثانية: ●●الأميرة سيلفيا●● - مصاصة الدماء، السيف المسلول وبشرتها الشاحبة كضوء القمر، وشعرها الأحمر كالجمر، وعينين زرقاوين كحجر كريم متوهج في عتمة الليل. بشرية يسري النقاء في عروقها، لكنها تحولت إلى وحش لا يرى سوى شرب الحياة من الشرايين، وإشعال الرعب في القلوب. حينها حتى صار يُقال إن سيلفيا تولد من جديد في كل مينة فيها، وأنها الوحيدة التي قتلت كاتبها وصانعها حتى لا يخلق شخص ينافسها. وتناقلت الأساطير أنها أقدم من المسالك التي شقت وأنها أحببت كاتبها يوماً ثم قتلته لأنه منحها حياة بائسة.

وقفتا وجهاً لوجه، لا يفصل بين جسديهما سوى خطوات معدودة، لكن بين روحيهما كان وادٍ سحيق من الخيانات والجروح القديمة.

قالت إيلارا بصوت هادئ هدوء ما قبل العاصفة، يقطر غضباً مكبوتاً: - لم أتخيل أن يجمعنا اللقاء هكذا، أيتها الأميرة سيلفيا ونحن نتأهب لقتل بعضنا.

ابتسمت سيلفيا ابتسامة باردة تنضح بالسخرية، ورفعت يدها التي ما زالت تقطر دمماً طازجاً:

- ولم أتخيل أن أراك ألعوبة بيد السحرة، يا حمقاء. كنت أقوى من ذلك.. ولا داعي للألقاب، ناديني باسمي فحسب.

ثم بدأ القتال..

رفعت إيلارا يديها، فاهتزت الأرض تحت أقدامهما، وتمددت جذور الأشجار كأفراع سوداء تحاول تطويق سيلفيا. لكن مصاصة الدماء، التي اشتهرت بأنها الأقوى بين أبناء جنسها والأقدم في سجل الخلود، تحركت بسرعة ظل يخترق الفراغ، وكأن الليل نفسه قد منحها جناحين.

في ومضة خاطفة، كانت سيلفيا خلف إيلارا، ابتسامة جانبية ترتسم على شفيتها، ومخالبيها تمتد نحو عنقها. غرست أنيابها بوحشية في رقبة الساحرة، لكن إيلارا أفلتت نفسها بسرعة؛ لتنفجر حول سيلفيا نائرة من اللهب الأسود، تدفعها إلى الوراء وهي تصرخ من الألم، فيما الهواء يزداد ثقلاً كأن السماء انحنت فوقهما.

لم تعد المعركة صراعاً بين السحرة ومصاصي الدماء، بل مواجهة شخصية بين قلبين مثقلين بالخيانة.

حدقت إيلارا في عيني صديقتها القديمة، تبحث عبثاً عن الإنسانية التي عرفتها يوماً، فلم تجد إلا وحشاً يتغذى على الحقد والدماء.

ابتسمت سيلفيا ببطء، ولعقت الدم عن شفيتها قبل أن تقول:

- أندرين ما المثير للسخرية؟.

قالت إيلارا ببرود:

- «ماذا؟».

اقتربت سيلفيا حتى صار صوتها همساً حاداً يخترق الروح:

- «أنتِ من صنعتني.. أنتِ من تركتني للموت».

ثم اندفعت بسرعة الضوء، تمزق جسد إيلارا بمخالبها. لم يتبق شيء حتى دوى في الأفق صوت بوق رنان، كأنه إشعار بنهاية الحرب. توقفت سيلفيا فجأة؛ تراجعت خطوة للوراء، تاركة جسد إيلارا ممدداً على الأرض، غارقاً في ندمه وجروحه.

نهضت الساحرة بصعوبة، تتنفس بجهد وهي تمسح ما تبقى من الدم، ثم قالت بصوت متألم، ولكنه ثابت:

- «لماذا لم تقتليني؟ كنتِ قادرة على ذلك».

ضحكت سيلفيا بسخرية وهي تلحق أصابعها المملخة بالدم:

- «لطالما كان طعم الساحرات مميزاً.. لكن قتلك سيجعل حياتي فارغة ومملة. أريدك حية.. لأجل معركة أخرى ضد تلك العجوز أن تدربك أكثر، فأنا لا أحب قتال الضعفاء».

قفزت سيلفيا بخفة إلى قمة التل، ولوحت بيدها لجندها، اختفت في الأفق مع قومها المجانين.

أما إيلارا، فجلست على ركبتها، تمسك جسدها الممزق بالألم. كانت قادرة على شفاء نفسها في لحظة، لكنها آثرت ترك العذاب هذه المرة، عقاباً لنفسها على ضعفها.. وحتى



الفصل السابع والثلاثون الجنون

كان أبي محقاً حين قال إنني سأصبح مجنونة، وأظن أنني الآن أدرك السبب. لقد فهمت لماذا محاً أبي وجود سارة من حياته، ولماذا يفضل مواجهة الموت على أن يراها. أدركت الآن سبب كرهه لكوني كاتبة، وفهمت لماذا محاًها من ذاكرتنا وغير أسماءنا، مسجلاً إيانا تحت اسم زوجته الأخرى كأم لنا.

لقد أحدثت سارة الفوضى في حياته؛ خانت، قتلت ابناً وتخلت عنه وعنا. عاش أبي أسوأ أيامه معها، غارقاً في كابوس لا ينتهي. لذلك كره الكتابة والكتب وكل ما له صلة بالورق. أخبرني ويليام بالحقيقة كاملة، والتي بدت كالكابوس لعقل ظننت أنني سأفقد صوابي، أنني سأبكي وأصرخ، لكن شيئاً

ذلك لم يحدث. بقيت هادئة ومستسلمة إلى الألم.. كيف نتحمل كل هذا الخراب؟ والآن نحن أيضاً من نحمل أخطائها وندفع ثمنها.

ويليام يريد الانتقام من سارة عبر تدميرنا جميعاً، ولكن ما ذنبنا نحن؟ لقد ماتت سارة، ولن ترى عذابنا، ولن تشعر به. كيف يمكنني أن أقنعه بهذا؟ أدركت حينها سبب نظرات الملك أريس إلي في حفل التتويج؛ ربما ذكرته بجرح قديم وبحدث قد دمر كل شيء. لكن لماذا يقع اللوم دائماً على النساء؟ وماذا عن الرجال؟ من يحاسبهم على أخطائهم؟ إذا كانت سارة قد أحدثت الفوضى، فهو شريك أساسي فيها. لكنه رجل، والرجال دائماً تغفل خطاياهم. ها هو الآن متزوج من فتاة صغيرة جميلة، يعيش حياته في سعادة، وكأن شيئاً لم يكن. بينما سارة وأنا وأخي نحمل عقوبات أفعاله السوداء، ندفع ثمن أخطاء لم نرتكبها.

مضت الأيام الماضية بطيئة هادئة. كنت أستلقي على سريري غارقة في صمتي بعد تلك الليلة المشؤومة: كابوس تتويج ويليام وجنونه، طقوس الدم، لقائي بالياس الذي اكتشفت أن معرفتي بالحقيقة كاملة منه. كان يخبرني بهدوء بارد، لا بصرخة كما فعل أول مرة. الآن فهمت لماذا يكرهني فوبوس شقيقه، إذا يبدو الجميع متفقين على تعذيبي انتقاماً من سارة. لم يعد ذلك مهماً،

لقد اعتدت على ذلك. لكن خوفي الآن أن يصل إلى أبي وأخي. لا أريد لهما أن يسقطا في دهاليز عتمة.

لم أر ويليام طوال الأيام الثلاثة الماضية؛ ربما لانشغاله بمنصبه ملكاً، أو لأنه أراد أن يمنحني وقتاً لأستوعب الكارثة التي نحتتها سارة، أو لعله مشغول مع زوجته الجديدة. لا يعنيني الأمر. أتمنى فقط أن يختفي من حياتي. لكنني أدركت ما قصده إلياس حين قال إن لويليام ثأراً معنا. لم يخطفني صدفة، ولم يفعل الأمر لأنني كاتبة وحسب؛ لقد كان يراقبني منذ طفولتي، يتبعني كالظل، ينتظر اللحظة المناسبة لينتقم من العائلة.

حسناً، إذا كان ويليام يرى سارة شريرة ويصرُّ على الانتقام منها حتى بعد موتها، فأنا أيضاً أراهم أشراراً، ويجب أن أرد. لقد عزمت أمري، وسأقف إلى جانب إلياس، وسأقتل ويليام لأنهي هذه الفوضى. سأقتله قبل أن يفكر في إيذاء أبي وأخي. إذا كان هو يحمل راية الانتقام، فأنا أيضاً أحملها. لنرى من سيبلغ ثأره أولاً.

«الملكة ليلث»

الملكة ليلث عُرفت بأسماء شتى؛ نادواها «الملكة الملعونة»، ولقّبوها بـ «سيدة الهلاوس»، وأطلقوا عليها «الهاربة القاتلة»، غير أن اسمها الحقيقي ظل يهمس به في زوايا العالم، أنه لعنة مخبوءة خلف ابتسامة شفيتها التي لم تعرف يوماً طعم عزاء.

كانت فاتنة، لكنّ فتنتها لم تكن بشرية؛ بل تشبه جمالاً تجمد بـ الكمال ويثير الرعب أكثر مما يستجلب الإعجاب. وجه منحوت من حجر ملاك قديمة؛ أما عيناها فكانما لم تكن لمجرد بصر؛ نافذتين إلى عالم من الجنون، دوماً في حالة انقطاع؛ تارة تشعان بلون ذهبي كوهج هوس لا ينطفئ، وتارة بلون دموي قاتم، لا تبصران سوى الدم أينما وُجد.

شعرها، الطويل كليلٍ أبدي، يتماوج مثل دخان أسود، حتى لو خلا الهواء من أي نسمة. كان يخيل لمن ينظر إليه أنه يبصر وجوهاً متلاشية تتشكّل بين خصلاته، وبمجرد رؤيته، فقدوا عقولهم حين استسلموا لسحرها.

ولم يكن له موضع في قلبها.

من ملك مملكة الخوف والرعب لم يكن سوى رفيقه، الذي اقتضته الضرورة لا العاطفة. بينهما كان صراع له سمة أزلية بين الفوضى والظلام. هي تكرهه، وتخشى، لكن كلاهما أدرك أنهما متشابهان حد التناقض، كخصمين أبديين في حرب لا تعرف نهاية.

أدركت أنه لا يحبها، ولم تبال. إذ لم يكن الحب غايتها، بل الحيرة، والفوضى، ونشر الجنون بابتسامة قادرة على أن تخفي هولاً يُزخرف بأبهى صورته.

ليست نظرة واحدة إليها كافية لتدرك أنك ضائع إلى غير رجعة.

لم تكن ملكة آكلي لحوم البشر امرأة فحسب، بل كانت كارثة مجسدة، حلماً فاتناً ينقلب إلى كابوس، يداً حريرية تمتد إليك لتهبك الأمان، بل لتجذبك إلى أعماق الجنون، حيث لا خلاص ولا عودة.

جلست ليلث في شرفة غرفتها المطلّة على مملكة آكلي لحوم البشر. كانت قد اعتلت عرش هذه الأرض منذ نحو أربع سنوات، أي قبل زواجها من ديموس، وذلك بفضل صداقة والدها مع الملك أريس، واشتراك عائلتها في فتوحات كبرى إلى جانب الأسرة الحاكمة. غير أن ليلث، وقد رأت نفسها متميزة عن غيرها، كانت تؤمن بأن من حقها أن تحكم، وأن لا عيب في تولي النساء عروش الممالك كما يتولاها الرجال.

كانت لها مشاريع وأفكار لا حصر لها، أولها وأكثرها إلحاحاً: التخلص من زوجها الملك ديموس، واجتثاث أسرته من الجذور. كانت تعلم يقيناً أن ديموس نفسه يضمّر لها الفكرة نفسها، فهو الآخر

يرغب في إقصائها وقتلها وبالرغم من ذلك، ترى الأحقية لها ولأسرتها، وأن العرش يجب أن يبقى لها وحدها.

ارتشفت رشفة من مشروبها الأحمر، وهي تتأمل الغروب أمامها وتسترجع ما دار في العاصمة خلال الاحتفاء به ملكاً رسمياً. وفيما هي غارقة في أفكارها، انفتح الباب ودخلت شابة غاية في الجمال، تحمل صينية تعبق بالبخور، فوضعتها على الطاولة ثم تقدمت نحو الشرفة وانحنت بابتسامة مشرقة:

- لقد أضاءت المملكة بعودتك، مولاتي. مرحباً بك وعوداً حميداً. لله على سلامتك، وتهانينا بتتويج جلالتكم ملكة رسمية.

ابتسمت ليلث قائلة:

- شكراً لك، يا سوليفيا.

كانت سوليفيا وصيفة الملكة وصديقتها المقربة، ومرافقتها منذ أعوام طويلة. جمالها الناعم لم يكن سوى قناع فني لخدمتها الوفية، والوحيدة التي عرفت أسرار الملكة ومخططاتها، ولذلك وضعت ليلث فيها ثقة عمياء. اقتربت سوليفيا من سيدتها وبدأت بلطف تسرح شعرها بيدين ناعمتين، ثم سألتها بقلق يشي بلونه:

- ما الأمر، مولاتي؟ أرى في صدرك ثقلاً حبيساً.

تنهدت ليلث وهي شاردة البصر، ثم تمت بصوت خافت:

- لا أدري ما الذي ينبغي قوله، لكن ثمة أمراً غريباً يحدث.

رفعت سوليفيا حاجبيها:

وما هو؟

في الأسبوع الذي قضيناه في العاصمة مع ديموس، بما أننا شيطانان مختلفان. أنا أعرفه منذ الطفولة، وأدرك أن لا أحد استطاع يوماً أن ينفذ إلى باطنه؛ إذ يقال إنه يحمل في داخله أرواحاً كثيرة، كما ادعى المنبذون. لكن هذه المرة كان مختلفاً... كان هناك ما يشغله حقاً، وذلك أمر لا يحدث عادة مع هذا المتغطرس. وأظن أنني أدرك السبب.

قالتها بابتسامة خبيثة. فبادرتها سوليفيا بحماسة:

- ما الشيء الذي شغل باله؟

أجابت ليلث ببطء:

- أظنها تلك الفتاة. لقد رأيتها في حفل التتويج. ميزتها من رائحتها؛ فهي ليست واحدة منا، إنها بشرية.

شهقت سوليفيا:

- تقصدين الكاتبة؟! هذا مستحيل! لماذا تكون في قاعة التتويج أصلاً؟ ولماذا توجد في عالمنا؟
ضحكت ليليث بسخرية:

- أما زلتِ غبية؟ أظن أن جميع الشائعات التي سمعناها صحيحة. تلك الفتاة هي ابنة سارة، وأنا أراهن برأسي على ذلك.

تراجعت سوليفيا، وقد ارتسم الرعب على وجهها بتوتر يخالطه الحماس:

- ماذا تقولين؟! إن علمت العائلات أن ابنة سارة الراحلة لا تزال على قيد الحياة، ستندلع حرب شعواء بينهم!

ابتسمت ليليث بخبث:

- وهذا ما أريده. لكن، قبل كل شيء، عليّ قتلها، وسأخذ خطوة تخدمني.

- وما هي؟

- اجمعي لي أخطر القتلة وأشد المجانين من سجونني، وأعطهم أمراً مباشراً باختطاف تلك الفتاة البشرية.

اتسعت عينا سوليفيا دهشة:

- وكيف يمكنهم تنفيذ ذلك؟! هذا مستحيل!

رفعت ليليث كأسها وقالت ببرود:

- لا تثقين بمجانيني، أما أنا فأثق بهم. افعلي فقط ما أمرتك به، حالاً.

- أمرك مولاتي.

غادرت سوليفيا الغرفة مسرعة، تاركة الملكة وحيدة تبتمس ابتسامة مريبة وهي تهمس:

- لنرى ملك الغضب... هل ستكرر خطأ والدك أم تملك رأياً آخر؟ أريد أن أعرف، ما الذي يميز تلك الفتاة ووالدتها؟



الفصل الثامن والثلاثون تماسك يا قلبي

كنت أتجول في الغرفة ذهاباً وإياباً، كطائر ينتظر مصيره، إما أن يسقط ميتاً أو يحلق حراً من جديد. سئمت التفكير، وسئمت البكاء، سئمت الانهيار والصدمات، وسئمت أفعال سارة التي أدفع ثمنها الآن عوضاً عنها. عليّ أن أعرف كيف يستطيع إلياس أن يقابلني مجدداً.

ازدادت الحراسة في القصر أكثر من ذي قبل، ولا سيما بعدما أصبح ويليام ملكاً رسمياً. غدا القصر يعج بالخدم والحرس وغيرهم، ومع ذلك لم أر ويليام منذ ما يقارب ثلاثة أسابيع. على يقين أنه يكرهني، ولهذا اختطفني، يكرهني كما يكره شقيقه. إنهم يرونني وكأنني هي، لكنني لست هي، ولا أرى نف

أي شخص آخر لم أعد أعرف من أكون أصلاً. تلك الليالي والمشاعر المظلمة جعلتني أفقد الإحساس.

منذ ذلك اليوم، لم تعد سمارة تترك الباب مفتوحاً كما في السابق، بل تغلقه عليّ دائماً. أحياناً تجلب لي الطعام بنفسها، وأحياناً تأتي تلك المرأة الشاحبة. لم أجرأ يوماً على سؤال سمارة عن ويليام. مؤخراً عدت إلى مذكراتي ودونت فيها ما أشعر به، أخبرني ويليام أن سارة أيضاً كتبت الكثير، وتخبطني سمارة أن سارة هي من بنت عوالم هنا، لكنها نُفيت من عائلة الملكة أدرياني. ثم قالت لي سمارة: "لو علموا بوجودك هنا لقطعوك إرباً".

حسناً، أنا مستعدة، ولم يعد يهمني شيء. توقفت عن النحيب ووقفتُ أمام المرأة، أنظر إلى انعكاسي وأسأل نفسي: هل أشبهها إلى هذا الحد؟ هل يرونني سارة بالفعل؟

لم أعرفها يوماً، ومع ذلك أراها في ذاكرتي، والآن قد أدركت السبب، ويليام هو من جعل شعري أحمر، أنا متيقنة من ذلك تماماً. فعلها عمداً، ليوقظ بي ملامحها، ليتذكرها هي. يكرهني أكثر لئبقيني حية ليس حباً، بل ليحطمني، انتقاماً لأمه. تمزيقي، كما مزقته الخسارة، وإن كان يسعى إلى تدميرني، فإنني أنا كذلك إلى تدميره، وتدمير كل من ينتمي إليه.

أراد أن يكرهني، فأنا أيضاً أكرهه وبشدة؛ إذا لزم الأمر، «دولة الملك.. ديموس!»

دوى صوت الحارس من خلف باب غرفتي. سرى فيّ بجنون، لا، بل أقسى من ذلك جسدي ارتجف، مشاعري جفت؛ ليس خوفاً كما في السابق، بل شيء آخر، مشاعر مبهمه، مشوشة وعنيفة ومرعبة!

هذا هو اللقاء الأول بيني وبين ويليام منذ شهرين وثلاثة أسابيع. نعم، كنت حاضرة في حفل التتويج، لكنه لم ينظر إليّ، لم أجرؤ على الاقتراب. كان منشغلاً حينها بتأمل شعبه وهم يهتفون باسم المؤلفين البشر، أما أنا.. فكنت أهرب من كل شيء، من المشهد، من الألم، من الحقيقة.

وعنها، من بعيد، أخبرني بكل هدوء، الحقيقة الكاملة عن سارة. منذ تلك اللحظة، لم أرد قط. الآن بعد لحظات، سيقف أمامي.

عليّ أن أهدأ، يجب أن أركز، يجب أن أتمالك نفسي.

لماذا؟! أنا أكره ويليام، أستطيع إقناع عقلي بذلك، لكن ماذا عن قلبي، من يقنعه؟

فتح الباب، فالتقطت نفساً عميقاً وقبضت على يدي كي لا ترتعشي. أظن أنني حتى في الأوقات التي هددني فيها بالقتل، لم أشعر بهذا التوتر. دخلت رائحته كعادتها قبله، وبالرغم من أنني ما زلت أضع تلك القلادة اللعينة. كنت أرغب في الخروج قبل أن يدخل، لكن الأوان قد فات.

تقدمت خطواته الثقيلة تسبق حضوره، حتى لحظته اعتصر قلبي بشدة، ففي كل مرة أراه أشعر أنه يزداد هيبة، وأن هالته المرعبة تتعاضم أكثر فأكثر. كان يرتدي رداءً أسود اللون، تتخلله نقوش حمراء قاتمة صبغت بدم، على وجهه قناعه المعهود الذي لم يخلعه يوماً، ولا أعلم إلى متى سيظل يخفي ملامحه. يجب أن لا نرى وجهه بل نذبه، وكان يرتدي تاجه أيضاً، يقف أمامي بثقل مرعب وصمت مهيب.. أنا أعافر أفكاره وأدفنها داخلي كي لا تنفجر.

وقبل أن أنطق بأي كلمة، قبض على معصمي وسحبني كالعادة، خرجنا من الغرفة وسرنا عبر الممر حتى بلغنا المصعد. أدركت على الفور أننا متجهون إلى المكتبة التي لم تطأ قدمي عتبتها منذ زمن طويل. وصل المصعد، وحين هبطنا إلى الطوابق السفلى كعادتها خالية من الحرس لا شك أنه أمر بإبعادهم. وحده ذلك الرجل الضخم الأصلع، حارس المكتبة، ظل واقفاً في مكانه. وما إن رأنا حتى ابتسم كعادته، ثم انحنى للملك قبل أن يسمح لنا بالدخول.

ما إن تجاوزنا العتبة حتى سحبت يدي من قبضته وقلت بحدة:

- وماذا الآن يا ديموس؟

أخرج سيجارة وأشعلها، ثم وضعها بين شفثيه خلف قناع الدخان ببطء قبل أن يجيب:

- أخبرتك سابقاً ألا تنادييني بذلك الاسم.

ذكرت اسمك.

وهو يتقدم نحو وسط المكتبة:

- أراك ما زلت متماسكة رغم كل ما حدث.

أجبت به بثبات:

- لا يوجد خيار آخر غير التماسك، لن أستسلم.. وهذا ما تريده، أليس كذلك؟

ظل يقلب في الكتب متجاهلاً حديثي، فتابعت وأنا أتقدم نحوه:

- أنت تسعى للانتقام مني و...

لم أكمل، إذ رفع يده اليسرى إشارة بالصمت، بنبرة قاطعة:

- لا تفتحي هذا الموضوع. ما حدث في الماضي يظل في الماضي، وما يجب أن نفكر فيه الآن هو المستقبل.

نظرت إليه بارتباك وقلت:

- ماذا تعني؟ وما علاقتي أنا بكل هذا؟

وهو يرمقني من وراء قناعه:

- ألم تسمعي بالمثل: «الأبناء يحصدون ما زرعه آباؤهم»؟ عليك أن تتحملي العقاب عن أخطاء سارة.

أجبت به متحدية:

- يجب أن تعترف بأنك مريض، مهووس بالقتل وتدمير الجميع، أنت وكل الوحوش من عائلتك وشعبك.

ارتجف صوته للحظة وهو يرد بغضب:

- وكيف تجرئين على قول ذلك بعد ما فعلت والدتك؟

- وما علاقتي أنا بما فعلته؟! أنا حتى لم أكن أسمع عن والدتي.. لم أكتشف الحقيقة إلا مؤخراً!

صرخت في وجهه بأنفاس متقطعة وصوت مرتجف، ورغم ذلك كنت ما أزال أحاول أن أتماسك، أن أبدي قوة. تقدم نحوي بخطوات ثقيلة، والغضب يتأجج في عينيه؛ فتراجعت للخلف دون وعي حتى التصق ظهري برفوف المكتبة. لم أعد أفهم ما الذي أحاول كبته؛ أهي أفكاري المظلمة التي تعصف برأسي عن الاتفاق السري مع إلياس حول قتل ويليام؟ لقد حذرني إلياس مراراً أن

أكبح هذه الفكرة أمامه، أن أحكم إغلاق ذهني كي لا يلتقطها، لكنني كنت في صراع، هل أخفي تلك الفكرة، أم أخفي مشاعري، أم أخفي أنا بأكملها؟

وقف ويليام أمامي، شامخاً كجبل يحجب عني النور؛ وفتح كفيه على جدار المكتبة، يحوطني ويطوقني، كمن يغلق علي أي منفذ للهرب. كان يفعل ذلك عمداً. أعلم أنه يريد ترهيبني، أن يحطمني، أن يضيعني. حاولت جاهدة أن أتجنب النظر في عينيه، ورأسي يكاد يلتصق بصدرة بفعل فارق الطول بيننا، مطأطئة الرأس، لكن يده امتدت فجأة وأمسكت بذقني لترفعني ببطء حتى التقت عيناى بعينه.

العينان.. أقسم أن ألوانهما كانت ك البركان في وقت هدأ لمثل هذه الأفكار؟ في أعماقي أعلم جيداً أنه شيء آخر، كان يتجاوز الفهم.

صمت يثقل صدري حتى شعرت أنني سأحترق إن لم أتمكن أن أهرب من اللحظة، ومع ذلك كنت أخشى التحرك، حتى قطع ويليام السكون بصوته العميق:

- أين خبأت شقيقك البائس؟

ما يزال يمسك بذقني، لكن ليس بالقسوة المعتادة. رفع رأسي ليدفعني لسبر غور نظراته. كان يريد إجابة، إجابة لا أملكها. أو لم أكن أريد التصريح بها. شعرت أنني إن لم أتصرف سريعاً سأهلك، قلت متلعثمة:

- لقد أخبرني فقط.. أنه شقيقي.

- كاذبة كبيرة، لا شك أن بينكما خطأً سرية. لكن لا بأس، كليكما ستصير رماداً قريباً، ستشاهدين جثة ذلك الأحمق المتهور أمام عينيك قريباً، وحينها ستفهمين، لا تثقي به أبداً، لأنه سيقودك حتماً إلى التهلكة.

- ومن قال إنني سأثق به؟ أنا حتى لا أعرفه، ولا يهمني ما يفعله، ولا يهمني ما ستفعله به أيضاً.

قلت ذلك بحزم زائف، فأنا نفسي لم أكن واثقة من كلماتي. ابتعد ويليام إلى الخلف، وفي تلك اللحظة شعرت وكأن روجي قد عادت إليّ، وأن الثقل الذي كان يسحق قلبي قد تلاشى. توجه نحو جمجمة، ودخلها وهو يشير إليّ أن الحق به. أدركت على الفور أن جلسة كتابية جديدة تنتظرني. يا إلهي.. لم أكتب منذ زمن طويل، جعبتي فارغة، لا إلهام، وعقلي مشتت كلياً. ماذا سأفعل؟

- اركضي.

داهم صوته أفكارى المبعثرة.

- ماذا؟

قال ببرود:

- سمعت أنك لم تعودى قادرة على الكتابة، وأنتك تحتاجين إلى إلهام. لنختصر الطريق، اركضي فقط.

ضحكت بسخرية:

- ظننت أنك ستتخلى عن هذه الألاعيب بعد أن أصبحت ملكاً على ثماني ممالك، لكنك.. ما زلت تمارس سخافاتك القديمة.

- في أوقات الفراغ سنلعب كثيراً، ما المشكلة في ذلك؟ هل تظنين أنني أحضرتك إلى هنا فقط لتأكلي وتشربي؟

تمتمت بحدة:

- الأفضل أن تشغل بحياتك، بعرشك، بعملك، بعائلتك، بزوجتك اللعنة، ما إن لفظت الكلمة حتى اجتاح المكان صمت مريب ثقيل كالخطيئة، شعرت بندم فوري ينهش داخلي. سارعت بالكلام متداركة غباي:

- لم أكن أرغب في الجلوس على الكرسي.

قال بصرامة مقاطعة: - اركضي.

- ولكن، امنحني فرصة لماذا علي أن أركض وأنا لم أكتب بعد؟ هل جننت؟ اقترب قليلاً وحملق بي من خلف قناعه: - اركضي يا ماريان.. لن أكررها مرة أخرى.

تب لك يا ويليام، تباً لك ولمزاجك الأحمق.

- حسناً.. كما تريد.

طرأت في ذهني فكرة: ماذا لو ابتعدت أكثر، هربت أبعد، لعل ييأس أو أحد رجاله، أو ذلك الطائر الغريب، يتمكن من ملاحقتي؟ نعم، علي أن أستغل الأمر لصالح نفسي. خرجت من المكتبة وهو يتبعني بخطواته الثقيلة حتى وصلنا إلى الباب. فتح الحارس الطريق، خرجنا معاً، وتوقفت وسط الرواق الغارق في الظلام، وكأنه معد مسبقاً لطقس مطاردة مرعبة.

التفت إلى الخلف، فإذا بي أراه، وكالعادة شهقت بفرع، كما قلبي يسقط بين قدي. كان قد بدل قناعه المعتاد بقناع أشد رعباً وغرابة، قناع كأنه صيغ خصيصاً ليمحو أنفاسي.

قال ساخراً بصوته الأجهش: - هل أخفتك يا ملكة الفضول؟ ألم تقولي منذ قليل إنك لم تعودى تخافين مني؟

- أنت مجنون.

اقترب خطوة، وانخفض صوته حتى صار أكثر رهبة: - اسمعي يا ماريان. سأطرح عليك سؤالاً واحداً، إن أجبت بصدق سأعفو عنك ونعود إلى المكتبة، أما إن كذبت.. فسأجعل هذه المطاردة كابوساً يطاردك لليال عدة.

خفق قلبي بعنف، وكان ضلوعي ستتحطم من شدة ما أسمع. ماذا يريد؟ وما السؤال الذي يستعد لطرحة؟ وكيف يمكنني أن أجيب بصدق وأظل على قيد الحياة؟ تمت بصوت يملؤه القلق: - ما هو؟

اقترب أكثر، عيناه الثابتان تنفذان إلى أعماقي، ثم قال الكلمة التي وقعت كصاعقة فوق جمجمتي: - هل تشعرين بالغيرة؟

ساد صمت مهيب. لم أعد أسمع سوى أنفاسي المتسارعة ونبضات قلبي التي تصم أذني. حتى معدتي أصدرت أصواتاً خافتة، والعرق تجمع على جبيني ووجهي وجسدي كله، أطرافي صارت تيبسة، برودة وحرارة تتناوبان في عروقي. لم أعد أملك حركة أو صوتاً. كنت على يقين أنه يبتسم بخبث خلف القناع. وفي ذات الوقت ليت أن الموت يختطفني الآن بسرعة، بأي وسيلة، قبل أن أنطق.

زاد عذابي حين قال بلهجة ساخرة ملغومة بالسعادة: - لا بأس، خذي وقتك في التفكير، لدينا الليل كله.

حاولت أن أخرج صوتي خالياً من الارتجاف، أجبت بسرعة:

- ماذا تقصد؟ لم أفهم سؤالك الغريب.

أمال رأسه بخبث وهو يحدق بي. حاولت التراجع خطوة، بتجنب النظر في عينيه.

- لا تمثلي الغباء، أنت تعرفين تماماً ما أعنيه. ماذا قلت قبل قليل في المكتبة؟ هل تريد أن أعيد عليك الحوار؟

صرخت بلا وعي:

- لا!

ثم سارعت أستدرك غباي:

- أقصد.. إجابتي لا. لماذا سأشعر بالغيرة؟ لماذا أصلاً سأغار على شخص مثلك؟

- إهم.. لقد خاب ظني، كذبة أخرى.. إذن اركضي.

لا بأس، سأحتمل هذه الليلة. الركض في دهاليز هذا القصر أفضل مئة مرة من أن أبوح بمشاعري الغبية لذلك المخلوق الأحمق. ركضت بسرعة، لا أعرف إلى أين، سوى أن الظلام يزداد كثافة مع

كل خطوة. أركض وأركض، بينما صوته يتعالى خلفي بضحكاته، سخريته، غناؤه المشؤوم الذي يجعل قلبي يرتجف أكثر من وقع قدميه.

فجأة لمحت باباً موارباً، فتحته بحذر وتسللت إلى الداخل، وأغلقت الباب خلفي ببطء، محبوسة في أنفاسي كي لا يسمعي.

وحين استدرت، وجدت نفسي في مكان لا يقل غرابة عن القصر نفسه، لم تكن غرفة ولا ممراً مألوفاً، بل بدت حديقة داخلية مظلمة. فراشات سوداء، غريبة الشكل، أجزحتها تتلألاً بنور خافت مصنوعة من ظلال، تحوم من شجرة إلى أخرى.

إلى اليسار لاحت سلالم ملتوية تهبط إلى الأسفل. ترددت لحظة ثم قررت النزول، خطوة بعد خطوة، كلما هبطت درجة ازداد الهواء برودة، حتى وصلت إلى مكان رطب، عبق برائحة حجر قديم، وأصوات مياه تتدفق من جهة مجهولة بما يوحي مغاسل جماعية أو أقبية مهجورة للاغتسال.

سمعت خطوات، تجمدت! قلبي قفز في صدري. يكون مياه؟ لا! ركضت باتجاه آخر، عبر ممرات حجرية طويلة، متعبة كأحشاء وحش نائم.

وفجأة، التقط سمعي صوت محادثة، توقفت رغماً عني. اللعنة على فضولي حتى وأنا أهرب من الموت أنشبت به! اقتربت أكثر، كان الصوت ينبعث من فجوة في الجدار أو غرفة جثية.

كانت هناك فتاة تبكي، صوتها مبحوح، تتوسل لرجل ما بلغة لم أفهمها، لكن البكاء.. البكاء مفهوم بكل لغات العالم. صرختها اخترقت صدري حين تحول بكاؤها إلى عويل ممزوج بالضرب.

كتمت أنفاسي، قلبي يتسارع، أريد أن أقتحم الغرفة؛ أن أساعدها، لكن قلمي لم تتحركاً. بل تجمد الدم في عروقي تماماً حين سمعت صوتاً هامساً باسمي.

- ماريون..

لمحت فجأة، لأجده هناك، طفلاً غريباً يقف في العتمة! ابتسامة عريضة تشق وجهه. ثيابه ممزقة، شعره متسخ ومبعثر، رأسه كبير بشكل غير طبيعي، وعيناه بلا جفون، مفتوحتان على اتساعهما لا ترمشان أبداً.

صحت ضحكة قصيرة غريبة، ثم استدار وركض، متيقناً أنني سألحق به.

وبالفعل تبعته رغم كل شيء، رغم الرعب، رغم يقيني أنني أسعى نحو هاوية.

- انتظر! كيف تعرف اسمي؟

سألته وأنا ما زلت أركض خلفه، حتى وصلنا إلى مكان بدا وكأنه ساحة خارجية، لكنها لم تكن مكشوفة بالكامل. كانت هناك أعمدة حجرية ضخمة تمتد حتى السقف، تتخللها فتحات يظهر

من خلالها مشهد السماء الأرجوانية الغريبة، الجميلة والموحشة في آن واحد.
أعدت النظر نحو الطفل وأنا ألهث وأحاول التقاط أنفاسي، لكن قبل أن أسأله شيئاً، بادرنى بفرح
وحماس قائلاً:

- إنهم ينتظرونك.

سألته بدهشة وقد بدأ الخوف يتسلل إلى أعماقي، بينما يتملكني التردد: هل يقصد إلياس؟

- من تقصد؟

لم يجبني، بل ضحك فجأة وركض باتجاه آخر مظلم، ثم ابتلعه الظلام.

ترددت لحظة قبل أن أتمتم بخوف:

- إلياس.. هل أنت هنا؟

لم أسمع سوى صدى صوتي يتردد بين الجدران. لكن فجأة انبعث صوت غريب من نفس الجهة
المظلمة التي ابتلعت الطفل. خفق قلبي بعنف، وتراجعت إلى الوراء بخطوات مرتجفة، في تلك
اللحظة تمنيت أن يكون ويليام، أي أحد غير المجهول الذي يقترب، لكن ما ظهر لم يكن كذلك.

خرج من العتمة رجل قدر، غريب المظهر، مربع الهيئة. كان أصلع الرأس، ضخمة الجثة، بأسنان
متسخة، يرتدي ثوباً أبيض ممزقاً وملطخاً، أشبه بهارب من مصحح عقلي. اتسعت عيناى رعباً
وتراجعت بسرعة، وقبل أن أتمكن من الركض، اعترضني رجل آخر لا يقل غرابة ورعباً عن الأول.

ثم ظهر الطفل مجدداً، بابتسامة خبيثة، جعلت قلبي يهوي في صدري. همست لنفسي برعب:

- يا إلهي.. ماذا يحدث؟ من يكون هؤلاء؟!

شيء ما في داخلي كان يؤكد لي أنهم ليسوا جزءاً من ألعاب ويليام المعتادة.

قال الأول بصوت غليظ مرعب:

- الفتاة ذات الشعر الأحمر!

حبست أنفاسي، أبحث بعيني المرتجفتين عن مخرج، كان عليّ أن أنادي ويليام.. لكنني أدركت
أنني إن ابتعدت فلن يتمكن من التقاط أفكارى.

صاح الرجل الآخر موجهاً كلامه إلى الطفل:

- هيا أيها الصغير ابدأ مهمتك!

تجمد الدم في عروقي. أي مهمة يقصد؟ ماذا سيفعلون بي؟

بدأ الخوف ينهش قلبي بأنيابه. وقبل أن أجد جواباً، فتح الطفل فمه على اتساع مخيف تجاوز المترين، فانبعث منه دخان أسود كثيف أشبه بظلال حية تتحرك في الهواء. لم أستوعب ما يجري إلا والرجل الضخم يهجم عليّ، كالوحش الجائع.

حاولت الصراخ، حاولت المقاومة، لكن لا جدوى. قبضته العملاقة أحكمت وثاقي، ووضع يده القذرة على فمي. كدت أختنق من رائحة يده العفنة، شعرت بالغثيان وبالاختناق يزحف في حلقي.

كنت أقاوم بجسدي الصغير، لكن قوته كانت طاغية، حاولت استدعاء ويليام في عقلي، لكن فجأة.. توقف كل شيء. عقلي صار فارغاً، لا أفكار ولا أصوات ولا همسات، إحساس غريب، موجه ومرعب، اجتاحني.

ثم انحنى الرجل الضخم وهمس في أذني بصوت تقشعر له الأبدان:

- لا تتعبي نفسك بمحاولة الحديث في عقلك، الطفل يمنعك، وإن واصلت المحاولة سينفجر رأسك الصغير

عندها فقط أدركت حقيقة ذلك الدخان الأسود، أدركت أن هذا الكائن الغريب هو من يغلق عقلي. لكن من هؤلاء؟ وكيف يعرفون عني كل شيء؟ ماذا يريدون مني؟ لماذا يريدني الجميع؟

بدأ الظلام يزحف إلى عينيّ، وكان آخر ما التقطته هو وجه ويليام، لكنه بدا بعيداً جداً، غير مدرك لما يحدث، وهو يتساءل بسخريته المعتادة:

- هذا يغضبني كثيراً يا ملكة الفضول أين أنت.. لم نلتقي منذ شهرين، ألم تشتاقي إليّ؟

- لنخرج من هنا.

قالها أحد الرجال وهو يرفعي فوق كتفه، ثم غمرني الظلام بالكامل.

لكن في أعماقي، همست بكلمات لم أجرؤ على قولها بصوت مسموع:

- بلي.. اشتقت إليك.



الفصل التاسع والثلاثون سجن الهاوية

الملك ديموس

- ماريان؟! -

رائحتها قد تلاشت! هذا غريب لم يحدث من قبل، كيف يمكن أن تختفي فجأة هكذا؟! هبطت إلى الطابق السفلي، أناديتها بصوت متوتر:

- ماريان! ماريان!

تقدمت نحو القاعة الحجرية، وأنا أردد نداءها مرة تلو الأخرى.

- كفى عبثاً، توقفي عن هذه المطاردة! أنا مشغول الآن، ألا يمكنك الخروج؟! -

لكن لا شيء، صمت غريب يخيم على المكان، هدوء يكاد يبتلع أنفاسي!

توقفت في منتصف القاعة، قلبي يضرب صدري بعنف، هنا بالضبط، هنا اختفت رائحتها، لطالما طاردت أثرها، لم يكن صوتها أو أفكارها ما يدلني على مكانها، لقد كنت أعرف دائماً أين هي، بشعور داخلي، برائحتها التي لا تفارقني، لما كنت أمثل أنبي لا أجدها، أعرفها حتى في الظلام، ورغم أنها طيفية، أراها، أشعر بها دوماً أما الآن فلا شيء.. لا أثر لا رائحة، كأنها لم تكن!

ماريان.. ليست في القصر! هناك أمر سيئ قد حدث.

هرعت إلى الحرس، صرخت بأوامري دون تردد:

- فتشوا كل زاوية من زوايا القصر! فتشوا ما حوله! لا تتركوا شبراً دون تمشيظ!

استمر البحث لساعات، جلست خلف مكثبي، أحاول أن أبدو هادئاً، لكن قلقي كان ينهشني بصمت.

أحقاً؟ هل تمكن إلياس من تهريبها؟ مستحيل! لو كان، لكنت شعرت بوجوده، لن يجرؤ على فعل ذلك، هو ليس إلى هذا الحد.

دخل فوبوس فجأة، قاطعاً أفكار المشوشة:

- ما الأمر يا جلالة الملك؟ لماذا القصر في حالة تأهب؟

لم أجب، لمحنته ألكساندر يدخل الغرفة، وعلى وجهه علامات القلق:

- ماريان يا جلالة الملك.

شحب وجهي.

- ما بها؟ مفقودة؟! وضح فوراً!

- ماريان مفقودة لا أثر لها.. كأن الأرض قد ابتلعته.

تحدث فوبوس متفاجئاً:

- مفقودة منذ متى؟!

أجاب ألكساندر بهدوء مضطرب:

- اليوم يا سمو الأمير. لا يزال البحث جارياً، ولكن حتى الآن لم نجد لها أي أثر.

تطلع فوبوس إلي طويلاً، ثم سأل ببطء:

- هل من الممكن أنها هربت؟

أجبت بنبرة حادة:

- لم تهرب! لم تستطع الهرب من ذلك القصر في عالم البشر، لذا لن تهرب من هذا القصر المنيع في عالم مملكة الخوف!

ابتسم فوبوس ابتسامة خفيفة وقال بسخرية مقصودة:

- لا تكن واثقاً إلى هذا الحد. لا تنس من تكون والدتها، لا بد أنها ورثت ذكاءها.

تجاهلت حديثه، والتفت إلى ألكساندر قائلاً:

- جهز «الأسود»، سنخرج للبحث عنها فوراً.

- أمرك، جلاله الملك.

ما إن غادر، خلعت قناعي، أتنفس قليلاً.. أستعد لما سيقوله فوبوس، وقد كان:

- أجننت يا ديموس؟ إلى أين تذهب؟! أنت الآن ملك، لا يمكنك الخروج وقتما تشاء وتعريض نفسك للخطر بلا سبب!

- بالنسبة إليّ، هناك سبب.

- إذا كانت قد هربت، فلن تنجو. وإذا اختطفت، فستقتل. لم تصر على إنقاذها؟! دعها تمت، فهي لا تعنيننا، ليست سوى كاتبة بشرية أخرى!

قالها ببرود، يختبر أعماقي.

أجبت وأنا أرتدي درعي وأحمل سيفي:

- أنا من اختطف ماريان، أنا من أريد الانتقام من والدتها من خلالها. ولذلك، إن كان لا بد من قتلها فلن يكون ذلك إلا بيدي.

أقربت من باب القاعة، وقبل أن أغادر، سمعته يقول ببرود وكلمات ثقيلة:

- لا تخدع نفسك، ديموس. أنا أعرفك أكثر مما تعرف نفسك، لا تكرر خطأ والدك. إن كنت قد أحببت أدريتا يوماً، فهذه هي النهاية. صمت، ضع حداً لهذه الفوضى التي لحقت بنا لسنوات. ولا تنس.. لقد أصبحت ملكاً الآن، فلا تدمر كل شيء بتهورك.

وقفت لحظة، ثم التفّت إليه بنظرة ثابتة وقلت:

- لا يا فوبوس، أنت لا تعرفني. لا أحد يعرفني. حتى أنا أحياناً لا أستطيع فهم نفسي، أراك لاحقاً.

خرجت، والرياح تعصف بوجهي. تماماً كما تعصف الأسئلة برأسي. هل فوبوس محق؟ ماذا يحدث لي؟ كنت أعتبر الأمر تسلية، مجرد لعبة! لماذا أشعر بالخوف الآن؟

أنا ملك الرعب والخوف، فكيف يمكنني أن أشعر بالخوف؟ خوف من ماذا؟ من فقدان ماريان؟

من نفسي قد وقعت في حبها؟ هل هي لعنة والدي؟ لطالما سخرت منه، استخففت بمشاعره، لكنني الآن أعيش ما عاشه.

صداع حاد يضرب مؤخرة رأسي، وقلبي.. ذلك الذي لم أشعر بدقاته، أستطيع الآن سماع نبضاته، ينبض بعنف غير مبرر. أشعر بالاختناق، حتى الهواء بات يخنقني.. لماذا؟ لأن ماريان اختفت.

لا.. لا، يجب أن أجدها. ليس حباً، بل حتى لا تهرب مني، يجب أن أبقئها تحت سلطتي. يجب أن أكون أنا من يعذبها. يجب ألا يقتلها أحد غيري! هذه مهمتي.. وواجبي. سواء أكانت حباً أم شيئاً آخر، في كلتا الحالتين.

«ماريان»

الآن فقط أدركت كم هو أمر سيئ أن تكون كاتباً؛ حينها بأسرها تتحول إلى كابوس لا نهاية له، بل إلى ما هو أسوأ.. الكابوس ذاته.

فتحت عيني ببطء، شعرت بثقل غير مسبوق في رأسي؛ كأن أحدهم قد دق مسماراً في جمجمتي. ألم لاذع صعد من معدتي حتى استقر في مقدمة رأسي، يرافقه عبق عفن لا يحتمل ولا يُطاق.

أين أنا؟ ماذا حدث؟ هبط قلبي في أعماقي عندما بدأت أسترجع الأحداث.. نعم، لقد اختُطفت للمرة الألف بعد المليون! أمر عادي في حياتي المليئة بالمطاردات والخطط، أليس كذلك؟

اعتدلت جالسة بجسد محطم ومرتعش، التفت يميناً ويساراً أحاول معرفة مكاني هذه المرة. بدا المكان ضيقاً، جدرانها حجرية رثة متسخة، كثيبة كأنها تضغط على صدري وتكتم أنفاسي. في الجدار الرابع كان هناك باب حديدي ذو قضبان صدئة.. زلزلة!

لكن هذا لا يشبه أبداً أسلوب ويليام؛ ويليام يحرص دائماً أن يضعني في أماكن فاخرة، زنايات بخمس نجوم وليست حفرة رطبة كهذه. إذن لم أعد ضمن لعبته، لم أعد تحت جناحه، لقد اختطفني غرباء مجهولون، ولا أعلم لماذا؟!

أم ضرب من الجنون أو البلادة؛ إذ بُتُّ أقارن بين روح المخطوفين ومعاملاتهم لي، كأنني زبونة سيئة الحظ في هذا العالم!

تحاملت بثقل على قدمي، خطوت خطوتين نحو الباب، قبضت بيدي على القضبان الباردة وأدخلت رأسي من بين فرجة ضيقة. أمامي ممر ضيق مظلم، صامت، رائحته عفنة تخنق. هل هناك سجناء غيري؟ كانت هناك زنايات أخرى، لكن لم أسمع حساً.

ناديت بخفوت، بصوت بالكاد يتجاوز الهمس:

- مرحباً.. هل هناك أحد؟

لم يجبني سوى الصمت الثقيل. رفعت صوتي قليلاً:

- هل من أحد هنا؟

فجأة دوى صوت أجش مخيف من بعيد، كالصعقة في صمت الصمت:

- أغلقتي فمك أيتها البشرية، نرغب في النوم!

ارتعش جسدي كله، وتراجعت خطوتين مذعورة. إذن.. هناك سجناء آخرون، لكنهم لم ينادوني باسمي، بل بـ "بشرية"؟! ما معنى هذا؟ من أكون في نظرهم؟ ولماذا أنا هنا؟

تجاهلت تهديدهم في النهاية؛ فهم أيضاً سجناء مثلي. عدت بيدي إلى الباب، وأدخلت رأسي مجدداً من بين القضبان، متشبثة بخيط رفيع من الأمل:

- أريد أن أعرف.. أين أنا؟ وما هذا المكان؟

لم يصلني أي رد، تجاهلوني تماماً.

جلست منهكة بجوار الباب، أغمضت عيني من شدة التعب، ومن دون أن أشعر غلبي النعاس، وغرقت في نوم عميق.

فتحت عيني من جديد، فإذا بجفاف خانق يعتصر حنجرتي، وغثيان يعبث في معدتي كعاصفة هوجاء. ما زلت في ذات المكان، ما زلت في هذه الزنزانة العفنة، شعرت بالعطش يمزقني حتى بت لا أعلم كم مضى عليّ من الوقت، يوم؟ يومان؟ أم أكثر؟

زحفت على ركبتي نحو القضبان الحديدية، وأدخلت رأسي من بين فرجاتها الباردة. يا لغرابة هذا السجن! لماذا هو صامت إلى هذا الحد المريب؟ لماذا لا أسمع صراخاً ولا همساً ولا أي حركة تدل على حياة؟

استندت بظهري المتهالك إلى الحائط بجوار القضبان. ليست لدي طاقة لأسأل: أين أنا؟ أو ماذا يريدون مني؟ ولم اختطفوني ليتركوني هكذا؟ كل ما أريده الآن هو أن يضعوا حداً لهذه المعاناة.

كنت على وشك أن أغفو مرة أخرى تحت ثقل الإعياء والتعب، حين باغتني صوت لم أتوقعه.. صوت غناء! صوت أنثوي رقيق عذب على نحو يثير القشعريرة. كانت الشابة تغني أغنية أعرفها جيداً، أغنية من عالم البشر! لم أخطئ، لقد كانت أغنية "I Love You" تلك الأغنية التي لطالما سمعتها في عالمي.

صمتت لبرهة فجأة، فعاد الصمت يخيم. استغللت اللحظة، وتحدثت بصوت مسموع:

- صوتك جميل! كيف تعرفين هذه الأغنية؟

ساد صمت مرت دقيقة كاملة، حتى ظننت أنها لن تجيب، ثم برز صوتها أخيراً، متردداً لكنه واضح:

- شكراً لك، لكن لم أفهم سؤالك.

سألتها بسرعة وحماس:

- أقصد الأغنية التي كنت تغنينها قبل قليل من أين عرفتتها؟

ضحكت قليلاً، ثم أجابت بارتباك:

- إنها من عالمناء، أعني من عالم البشر.

ارتجف قلبي بشدة، وشعرت بمعدتي تنقبض. بشرية! هي بشرية مثلي!
سألتها بانفعال:

- هل أنتِ بشرية حقاً؟ أنا كذلك! لهذا عرفتُ الأغنية.

ساد صمت قصير، تحاول استيعاب الأمر، ثم جاء ردها مشحوناً بالحماسة:
- وهل أنت كاتبة؟

- نعم.

ضحكت بمرارة وقالت:

- الآن علمت، لا يوجد بشر هنا إلا المؤلفون.

تقدمت خطوة أقرب إلى القضبان وسألتها بلهفة:

- أخبريني.. منذ متى وأنت هنا؟

صمتت برهة طويلة، تنبش في ذاكرة مثقوبة، ثم قالت بصوت متهدج يغلب عليه الحزن:
- لا أتذكر.

تشنجت معدتي أكثر؛ يا إلهي! هل هذا يعني أنها هنا منذ سنوات طويلة؟

تمسكت بالقضبان بقوة وسألت بخوف متسارع:

- من الذي اختطفك؟ هل هو ويليام؟

سألته بدهشة:

- من؟

- أقصد.. الرجل المقنع.

- نعم، هو.

- وكيف وصلت إلى هنا؟ ألم يكن من المفترض أن يقتلك؟

ردت بمرارة:

- هناك مؤلفون يصمدون طويلاً، وقد صمدت في الكتابة يقارب الأربعة أشهر. بعدها ظننت أنه سيطلق سراحي، ظننت أنه شخص طبيعي كبقية البشر، لكنه أخذني إلى هذا المكان الغريب.. عالم

مرعب كأنه من الخيال. وضعوني في مكان يسمّى «مصنع العقول البشرية»، وهناك اكتشفت أن المؤلفين البشر، لكنهم لم يعودوا على حالهم الطبيعي.

تقبض قلبي من هول ما سمعت، سألتها بارتجاف:

- ماذا تعنين بذلك؟

ردت بجديّة مخيفة:

- كان الوضع هناك كابوسًا مرعبًا. كانوا يضعون المؤلفين على كراسي خاصة مصفوفة، وأمامهم طاولات ضخمة طويلة تبدو مثل مكاتب عمل، لكن رؤوس الجميع كانت مفتوحة من الأعلى، وهناك أسلاك متصلة بعقولهم، وتمتص شيئًا مجهولًا. جميعهم يشبهون الموتى الشاحبين، بعض جثثهم متعفنة، ومع ذلك ما زالوا أحياء.

شعرت وكأن الأرض تهوي بي من شدة الرعب. كنت أظن أن الكاتب الفاشل يُقتل فورًا، أما الناجح فيُفترض أن يُحرر.. لكن يبدو أنهم يجلبونه إلى هذا المكان!

ابتلعت لعابي وسألتها:

- وأنت؟ كيف نجوت من هذا المكان؟

ضحكت بسخرية مريرة:

- نجوت؟ نعم.. نجوت، لكنني رأيت ما هو أكثر رعبًا وعذابًا. كان من المفترض أن أكون بين تلك الجثث الحية لكن قبل ذلك وضعوني في زنزانة زجاجية صغيرة لأجرب للمكان الرئيسي. شعرت بالخوف حتى كدت أموت، علمت أن هذه نهايتي.

ثم دخل علي شخص ظننت أنه من الحرس، لكنه لم يتكلم، لم يخبرني أنه سيأخذني إلى مكان أفضل، لكنني أملك خيارًا آخر.. فكل مكان هناك كان موتًا محققًا، لم أهتم معه. لاحقًا، اكتشفت أنه ينوي بيعي.

- يبيئك؟

قاطعتها بدهشة:

- نعم.. أخذني إلى مكان أكثر ظلمة يسمّى «السوق السوداء للمؤلفين». في هذا المكان يُباع المؤلفون لشتى أنواع المخلوقات، لأن الكتابة في هذا العالم محرمة وكل ما يكتب، يتحول ما كتبه إلى واقع حقيقي، ويهدد العالم بأكمله. لهذا، الأسرة الحاكمة والمؤسسة هي من تمسك بزمام هذه الأمور. السوق سري للغاية، لا يعرف به الملك أو السلطات، وقد أخبرني الرجل بأنني قد يبيعي بمبلغ يمكن أو من المؤكد أنه جعله ثريًا.

فهمت الآن لماذا لا يسمح لأي أحد بالكتابة هنا، لأن ذلك سيقتل فورًا. أما ويليام، فهو الاستثناء الوحيد لأنه قادر التحكم بالعوالم.

صمتت قليلاً، ثم سألتها:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

أجابت بصوت خافت مشحون بالغضب واليأس:

- لقد باعني لرجل، أو بالأحرى لم يكن رجلاً، بل أراد مني أن أصنع له عوالم، وحوشًا، مآلاً، ومدناً غريبة. ظل يضربني ويعتدي علي مرارًا وتكرارًا تمنيت لو بقيت هناك كجثة هامدة، يمتصون مني ما يشاءون في صمت أفضل من هذا العذاب.

ثم صمتت لثوانٍ بعدها أكملت:

- لكن، في النهاية كنت ذكية.. كتبت قصة قصيرة له، وجعلته الشخصية الرئيسية فيها، وفيها يحدث له شيء غريب؛ يتحول إلى حشرة صغيرة! لم أكن أظن أن القصة ستنجح؛ لكن الحقد والكراهة الذي شعرت به تجاهه جعلني بلا خوف. ولما قرأها، تحول بالفعل إلى حشرة بغیضة أمام عيني! لم أستوعب ما يحدث سوى بعد دقيقة كاملة ثم دهسته بقدمي دون تردد! هل تصدقون أن الأمر كان بهذه السهولة؟ لم أكن أعرف أنه سينجح.

حدقت بها بدهشة، وأصابني القشعريرة والخوف معًا، ثم سألتها بغباء:

- هل تعتقدون أن هذا الأمر سينجح مع صاحب القناع؟

ضحكت بسخرية:

- لا تحاولي حتى التفكير في ذلك! ذلك الرجل مخيف، لا طبيعيًا، وهو المسيطر. لا أظن أن الأمر سينجح معه، ربما مع بعض العامة الأغبياء. بعد أن هربت، حاولت مرة أخرى لكنها لم تنجح معي، ولا أعلم كيف نجحت المرة الأولى.

سألتها بقلق:

- ماذا بعد ذلك، إلى أين ذهبت؟

أجابت بنبرة مرهقة:

- قصة حياتي البائسة هنا طويلة جدًا، ولا أظن أن مثلك يود لتسمعيها.

ترددت لحظة، ثم سألتها باندهاش:

- ماذا؟ منذ متى وأنتِ هنا؟

- لا أعرف، لم أحسبها، لكن قبل فترة، قابلت فتاة حين كنت أنام في الشوارع مختبئة بين الأزقة المرعبة. كانت تلك الفتاة من عالمهم، بالطبع، ولديها القدرة على رؤية الماضي والمستقبل وكل شيء. كانت طيبة، لم تؤذني ولدي فضول بشأن عدد الأيام التي قضيتها هنا، فخبرتني بذلك. وضعت كفها على رأسي وأخبرتني..

سكتت لثوانٍ، ثم أكملت بغصة:

- أخبرتني بأنني في عالمهم منذ ثلاث سنوات!

نبض قلبي اشتد، وداهمني اليأس وفقدان الأمل، امتزج الألم بالاحتراق في روحي. هل سأصبح مثلها؟ قشعريرة اجتاحت جسدي وروحي، وغمرت أفكارني المحطمة.

سألتني:

- وأنتِ.. لم أسألك عن شيء.. ما اسمك، وكيف تجاوزت مصنع عقول المؤلفين؟

- اسمي «ماريانا». لا أعرف ماذا أخبرك؟ لكن أخذوني من الملجأ المقنع عنوة، وأحضروني إلى هنا، ولا أعلم السبب.

ثبتت بدهشة واضحة، ثم استرسلت:

- هل أنتِ «ماريانا لومستر»؟

- نعم أنا هي. هل تعرفيني؟

- بالطبع، كنت أحب رواياتك الغربية كثيرًا. كان حلمي أن أصبح يومًا مثلك، وها أنا الآن معك..

قلتها بسخرية، ضاحكة بحزن. ضحكت معها بسرعة، ثم سألتها:

- وأنتِ، ما اسمك؟

- أنا «رودينا». كتبت كتابين فقط في مسيرتي، لأنهم لم يمنحوني فرصة. في يوم مظلم، تم اختطافي وأحضروني إلى هنا.

- أنا آسفة من أجلك، ومن أجلي أيضًا، ومن أجل كل شخص أتى إلى هنا. كيف وصلتِ إلى هذا السجن؟

لم أسمع أي إجابة، ثم سمعنا صوت خطوات مخيفة. نبض قلبي ارتفع بعنف، تراجعت إلى الخلف. كانوا بالفعل قادمين من أجلي. فتح الباب اثنان من المسوخ البشعة، يرتديان لباس حرس أسود مختلفًا عن لباس حرس الملك والعاصمة. دخل أحدهما وأمسك بشعري، شعرت أنه سينترع من جذوره! صرخت بأقوى ما لدي، وقلت:

- اتركني! ما الذي تريده مني؟

سمعت صوت رودينا أيضًا تخاطبهم:

- اتركاها!

لكن بالطبع، لن يستمعا إلى بشرية مثلنا. سحباني عبر الممرات الحجرية التي بدت وكأننا تحت الأرض. استمررت في المقاومة، لكنه وجه لي لكتين على وجهي حتى شعرت بالتهشم، يبدو أنه فعل ذلك ليوقف حركتي. توقفت بالفعل، وقبل أن أفقد الوعي، سمعت صوت رودينا تصرخ:

- ماريانا.. أعلم أن هذا المكان مرعب، لكن تمسكي بالحياة!



الفصل الأربعون وجه الملك

ديموس

يبدو أنّ السماء غاضبة لأنّ روجي غاضبة، العاصفة تشتد، والسماء تصرخ، والمطر يهطل بغزارة. أظن أنّ هذه الأيام هي الأخيرة التي تنزل فيها المياه من السماء، فبعدها قد لا تمطر إلا ناراً أو دماء.

مرّ يومان على اختفاء ماريان، وما زلنا نبحث عنها، لكن الأمر أشبه بأن الأرض قد انشقت وابتلعتها. غير أنّ الأرض نفسها لا تجرؤ على فعل ذلك من دون إذني. فكرت طويلاً فيمن قد يتجرأ على اقتحام قصري وأخذ ما هو ملكي. حتى أعدائي لا يملكون الجرأة لفعلها. وبعد تفكير عميق، أدركت أنّ شخصاً واحداً فقط يمكنه أن يفعل ذلك.

قال أحد الحراس بينما كنت أجلس في قلب الغابة المخيف والمطر ينهمر فوقي:

- جلالة الملك، لقد عرفنا أين هي الفتاة.

لكنني قاطعته وأنا أنهض واقفاً:

- ليليث هي من فعلت ذلك.

قال الحارس بتلعثم:

- لا أعلم، ولكن الفتاة حقاً موجودة في مملكة آكلي لحوم البشر.

ظهر ألكساندر أمامي قائلاً بحزم:

- جلالة الملك، نحن مستعدون.

أشرت إليه بيدي من غير أن أنظر في وجهه وقلت:

- لا بأس. ظننت أنّ الأمر أخطر من ذلك. لا حاجة إلى جيش، سأذهب وحدي لأحضر ماريان.

اتسعت حدقتا ألكساندر واعترض بتوتر شديد:

- ماذا؟ هذا مستحيل يا مولاي. لا ينبغي لك أن تذهب وحدك إلى جبال الجنون. إنها هناك، ولا شك أن الملكة ليليث فعلت ذلك لتستدرجك إلى فخ قاتل.

قاطعته بصرامة:

- توقف عن الاعتراض يا ألكساندر. لا تنسَ من أكون. ثم اذهب إلى أخي، ولا تخبره بالحقيقة. اكذب كما اعتدت أن تكذب.

ردّ ألكساندر مرتبكاً:

- ماذا؟ حسناً... لكن ماذا إن أصابك مكروه؟ عندها سيطير رأسي.

ابتسمت وأنا أهّم بالرحيل، وقلت:

- إذن أنت تخاف على رأسك أكثر مما تخاف على صديقك.

أجاب متردداً:

- لا، بل أخاف على الاثنين معاً، بصراحة. لكنني أثق بك.

لا أظنُّ أنّ ليليث قد تتصرف كغيرها من النساء وتقدم على اختطاف ماريان بدافع الغيرة منها، فهذا ليس من طباعنا ولا من قاموسنا. لكنني أدرك تماماً أنها تسعى إلى اختباري، فهي تريد أن يُنفى اسمي من سجل المملكة. أعرف خطتها جيداً: بعد أن تأخذ ماريان؛ ستبدأ بنشر الإشاعات لتقول إن الملك ديموس، مثل والده، جلب العار إلى المملكة حين وقع في حب بشرية. وحين تنتشر تلك الأكاذيب، سيبدأ المجلس بالانقسام، وسيسقط الملك شيئاً فشيئاً.

تظنُّ تلك الحمقاء هي وأبوها أنّ بإمكانهما تدمير عائلة نيجلس على العرش. لكن لطالما تجاهلنا خيانتهم على مدى السنوات، لأنهما لم يظهرهما الحقيقي. كل آل مادريل، دائماً، عائلة جبانة، يظنون أنفسهم نسوراً ينتظرون سقوطنا ليلتهموا ما تبقى منا. لكن ذلك لا يحدث إلا في أحلامهم.

من هذه اللحظة انتهى زمن التجاهل. يبدو أنهم يريدون وجهي المظلم، الوجه الذي أخفيته طويلاً باجتهادي عن عيون المملكة. أما الآن فقد صرت ملكها، ولن أدع أحداً يتظاهر بأن السلام يسودها بينما الجميع خونة ووحوش. لقد حانت الحرب. وإن لم تكن من أجل ماريان، فهي من أجلي. سأبدأ بالتصفية، تصفية أولئك الذين يظنهم ذلك العجوز أصدقاء لنا، بينما هم في الحقيقة ألد أعدائنا.

ماريان

رائحة غريبة تتصاعد إلى أنفي، والرياح الباردة تعصف بي من كل جهة. صداع يضرب جمجمتي حتى أكاد أفقد وعيي. شعرت أني معلقة في الهواء، أو محمولة على كتف أحدهم. تذكرت أنني خرجت من تلك الزنزانة، وما زال صوت رودينا يتردد داخلي وهي تحثني على المقاومة. فجأة أُلقي بجسدي أرضاً، فشعرت أن كل عظمة في جسدي قد تكسرت للأخرى وانفصلت عنها. كانت الأرض باردة، صلبة، خشنة، ملمسها يشبه الخرسانات القاسية.

فتحت عيني بصعوبة، ربما من شدة الألم الذي أجبرني على الاستيقاظ. وكما توقعت، كنت في الخارج، فوق أرض خاوية، كما لو أنني على قمة جبل يعلو السحب الرمادية القاتمة، فيما الرياح تصفع جلدي بلا رحمة. التفتُ يمناً ويسرة، فلم أر سوى فراغ ممتد، إلا أن أربعة رجال يحيطون بي وجوههم لا تبشر بخير. مشوهة بالندوب والتشوهات، أجسادهم متسخة، وهيئاتهم لا تنطق إلا بعطش لا يرتوي للقتل والدماء.

لم أستطع النهوض، فبدأت أزحف إلى الخلف بجسد مرتعش مرتجف، وقلت بتلعثم:

- ماذا تريدون مني؟

ابتسم الأربعة ونظر بعضهم إلى بعض بخبث، حتى كسر أحدهم الصمت قائلاً:

قال آخر بحماس مقيت:

- أنا، أرغب أن أكون في المقدمة والختام معاً.

انفجر الأربعة بضحكة مقززة، ففهمت ما يقصدون. لم أحتج إلى الكثير من التفكير؛ لم يكن هناك مكان للغباء في مثل هذا الموقف. تقلصت أمعائي في داخلي، وأحسست بأنفاسي تضيق حتى كدت أختنق. تقدّم الأربعة نحوي معاً، مثل وحوش جائعة تبحث عن فريستها.

ارتعش جسدي كله، وتراجعت إلى الوراء أسرع فأسرع، أصرخ بأعلى صوتي:

- لا تقتربوا مني! لا تلمسوني!

تمنيت أن تنتهي المسافة التي أزحف فيها، أن أصل إلى حافة الهاوية لأسقط منها، فقد كانت تلك خطتي الوحيدة، وأي فتاة في مثل موقعي لن تتردد في فعل الشيء نفسه. لكن الهاوية أبت أن تأتي، الجبل نفسه يرفض أن يمنحني الهرب.

جمعت ما تبقى من قوتي، ونهضت على قدمي اللتين لم تعودا تقويان على حملي، وأجبرتهما على الركض. ركضت بأسرع ما أستطيع، لكن ضحكاتهم كانت تلاحقني كظل لاصق برقبتي، وهم يرددون بمتعة وحشية:

«اركضي.. اركضي!».

لكن قلمي ارتطمت بصخرة، شعرت بألم يمزق روحي من داخلي، صرخت وسقطت أرضاً، والعممة بدأت تغزو بصري.

لم يكن لي الوقت لأستوعب الألم. أحدهم أمسك بشعري ورطم رأسي بالأرض كما لو كنت أضحية في عيدهِ الخاص. حاولت أن أقاوم، ركلته بأقصى ما أملك من قوة، لكن صفعه قوية وصلبني من آخر، ثم تبعها صفعه أخرى أشد قسوة، حتى شعرت بأن وجهي قد ارتطم بالأرض وترك رأسي جسدي وشعرت بالدماء الساخنة انسابت من فمي وأنفي، ربما قد كسر فكي، وربما تحطمت إحدى أسناني، لكنني أقنعت نفسي بأن الأمر ليس كذلك.

حاولت أن أرحف، لكن دموعي انسابت على وجهي بينما كان أحدهم يثبتني بقدمه الثقيلة على الأرض، كأنما يسحق آخر ما تبقى من أملي. في تلك اللحظة أخذ صوت صوفيا، الذي طالما شجعني على المقاومة، يتلاشى ببطء. أدركت أن صوفيا أقوى مني؛ لقد صمدت في وجه العذاب ثلاث سنوات وما زالت ترفض الموت، أما أنا، فقد كنت أظن نفسي قوية؛ لكن أول اختبار حقيقي جعلني أختار الموت. رغبت أن أنتهي سريعاً، أن أرتاح، كنت أفضل أن أفقد حياتي على أن يمد أحدهم يده ليلمسني.

لكني لم أتخيل أن تكون نهايتي على يد هؤلاء المسوخ كنت أفضل أن أموت على يد ويليام، لا على يد هؤلاء الذين لا يعرفون سوى القذارة.

واصلت زحفي يائسة، حتى أمسك بي أحدهم ببهجة خبيثة كان يتسم ابتسامة كريهة أظهرت أسناناً متآكلة باللون البني ورائحة فمه العفنة تنفث في وجهي. اقترب أكثر حتى التصق وجهه بوجهي، حينها استجمعت ما تبقى من قوتي وبالغدر غرزت أسناني على أذنه القذرة، غرزت أنيابي فيها بكل وحشية، تشبثت بها وكأنها حبل نجاتي. صرخ، شتم، وضريني بعنف، لكنني لم أتركه. كنت ألتهم أذنه وأجعل طعم دمه الكريه يملأ حلقي، عسى أن يدرك أنني لست مجرد فريسة صامتة.

إلا أن الآخرين لم يمنحوني فرصة الاستمرار. أمسك أحدهم يدي وثبتاني على الأرض بقوة. شعرت بملاسي تمزق ومعها روحي تتمزق في الوقت نفسه. صرخت، بكيت، توسلت، شتمت، كل مشاعري انسكبت عني هباءً يأس يلف مكمناً أعماقي.

مرّ شريط حياتي أمام عيني. رأيت أبي وأمي، ورأيت زوجة أبي التي ربتني، لا تلك المرأة الأخرى «سارة» التي لم أعرفها قط، لكنها تتحمل سبعين في المئة مما يحدث لي الآن. كذبت أمي حقاً؛ سارة هي من جلبت الشياطين إلى حياتنا، وهي من فتحت لهم أبواب البيت.

رأيت أخي، وابنته، وزوجته، ورأيت أصدقائي، وكل من مرّ في حياتي. كانت هذه النهاية، النهاية المناسبة لواحدة مثلي في هذا العالم. لواحدة اختارت أن تكون كاتبة لروايات الرعب.. كان عليها أن تعيش كل رعب كتبته. هكذا يُسمى العدل في هذا العالم.

أغمضت عيني مستسلمة.

وفجأة..

اشتدت الرياح كأنها عاصفة هوجاء، وتحول لون السماء إلى رمادي قاتم. تجمعت الغيوم بكثافة، وارتفع من بينها صوت هدير مرعب؛ صوت بدأ مثل صوت وحش غريب مفترس، هدير هز القلوب وأزعج الأرواح. توقف الرجال الأربعة فجأة وقد اعتلت وجوههم علامات الدهشة والرعب، وضعوا أيديهم على آذانهم وكأن الصوت يمزقها.

فتحت عيني ببطء، واليأس ما زال يملكني. لكن قلبي بدأ يخفق بعنف لا إرادي، زحفت إلى الخلف مبتعدة عنهم، فيما كانوا يرفعون أبصارهم نحو السماء متسائلين بارتباك: ما الذي يحدث؟

ارتجت الأرض من تحتنا، وتحركت الصخور الصغيرة كما لو كانت ترتعش. وفجأة، انقضت الغيوم السوداء لتكشف عن مخلوق هائل الحجم، مهيب المنظر، غريب الهيئة. كان أسود كالفحم، يشبه التنين لكنه أبشع وأرعب. رأس ضخمة تتدلى منه أسنان بيضاء لامعة، عينان سوداوان قاسيتان، جسد عريض يستند إلى أربع قوائم جبارة، وأجنحة عملاقة ترفرف كأنها تغطي السماء.

ارتجف جسدي كله. ما هذا الكائن؟ هل سيبتلعهم.. ثم يبتلعني معهم؟ لا بأس، فأنا يلماتني وحش كهذا أهون عندي من أن يمسنني إنسان. لكن.. مهلاً!

تبدلت مشاعري فجأة، الأدرينالين تدفق في عروقي. قلبي كاد ينفجر من شدة النبض، عندما رأيت المخلوق يهبط أكثر فأكثر،

ليقترب من الأرض عندها رأيت الحقيقة: لم يكن المخلوق وحده، بل كان يمتطيه رجل.

رجل بزي أسود يطابق لون وحشه، مطرز بخطوط ذهبية لامعة، سيف عند خاصرته يتوجه رأس على هيئة جمجمة، وعلى وجهه قناع مهيب ملامحه تنطق بالغضب. عرفت صاحبه في الحال.. إنه ويليام!

هبط المخلوق العملاق على الأرض فاهتزت من تحته بعنف، وأطلق صرخة مدوية كادت تقتلعنا جميعاً من أماكننا. ارتسم الرعب على وجوه الأربعة، ارتبكوا، لكنهم تجرؤوا على التساؤل:

- «من يكون هذا؟ هل هو الملك؟» همس أحدهم لرفيقه.

أجابه الآخر بارتباك:

- «لا.. بالطبع لا، الملك لا يمكن أن يأتي إلى هنا بنفسه.»

لكن الثالث صرخ متهاكاً:

- «ألا ترون؟ هذا هو الأسود ولا يجروء على امتطائه إلا رجل واحد، الملك نفسه!».

تساءلت في داخلي أولاً: ما الذي يقصدونه بالأسود؟ ثم أدركت أنهم يقصدون ذلك المخلوق المرعب. وهذا يعني أن معظم الشعب لا يعرفون حقيقة ويليام، بل ولا حتى ملامحه، فهو مولع دائماً بتلك الأفنعة التي تخفي وجهه.

قال الرابع ببسالة زائفة وهو يتقدم بخطى مترددة:

تراجع الآخرون بخطوات مترددة، بينما كان ويليام ينزل من صهوة الوحش بكل هدوء وثقة. حطت قدماه على الأرض، ووقف منتصباً ينظر إليهم بعينين ثاقبتين، صامتاً كالصخر، لا يتفوه بأي كلمة.

فجأة، أطلق أحد الأربعة صغيراً حاداً من فمه. توقعت أن تكون إشارة لظهور رجال آخرين يعاونونهم، لكن ما حدث فاق كل توقع. من لحظة انطلاق الصافرة، بدأت الصخور الضخمة المنتشرة على سطح الجبل تتحرك! ثم نهضت كأنها بعثت للحياة. تحولت إلى أجساد صخرية عملاقة، مثل تماثيل من صخر دببت فيها الروح. في لحظات، أحاطت المخلوقات بويليام في دائرة مغلقة، وارتسمت ابتسامات خبيثة على وجوه الرجال الأربعة.

قال أحدهم بتحدٍ:

- «أيها الغريب، من تكون أنت؟».

أضف الآخر بسخرية:

- «ومن أين سرقت هذا الوحش؟».

لكن ويليام ظل صامتاً، عيناه لا تفارقان تلك المخلوقات التي خرجت من الصخور. أدركت أنه كان يعاملهم ببرود، غير عابئ بثلة أولئك الأندال.

عندها فقط، تراجع أحد الرجال خطوة إلى الخلف وقد ارتجفت قدماه، وأشار نحو ويليام وهو يهمس برعب:

- «انظروا.. إنه يحمل سيف داركوس، سيف الملك نفسه!».

لم يستوعب رفاقه ما قاله، حتى انقض ويليام عليهم كوحش كاسر. قبض على أولهم، حاول المسخ المقاومة، لكن جسد ويليام كان أضخم وأقوى، وبحركة خاطفة انتزع رأسه من جسده بيديه العاريتين. وضعت يدي على فمي من شدة الصدمة، بينما كنت لا أزال جالسة أرضاً على مقربة من المعركة.

ساد ارتباك مرعب بين رفاقه الثلاثة، أما ويليام فكان هدوءه يفيض بهيبة هادئة مخيفة. ثم اخترق السكون صوت ويليام الممزوج بالسخرية:

- يا للعار.. أن يجهل بعض أبناء مملكة الخوف ملكهم! لكن لا بأس، ستعرفونه الآن.

ارتجفت قلوبهم، ولم يجدوا خياراً آخر. صرخ أحدهم في المخلوقات الصخرية بكل ما يملك من صوت:

- «اقتلوه!» -

اندفعت تلك الوحوش الثلاثون معاً، تصدر منهم أصوات طحن الصخور، ترافقهم صيحات الثلاثة الباقين. غُص المكان بغبار المعركة، وارتجت الأرض تحت وقع خطواتهم الثقيلة.

أما أنا فتراجعت لا إرادياً إلى الخلف، محاولة حماية جسدي المنهك المملوء بالندوب والجروح. كل ما أردته هو النجاة، ولو ببقايا أنفاسي الأخيرة.

بدأت المعركة الدامية، واندفع المخلوق تلو الآخر نحو ويليام، لكن سيف «داركوس» لمع ببرق أسود غاضب، يقطعهم بسرعة لا تُصدق، الأجساد الصخرية تتهاوى حوله، تتفتت إلى شظايا تتناثر في الهواء. كان يقاتل كعاصفة من الظلال، لا يتوقف، وزخمه.

مضى مَلِك إلى الرجل الثاني من الأربعة، وأمسك به بقبضته الحديدية، معركة خاسرة منذ اللحظة الأولى لذلك المسخ.

لم يدرك المسخ ما حدث إلا وسيف ويليام الضخم قد اخترق جمجمته من الأمام ليخرج من الخلف، قبل أن يُسحب بسرعة وجثته مخضبة بالدماء.

لكن كثرة الأعداء لم تُبق المجال لراحة. ف «الأسود»، مخلوق ويليام، لم يكتفِ بالوقوف يراقب؛ فتح فمه الهائل كهواية لا نهاية لها، وابتلع أربعة من تلك المخلوقات الحجرية دفعة واحدة، ثم اندفع بجسده العملاق ليدهس خمسة آخرين ليحولهم حصى تحت قدميه.

اشتد القتال أكثر، وانقض الرجلان الباقيان من الأربعة على ويليام، لكنهما لم يكونا نِدِين له. أمسك بأحدهما من رقبتة وضغطها بقوة حتى دَوِيَ صوت تكسير العظام، فتهاوى جثة بلا روح. أما الأخير، فقد غرس ويليام يده في صدره كما فعل يوم الإعدام مع الحارس، وانتزع قلبه النابض من بين أضلاعه، ثم ألقاه نحو فم «الأسود» الذي ابتلعه كأنما يلتهم لقمة حلوة خفيفة.

ورغم ذلك، ظل العشرات من المخلوقات الحجرية تحيط به، هجموا عليه دفعة واحدة، فتصدى لهم ويليام بسيفه الفاتك، يقطع ويمزق، بينما يتلقى هو ضربات عديدة. وفي كل جرح ينزفه، كنت أشعر بطعنة في قلبي.. لا، لم يكن ذلك رومانسية في وقت رومانسي - فالوقت لم يكن وقت عاطفة - بل خوف لأنه إن سقط ويليام، فسيكون دوري أنا التالي.

تقلص عددهم شيئاً فشيئاً، حتى لم يبق سوى سبعة وحوش. وقف ويليام يلهث بعنف، جسده مغطى بالغبار والتعب، لكنه رفع سيفه عالياً وأشار إليهم بالتقدم.

اندفع السبعة جميعاً، فأحاطهم ويليام بسلسلة ضربات متتابعة كالبرق، فتمزق أربعة منهم، ولم يبق سوى ثلاثة. تلقى الأول ضربة قوية لم تكن قاتلة؛ لكنه ظنه أسقطه، ثم التفت سريعاً وقضى

على الثاني والثالث بضربتين قاطعتين.

لكن بينما كان ينظر إلى جثة الأخير، نهض الأول مجدداً في غدر خاطف، وانقض على ظهره بسلاحه.

صرخت بكل ما أملك من قوة، حتى شعرت بأن حبالى الصوتية تمزقت:

- ويليام، خلفك!!

التفت في اللحظة الأخيرة وتفادى الضربة، لكنها لامست وجهه، فشقت قناعه نصفين وأسقطته أرضاً.

تغير صوته الهادئ فجأة إلى عاصفة، فاندفع بكل ما يملك من قوة على ذلك المسخ، ومزقه بضربة واحدة قاضية، ليتحول إلى رماد يتناثر بين قدميه.

عمّ الصمت بعد هدير المعركة. جثث متناثرة، الدماء تسيل، والغبار يتلاشى شيئاً فشيئاً.. ثم التفت ويليام إليّ أخيراً. لكن هذه المرة كان بلا قناع.

تسارعت دقات قلبي بجنون، لا من رهبة ما جرى وحسب، بل من حضور ذلك الرجل الذي طالما عرفت صوته، وقوة حركته، وصلابة خطواته، دون أن أرى وجهه قط. كان لغزاً يختبئ خلف ستار أسود لزمن امتد عامًا كاملاً أو أكثر، وها هو الآن يقف أمامي مكشوف الملامح، بلا حجاب ولا أسرار.

التفت إليّ ببطء، والتفت عيناه القاتمتان بعينيّ لأول مرة. عندها شعرت وكأن الزمن توقف، والهواء من حولي أثقل من أن يُستنشق. وكأن العالم تلاشى كله ولم يبق سواه. لم يكن وجهه نسخة مما رسمه خيالي، لم يكن أبهى ولا أدنى، لكنه كان وجهًا حقيقيًا، ملموسًا، وقريبًا إلى حد مؤلم.

اجتاحني صدمة ممزوجة بالرهبة والانهيال. أهذا هو الوجه الذي اختبأ خلف القناع طوال تلك الليالي؟ ولماذا بدت نظراته أعمق من مجرد كشف للهوية؟ في عينيه بريق غامض، كأنهما تحملان حكاية لم يُكتب لي أن أسمعها من قبل. لم يكن مشوهًا، ولم يكن مسخًا، بل كان إنسانًا طبيعيًا، ومع ذلك يفيض غموضًا.

اشتعل قلبي بما يشبه الحريق؛ ليس حبًا صريحًا، بل ارتباكًا وخوفًا مما تعنيه هذه الحقيقة. لقد أحببت ظلاً بلا وجه، وها أنا مضطرة الآن أن أواجه ملامحه، أن أتقبله كما أحببت غموضه. كان الأمر أشبه بمن يفتح عينيه على الشمس لأول مرة بعد أن عاش عمره في الليل؛ بهي ساحر، لكنه ساحق.

كان يفترض بي أن أكرهه، أن أرتجف لرؤيته، أن أتذكر كل لحظة عذاب حين أسرني، حين لم يكن سوى شبح مخيف يتخفى خلف قناع بلا رحمة. غير أنه الآن لم يعد شبحًا، بل بدا منقذي.

جلست حيث أنا، أنفاسي متقطعة، جسدي مثقل بالكلمات والجروح، وعقلي يرفض التصديق. الرجل الذي قضيت أياماً أهرب من ظلّه وصوته ووجوده المقيت، يقف الآن أمامي بلا أفنعة ولا حواجز. لم يكن وحشاً ولا شيطاناً كما ظننت، بل رجلاً يحمل ملامح عصية على التفسير: مزيج من الصلابة والهدوء، من القسوة والجاذبية، من الظلام والسكينة.

سألت نفسي: لماذا أنقذني؟ ولماذا قاتل عني؟ لم يكن يوماً فارساً نبيلاً ولا رجلاً رحيماً، كان ظلاماً متجسداً، ومع ذلك، في تلك اللحظة، بدا لي كالنور الوحيد وسط الخراب.

خانني قلبي بنبضه، بإيقاع لم أتبينه: أهو خوف صرف، أم شيء أبعد، أعقد، وأشدّ خطراً؟ حين التقت عيناه بعينيّ، اجتاحتني قشعريرة لم تكن من الرعب، بل من الإدراك. أدركت أنني وقعت في حبه، رغم أفعاله، رغم الشر الذي يقطر من دمه، ورغم كل ما أراد أن يكونه. والآن، بعد أن انقشع آخر فح، علمت أنني غصت أعمق في متاهته.

كان بوسعي أن أفر، أن استغل اللحظة، لكنني بقيت في مكاني أحرق به. عرفت حينها أن هذا الرجل لم يعد مجرد عدو، لقد غدا شيئاً آخر، أعقد من أن يُسمّى، وأخطر على قلبي مما توقعت.

جمد ويليام خطواته أخيراً، وضع سيفه في غمده وأزاح جسداً ملقى على الأرض بقدمه، ثم تقدم نحوي بخطوات ثقيلة كأنها محملة بعالم من الصمت والغضب. شعرت وكأنه يتأفف في صمته الخفي، لأنه اضطر إلى كشف قناعه، رغم أنه أراد الاستمرار في اللعب بفضولي، فيزيد من رهبة اللحظة.

وقف أمامي مباشرة، يلوح كالظل الطويل. رفعت رأسي نحوه، ودموعي تتجمع في عينيّ، ثقل كل الأحداث الماضية يتكسر على صدري دفعة واحدة. فجأة، خلع معطفه الأسود، تلك العباءة التي حملت رائحة غريبة بين قوة ورقة، مع هبوب الرياح. لم أكن أتوقع هذه البادرة، كانت في حدود المستحيل، لكنه نفذها، رغم استبعادي المطلق لها.

هبط بجسده عليّ، وأحاطني بمعطفه، يغطي جسدي الممزق والمثقل بالندوب والألم. حاولت الصراخ داخلياً، محذرة نفسي: ليس الآن، لا يجب أن يكون نبيلاً معي، يجب أن أقتله قريباً.. لكن قلبي، رغم تحذيره، كان يتسارع حتى شعرت بأنه سيخرج من صدري.

لم أستطع أن أبتعد، رفعت يدي ببطء، كما لو كنت أحاول التأكد أن هذا الوجه حقيقي، أن ما أراه ليس وهماً آخر من أوهامي.

لمست ملامحه بحذر، فكان ملمسها حقيقياً، دافئاً، مسدياً في واقعيته. ثم ابتسم لي، ابتسامة خفيفة بالكاد تتبين، لكنها حملت آلاف المعاني، وقال بسخرية معتادة: - ماذا.. هل كنت تظنين أنني قبيح؟ صمتُ، فقد عجزت عن الكلام في هذه اللحظة، كل الكلمات تاهت في صدري. ثم أضاف، بسخريته العابثة التي كانت تكسر كل لحظة هدوء: - هل تستطيعين المشي، أم أحملك؟ يبدو أنهم أيضاً قصوا لسانك، حسناً، هذا جيد.. أو ربما ليس جيداً.. على أي حال سأحملك، دعينا نتصرف كما لو أننا داخل رواية رومانسية، رغم أن هذا العالم لا يعرف الرومانسية.

طوق يديه حولي، حمل جسدي برفق، وأنا بالفعل شعرت بأنني فقدت كل شيء: لساني، صوته، وكل جزء من قلبي. أدركت حينها أن هذا الرجل، بقناع أم بلا قناع، سيظل للأسف الشديد الرجل الذي أحببته، مهما حاولت أن أقاوم.

ذكرت سارة في مذكراتها أنها جُتت ثلاث مرات: أولاً: لأنها اختارت أن تصبح كاتبة لروايات الرعب. ثانياً: لأنها غاصت في عوالمها حتى صدقتها. وثالثاً: لأنها أحبت وحشاً.

وأنا الآن، أشعر بأنني مثلها تماماً، ابنة تكرر مسار الأم بلا هوادة، أعيش ذات الجنون، وأتقاسم معها العبث والحب



الفصل الحادي والأربعون المملكة الغوطية

-- زمن يبدو وكأنه قد تجمد في تلك اللحظات. حملي ويليام على ظهر ذلك المخلوق، ورغم خوفي الشديد من الطيران، شعرت بمزيج غريب من الرهبة والأمان، لأن ويليام كان ممسكاً بي بكل قوة وحرص. ما أن ارتفع المخلوق بسرعة شديدة، حتى شعرت بأن أحشائي تتقلب بعنف، والرياح الباردة تضرب جسدي بقوة، تكاد تمزق جلدي. شهقت لأتحكم في نفسي كي لا أصدر صوتاً، حتى لا يسخر مني، لكنه سخر كما هو معتاد: - هل تخافين من الطيران؟

خرجت أخيراً عن صمتي، صفيت حلقي وحاولت فتح عيني من شدة الرياح، صرخت بسبب ضغط الهواء على أذني: - هل تقارن هذا بالطائرة؟

لا تصرخي في أذني، أستطيع سماعك بالفعل، أنتِ فقط غير معتادة على الأمر.

أمعنت النظر في السحب الرمادية والأشكال الغريبة التي غرست في سماء هذا العالم الغامض. في البداية، كان شعوري بالخوف شديداً، وامتزج بالغثيان حتى شعرت برغبة في القئ. لكن مع مرور الوقت، تبدلت مشاعري إلى شعور غريب وجميل شعور لم أتخيله يوماً، وكأنني أطيّر فوق السحب على ظهر طائر هائل، مثل المشاهد التي رأيتها في الأفلام والروايات الخيالية.

لم يدم هذا الشعور طويلاً، إذ اجتمعت الآلام في جسدي شعرت بانفجار في كل عظامي، وصداع حاد يلتهم خلايا دماغي ثم سعلت بقوة، فانسابت الدماء على راحة يدي. نبض قلبي بعنف، وشعرت بثقل يضغط على صدري، وقبل أن أغيب عن الوعي، قال ويليام بصوت هادئ:

- لا تهلعي، لقد تعرضت للضرب المبرح، وأنتِ لستِ معتادة على ذلك.

فتحت عيني بفرع، جسدي كله يؤلمني، الرؤية ضبابية، وعرق يتصبب بغزارة، شعرت كما لو أنني أعيش نوبة مرضية جديدة كانت ذكريات الأحداث الأخيرة تتوالى في ذهني على هيئة فلاش باك كابوسي، أغلقت عيني لأحاول استعادة توازني.

عندما فتحتهما مرة أخرى، شعرت بتحسن نسبي. لم أعرف كم من الأيام قضيت في مرض أو وعي مشوش، الرؤية أصبحت أكثر وضوحاً، لكن مكان وجودي بقي لغزاً؟ لم تكن غرفتي في العاصمة، ولا كانت غرفتي القديمة في عالمي السابق. حاولت التنقل، ولاحظت على جسدي بعض اللاصقات الجراحية وقميص أبيض.

الغرفة التي كنت فيها غريبة؛ الكثير من الشموع الموزعة في أرجاء المكان، ولم يكن بها أي مرآة طبيعية. تحسنت جسدي من تحت الغطاء، فوجدت ملابسي قد استبدلت بسرّوال وقميص قطني أبيض. شعرت وكأنني في مستشفى المجانين، وكان الوقت حان ليخبروني أن كل ما رأيته مجرد خيال.

نزلت عن السرير الضخم، أستكشف الغرفة: الأرضية باردة مصنوعة من الخشب، والسقف مجوف أسود، الجدران مصممة بطابع كلاسيكي، ومغطاة برسومات غريبة ومعقدة، حاولت التركيز على إحدى هذه الرسومات، فبدت وكأنها تصور معركة دامية بين مخلوقات لم أر مثلها قط، لا في الأفلام ولا في الروايات.

قفز جسدي فجأة من مكان عندما سمعت صوتاً غامضاً ينبعث من مكان ما، جعل دقات قلبي تتسارع، وكل شعور الأمان الذي اكتسبته أثناء الطيران تبدد في لحظة.

تقدمت نحو باب غريب، أقدامي ترتجف من شدة التوتر، وضعت يدي على المقبض البارد، لم أكن أعلم إن كان مغلقاً أم مفتوحاً. ومع ذلك، أدت المقبض، فانفتح الباب بصوت صرير هادئ. شعرت بأن كل شبر من جسدي يتقلص خوفاً، ومع ذلك ولجت برأسي أولاً وموحشاً، لكن مكان وجودي بقي لغزاً!! لم تكن غرفتي في مصحة خاصة، ولا كانت غرفتي القديمة في عالمي السابق. حاولت التنقل ببطء، ولاحظت على جسدي بعض اللاصقات الجراحية والقميص الأبيض.

الغرفة التي كنت فيها غريبة؛ الكثير من الشموع الموزعة في أرجاء المكان، ولم يكن بها أي مرآة طبيعية. تحسنت جسدي من تحت الغطاء، فوجدت ملابسي قد استبدلت بسرّوال وقميص قطني أبيض. شعرت وكأنني في مستشفى المجانين، وكان الوقت حان ليخبروني أن كل ما رأيته مجرد خيال.

نزلت عن السرير الضخم، أستكشف الغرفة: الأرضية باردة مصنوعة من الخشب، والسقف مجوف أسود، الجدران مصممة بطابع كلاسيكي، ومغطاة برسومات غريبة ومعقدة، حاولت التركيز على إحدى هذه الرسومات، فبدت وكأنها تصور معركة دامية بين مخلوقات لم أر مثلها قط، لا في الأفلام ولا في الروايات.

قفز جسدي فجأة من مكانه عندما سمعت صوتاً غامضاً ينبعث من مكان ما، جعل دقات قلبي تتسارع، وكل شعور الأمان الذي اكتسبته أثناء الطيران تبدد في لحظة.

تقدمت نحو باب غريب، أقدامي ترتجف من شدة التوتر، وضعت يدي على المقبض البارد، لم أكن أعلم إن كان مغلقاً أم مفتوحاً. ومع ذلك، أدت المقبض، فانفتح الباب بصوت صرير مزعج

وبارد. شعرت بأن كل شبر من جسدي يتقلص خوفاً، أخذت نفساً عميقاً، وسحبت الباب بهدوء، وولجت رأسي أولاً

من الفتحة الصغيرة، ثم التففت يميناً ويساراً. المكان بدا كقصر مهجور، مخيف، يفيض بجمال غريب.

الإضاءة زرقاء، وشموع مرصعة تضيء بلهب أزرق جميل، تقدمت ببطء، سائرة على أطراف أصابعي، الممر يتفرع في جهتين طويلتين. لكن ما أسر قلبي كان السور وما خلفه؛ منظر غير طبيعي، مهيب، مرعب وخيالي في الوقت نفسه. القصر كان ضخماً، مفتوح السقف، التجويف الزجاجي الشفاف يظهر السماء بلون أرجواني والقمر العملاق الأبيض يلوح في الأفق.

الطول هائل، والأجزاء المتآكلة من القصر تعكس جمالاً قديماً ومرعباً، تمتد على الجدران أغصان شجر متشابكة بشكل جذري، تشابكت مع زهور غريبة وأشواك وأشياء غامضة أخرى. والأكثر غرابة أن الطابق الوحيد الذي أفق عليه كان معلقاً في منتصف القصر، بينما الدور الأرضي غارق في الظلال، الأرضية متسخة، مغطاة بالأتربة وقطع الزجاج المتناثرة، لا يمكنني رؤيتها بوضوح تحت ضوء الشموع الأزرق.

تابعت السير في الرواق المزرق، أشعر بتشققات الأرضية الباردة تحت قدمي الحافيتين، كل خطوة تؤلمني، لكن الفضول دفعني إلى الاستمرار. وصلت إلى ممر داخلي في نهاية الرواق يمتد إلى اليسار، وكان الطريق الوحيد الممكن. شعرت كما لو أنني أعيش حلمًا، ثم سمعت صوتاً غريباً. لم أتراجع، بل انجذبت نحو المفاجآت.

اقتربت أكثر، حتى لمحت باباً خشبياً صغيراً، متهاكاً. وضعت أذني عليه، حاولت التقاط أي صوت، لكن الصمت كان مطبقاً.

حسنت أمري، أمسكت بالمقبض البارد، أدت، وسمعت صوت صرير مفصلاته القديم، فتح الباب أمامي.

ما إن فتحت الباب، حتى وجدت غرفة دافئة، ممتلئة بالرائحة المميزة، وفي وسطها مدفئة ضخمة تمتد على طول الحائط، تترقص النيران فيها بألوان دافئة وهادئة. تجوّلت بعيني في المكان، فوجدته غرفة دائرية، في الوسط طاولة دائرية، وعلى الأطراف أريكتان سوداوان متوسطتا الحجم، موزعة حولهما بعض الأوراق الصفراء والكتب.

رغم الدفء المنبعث من المدفأة، كان المكان يغمره شعور بالغرابة؛ هناك ممر داخلي آخر بدا وكأنه يقود إلى مكان مجهول داخل الغرفة نفسها، لا أفهم كيف يمكن لغرفة أن تحتوي على ممر!

بينما كنت أحاول استيعاب كل ذلك، سمعت خطوات قادمة من ممر الغرفة المظلم. تراجعت نحو الباب، جسدي يرتجف، حاولت الهروب، لكن الصوت، الصوت المألوف، أوقفني، وعرفت من هو على الفور:

- ماريان.. انتظري، هذا أنا؟

قالها هامسًا بحذر، متلفتًا ببطء، وأنا أراه ذلك الشاب الذي تحمل ملامحه غموضًا وشراً لا يقل عن إخوته. صحيح أنه يشبههم بطريقة ما، لكنني الآن، ولأول مرة، أقابله بعد أن عرفت أنه أخي. كنت أراه بعينين مختلفتين، أرى فيه لمحات مني أنا، ومن ماريان، وربما من أخي موريس، وربما الأكثر من والدته سارة.

- لا تقرب!

قلتها بحدة، لكنه لم يهتم، وتقدم نحوي بخطوات هادئة متزنة:

- الحمد لله أنك بخير، لقد علمت أن تلك الأفعى الملكة، «ليليث»، اختطفتك؟ ماريان، اسمعيني، يجب أن أخرجك من هنا فورًا. صدقيني، الجميع يرغب في إيذائك، كما فعلوا مع سارة والدتنا.

- وهل تظن أنني سأائق بك؟ أنت تريد فقط أن تستخدمني لمصالحك، أليس كذلك؟

فاجأته بكلماتي، فتوجه نحو الطاولة المغطاة بالأوراق، والتقط إحداها ببطء:

- تعلمين جيدًا أنه ليس لدي وقت طويل لأتحدث معك. عندما علمت أن ديموس غادر المكان وتركك هنا، جئت فورًا، فقد لا تتاح لي فرصة للقاءك مجددًا. لكن؛ كما أخبرتك من قبل، سواء قتلت ديموس أم لم تفعل، سأساعدك على الخروج من هنا، صدقيني، هذا إذا كنتِ ترغبين بذلك بالطبع.

شعرت بأن صوته صادق تمامًا، والجملة الأخيرة هزت شيئًا في كياني. هل يعرف إلياس أنني أصبحت أكن مشاعر تجاه ويليام؟ ماذا يقصد بعبارة «إذا كنتِ ترغبين بالخروج»؟ حاولت الرد بحدة متصنعة، وأجبت بتكابر:

- بالطبع أرغب في الخروج من هنا، أريد أن أعود إلى أبي، وأمي، وأخي وحياتي.

- ما أعنيه يا ماريان، يجب أن يموت ديموس، لأنه إذا نجا، صدقيني، سيعود إليك بسهولة، وسيقتل والدك وشقيقك ووالدتك، وربما كل من تحبين، وهذا ما أخبرك به، أليس كذلك؟

دق قلبي بعنف، وارتبكت روجي. كان إلياس محققًا، لقد قالها بوضوح: إذا هربت، سيعثر عليّ بكل سهولة، وهذه النمرة، لا تترك أحداً من عائلتي على قيد الحياة.

- ماريان؛ اسمعيني، الأسبوع القادم ستكون فرصتنا. سيكون هناك طقس خاص بالملك، هو بمثابة تحية الموتى له، وستجرى هذه التحية في أرض الموتى، مكان ينزل فيه الملك وحده؛ بلا حرس، بلا رفقة.. وهذه هي فرصتنا.

ارتعشت أطرافني؛ وتمزقت مشاعري بين صدمة، وخوف، وتوتر وتردد. قلت بتلعثم:

- مهلاً.. مهلاً! لقد خرجت لتوي من صدمات قاتلة؛ من تعذيب، من سجن، ومن محاولات قتل بأبشع الطرق، والآن تأتي أنت هكذا، وتخبرني عن خطة لقتل شخص لا يستطيع أحد قتله، وكل ذلك خلال أسبوع فقط؟! هل جننت؟

- أعلم.. لكن لا يوجد حل آخر، لأنك لا تدركين بعد أن تحية الموتى ستجعل ديموس شيئاً مختلفاً، أشد رعباً، ولن أسمح له بإكمال هذا الطقس. صدقيني، لدى ديموس أفكار خارج القانون، لن يكتفي بتدمير عالمه فقط، بل يسعى إلى تدمير عالمكم يا ماريان، لن يترك أي أحد حي، ما نحن مقبلون عليه جنون.

- وما هذا الطقس؟

- سألت بذعر.

- طقس لم يجرؤ أي ملك على فعله من قبل، إنه محرم وممنوع علينا، لكن لا شيء ممنوع لدى ديموس. لا أستطيع شرح كل شيء الآن، لكن أخبريني فقط إن كنت مستعدة، للهروب أو لقتل ديموس معي!

فركت جبھتي بارتباك، وكنت أشعر بالغثيان يتصاعد في حلقي، وفجأة لمس يدي، فارتعشت وتراجعت خطوة:

- لا تلمسني!

- هل تتذكرينها؟

داهمني بهذا السؤال، وعيناه تحملان شيئاً من الحزن والغضب بدون تفكير، علمت أنه يقصد سارة:

- نعم.. أقصد، ذكرياتي عنها مشتتة، غير واضحة لكن نعم. أستطيع أن أتذكر شكلها وهيبته، ملامحها وشعرها.

ابتسم بذبول:

- أنا لا أعرفها، أخذوني منها فور ولادتي، ورموني بذلك البرج، لكن رأيته مرة واحدة فقط، ومنذ ذلك الوقت لم تخرج من ذكرياتي.

- أين رأيته؟

رد بخفة وتردد:

عندما زارني ذلك العجوز، أبي، عندما بلغت الثامنة عشرة، وضع يده على يدي، وهنا اكتشفت أنني أستطيع رؤية بعض الذكريات والأفكار التي يفكر بها الآخرون، وهناك رأيته، رأيت أمي، سارة. رغم أنه لم يحمها وتخلي عنها من أجل السلطة والعرش، إلا أنه لا يزال يفكر بها.

عم صمت لثوانٍ، ثم تقدم نحوي وأخرج قارورة تحتوي على سائل شفاف:

- اشربي هذا؛ ماريان، إذا كنت ترغبين بمساعدتي والعودة إلى حياتك.

تراجعت خطوتين إلى الوراء:

- ما هذا؟

- لا تخافي، إنه مادة تمنع أي تداخل ذهني لمدة أسبوع. سيشتت انتباه ديموس عن قراءة أفكارك، لأنه بالطبع سيعرف أنك ستهرين إن لم تشريه.

- وكيف لي أن أعلم أنه ليس سماً؟

ضحك بسخرية:

- لو أردت قتلك، لكنك أمسكت برقبتك، أو خنقتك، أو كسرتها، أو طعنتك بهذا السيف، لماذا أعطيك سماً؟

سكت لثوان، ثم أضاف بنبرة مشوبة بالشك:

- أو ربما تقولين إنك لا ترغبين بترك ذلك الشيطان فسيكون هذا أسهل!

شعرت بالإهانة من نبرته وسخريته اللاذعة، فانتفضت بغضب وسحبت الزجاجاة الصغيرة من يده، فتحتها وابتلعت كل ما فيها، ثم رميتها جانباً:

- وهل تظن أن هذا سيساعد وأنه لن يكتشف أمري؟ سيلاحقني بلا شك أنه لا يستطيع قراءة أفكارك، إنه ليس غيبياً أبداً، وأنت تعلم ذلك.

استرسل حديثه وهو يتراجع نحو الممر المظلم من حيث ظهر:

- يوم الأربعاء، نهاية هذا الأسبوع، أي بعد خمسة أيام، سننفذ خطتنا، ومن اليوم وحتى ذلك الوقت، يمكنك أن تفكري جيداً، لا تدعي مشاعرك أن تغلبك، لأنك ستعيشين في جحيم، صدقيني يا ماريان، لا تكرري خطأ والدتنا، وفكري جيداً بعائلتك.

- لكن مهلاً! أنت قلت إنه لا يأخذ أي أحد معه إلى تلك الأرض.. كيف سأذهب هناك؟

- لا، سيأخذك، ثقي بي، فقط أراك هناك، وحتى ذلك الوقت كوني حية وذكية.

اختفى إلياس كعادته في الظلام، وتركني حائرة، خائفة ومرتبكة. كيف يمكنه أن يأتي هكذا فجأة ويخبرني بكل هذه الأمور الصعبة؟ لا أعلم إن كنت أثق به أم لا. خطة غير واضحة المعالم، لكن لا خيار أمامي، لا بأس إن مت، لكنني أخاف على زوجي وأخي. وأيضاً، ماذا لو اكتشف ويليام خطتنا وغضب، كما قتل إيثن لمجرد غضبه؟!

- آنسة ماريانا؟

قطعت هذه الكلمات بصوت امرأة من خلف الباب. تراجعت بصمت مرتجفة، فانفتح الباب بهدوء لتظهر امرأة شابة في الثلاثين تقريباً، إذا حسبت أعمارنا المتقاربة، لديها عين بيضاء وأخرى سوداء، وشعرها الرمادي الكثيف يكسو رأسها. ترتدي فستاناً قديماً أسود بياقة بيضاء. رغم ملامحها الغريبة، بدا وجهها سمحاً وجميلاً، وتحمل شعلة زرقاء في يدها، وكأنها نار زرقاء.

أكملت حديثها بريبة، وهي تبحث بعينيها في المكان:

- متى استيقظت؟ وماذا تفعلين هنا؟ ومع من كنتِ تتحدثين؟

حاولت أن أخفي توتري، وعلمت أنها من وضعها ويليام هذه المرة لتعتني بي. أمسكت برأسي بشكل كاذب لألهيها عن الإجابة:

- لا أعرف كيف وصلت إلى هنا أشعر بالمرض، أين أنا؟ وأين ويليام؟

- لا بأس، لقد استيقظت لتوك من غيبوبة دامت ثلاثة أيام، وجروحك وجسدك لا يزالان في طور التعافي. تعالي، هيا، تناولي بعض الطعام..

قادتني من يدي إلى الغرفة التي كنت بها، والتي بدت مضاءة أكثر مما كانت عليه عند استيقاظي. ساعدتني على الجلوس على السرير، ومدت صينية الطعام بجانبي على طاولة صغيرة أحضرتها، ثم سألتني بفضول وهي تجلس بجانبي:

- من أنتِ؟ وأين أنا؟ وأين ويليام؟

ضحكت طويلاً بغرابة:

- ما هذا الاسم السخيف «ديموس» الذي يعني كل شيء قوي وشرير ومظلم إلى ويليام؟ لماذا أطلقت عليه هذا الاسم؟

ابتعدت لأضع مساحة بيننا، ولكن فجأة تصرفت كأنها تعرفني منذ عقود، واقتربت مجدداً بشكل غريب، وعلقت بي قائلة بحماس ومرح:

- أعتذر إذا شعرت بعدم الارتياح مني، لكنني لن أوذيك.. دعينا نكن صديقتين، حسناً؟

نظرت إليها باستغراب، ومع ذلك لم أعرف لماذا ما زلت أتعجب من كل شيء هنا، فهو غريب ومربك:

- أنتِ لم تجيبي عن أسئلتني بعد، من فضلك أخبريني أين أنا؟ ومن تكونين؟

أجابت وهي تلتقط الملعقة وتضع بها بعض الحساء محاولة إطعامي كما لو كنت طفلة. أبعدت رأسي عنها، والتقطت الملعقة من يدها وتناولتها بنفسني، فابتسمت دون مبالاة:

- حسنًا، اسمي «ماي»، إذ إن اسمي طويل جداً، يمكنك مناداتي بـ «ماي» وحسب. تنهدت بملل، ثم عادت، واستأنفت الضحك: بدت عصبية بعض الشيء، حسنًا، من أنا؟ لا أظن أن هويتي مهمة إلى هذا الحد، لكن أنا حبيبة ديموس السابقة، هو يثق بي كثيرًا، لذلك أحضرتي للاعتناء بك حتى يعود.

قالتها ضاحكة وهي ترتشف بعض الشراب، فنظرتُ إليها بصمت وهمستُ بصوت خافت:
- هذا ما كان ينقصني.

- ماذا قلت؟

سألتُ.

- لا شيء، لكن أين ذهب؟

- هزت كتفها:

- لديه اجتماع مهم.

- في العاصمة؟

- لا، هنا، مع أكثر الأساطير رعبًا.

ثم سكتت لثوانٍ وهمست بحماس: تلك الكائنات التي لا تخضع لأي ملك أو سلطة موجودة هنا، فهي تعيش على مبدأ الحرية منذ تأسيس العوالم، ووضع المتنبئون قانونًا لا ينكسر بأن هؤلاء لم يركعوا لأي ملك أو أحد، لكن ليس في زمان ديموس.

قالتها بنبرة مريبة:

- ماذا تقصدين؟ أين أنا؟ وأي أساطير؟

لم تفتح فمها للإجابة، حتى انفتح باب الغرفة، ليظهر من خلفه ويليام. ارتعش قلبي؛ كان يرتدي الأسود بالكامل مع قفازات سوداء وقناع أسود. هذا غريب، لماذا لا يزال يرتدي القناع مع أنني رأيت وجهه؟ صحيح، تذكرت أنني رأيت وجهه أخيرًا، وحتى أنني لم أستطع التمعن فيه أكثر بسبب حالتي الصحية، لكنني ما زلت أتذكره جيدًا.

قفزت «ماي»، تلك الشابة الغريبة، نحو ويليام بحماس، وعانقته بقوة ودلال قائلة:

- أخبرني، كيف سارت الأمور يا ملكي؟

لقد قالت للتو إنه حبيبها السابق، لكنها ما زالت تتصرف كحبيبته! اللعنة عليك يا ويليام، كم لديك من حبيبات؟ ومتزوج أيضًا؟! هذا مضحك حقًا، الرجال لا يختلفون، سواء أكانوا بشرًا أم شياطين أم وحوشًا.

أزاح ويليام «ماي» بيده بملل، ثم تحدث معها بلغة غير مفهومة. لم أفهم ما قاله، لكنني عرفت أنها نفس اللغة التي كان يتحدث بها مع ذلك الشاب في القصر القديم الذي اختطفني فيه ردت «ماي» بابتسامتها البشوشة والسعيدة، وبدت خالية من الحقد، ثم أشارت إليّ مودعة بيدها:

- نراك لاحقاً، أيتها البشرية الجميلة.

غمزت لي وغادرت الغرفة. دخل ويليام وجلس بجانبني:

- أرى أنك أصبحت بخير.

- أظن ذلك، همست. ثم تابعت:

- كيف استطعت الوصول إليّ؟

- سؤال غريب، بالتأكيد سأصل إليك، لا أحد له الحق في خطفك غيري.

قلت زافرة:

- هذا بالطبع لأنك تسمع أفكارني.

- لا ليس دائماً أسمعها، خصوصاً أنك ابتعدت كثيراً.

- إذاً كيف عرفت بمكاني؟

أجاب ضاحكاً:

- رأيت لون شعرك الصارخ على بعد مسافات.

- هل تعرف أن حسك الفكاهي يحتضر؟

هز أكتافه بلا مبالاة وأردف بسخرية أكثر:

- حقاً؟! إذاً يجب أن أنعشه. هل تودين أن تعرفي أين أنت؟

- إذاً هيا بنا.

أمسك بيدي وسرنا معاً، عبرنا الرواق الأزرق والطويل، حتى وصلنا إلى بوابة ضخمة مفتوحة. لم نزل من سلالم؛ كما قلت سابقاً، كان الطابق الذي نحن فيه معلقاً في الهواء. خرجنا عبر البوابة، ليظهر أمامي هذا الجمال المرعب. كان المكان شارعاً طويلاً، تتوزع على جانبيه منازل وقصور قوطية. يغطيه ضباب كثيف، كان المكان هادئاً بشكل مرعب، خالياً من السكان على عكس العاصمة والمدن الأخرى، وكأنه مهجور وخالٍ من أي روح. الجو كان بارداً وموحشاً، إلا أن المكان كان جميلاً بطريقة مرعبة ومختلفة عن كل ما رأيته من قبل، ككابوس غريب ومرعب وجميل في

آن واحد. وقف ويليام في منتصف الشارع، بينما كانت عيناى تجولان بدهشة، حتى قاطع أفكارى
قائلاً:

- مرحباً بك في المملكة المنسية، المملكة التي سأسعى إلى ضمها قريباً إلى قارة الخوف، مملكة
«الأساطير القوطية».



الفصل الثاني والأربعون الأساطير الأدبية حية

«الملك ديموس»

قبل ساعات

أخبرتني أمي ذات مرة بأن على الملوك انتزاع القوة بأيديهم، لا بالكلام الفارغ والهراء، وأن ملوك عالم الخوف والرعب لا شيء مستحيل عليهم مهما كان. حفرت هذه الكلمات في قلبي وعقلي، خاصة بعد أن جسد لي العالم أجمع، بما فيهم أبي وعائلتي، أنني وحش وشيطان. المضحك في الأمر أن الجميع هنا وحوش، لكنهم يرون أنني مختلف تماماً، وأني سأكون السبب في هلاك هذه الأمة، كما تنبأ المتنبيون. وأظن أن توقعهم هذا قد يتحقق قريباً. رغم ذلك، أصروا على أن أجلس على عرش هذه المملكة، ببساطة لأنني الأقوى والأجدر. أما بالنسبة إلى أبي، فلا أعلم حتى الآن لماذا تخلى عن عرشه بهذه السهولة، ولا أحد يعرف السبب. وفجأة قرر أن يضعني أنا مكانه، رغم حبه الشديد لـ «فوبوس» وخوفه مني. ربما كان هذا السبب، لكنني لا أعرف ولا أرغب في معرفة أي شيء، فقد انتهى الأمر، والآن أنا ملك هذه العوالم، وسأكون قريباً ملك جميع العوالم. أما «مملكة الأساطير الأدبية القوطية»، فهي تلك المملكة المنسية عبر القرون، التي تحوي أحلك الأساطير الأدبية المرعبة، صاغها مؤلفون وأدباء منسيون ماتوا منذ زمن بعيد، لكن أساطيرهم وشخصياتهم التي ابتكروها نُقلت إلى هنا. قصة طويلة رُسمت على الأوراق المنسية، ستعرفونها لاحقاً. على هذه الأرض، التي تُعد من أضخم وأكبر العوالم في عالم الخوف، لم تُضم هذه المملكة أبداً إلى أراضي قارة الخوف والرعب، ولا تُعد جزءاً من أراضينا، لأن هناك قوانين، ومن أهمها احترام الأساطير. لذلك، لا تخضع هذه المملكة لأحد، ويجب على أبناء شعبها أخذ البركات والتبجيل منها.

هنا توجد أحلك الأساطير، وأشدّها رعباً وظلمة؛ مثل الأساطير القوطية الكلاسيكية القديمة، ووحش «فرانكشتاين» للكاتبة ماري شيلي، والأسطورة «دراكولا» الأب الروحي لشعب مصاصي

الدماء، رغم وجود أقدم منه، لكنهم اختاروه. وهناك الكثير والكثير غيرهم. والأهم الآن هو قدومي إلى هذه الأرض، لأجعلهم جميعاً في صفي وتحت ولايتي.

ربما لأنني أخطط لذلك بالطبع، لا فوبوس ولا المجلس ولا حتى المتنبئون. صراحة، لا أحب أن أثق بأحد، لأن ثقتي بنفسي، وهذا شيء جيد. قبل أسبوعين، أرسلت رسالة إلى أبواب المجلس هنا، والذي يترأسه «دراكولا». من المعروف أنه من الصعب الوصول إلى هذا المكان، حتى لو وصلت، ببساطة لأنك لن تستطيع المغادرة. فجميع الأساطير يكرهون الملوك والأمراء والساسة، يعيشون وحدهم في حروبهم الخاصة.

توقعت أن يردوا عليّ بهذه السرعة؛ ربما كان لديهم فضول لمعرفة من أنا، ولماذا يخافني العالم بأسره. وبالفعل، حددوا يوم الاجتماع، وكان اليوم المحدد هو هذا اليوم. كنت أظن أنني لن أستطيع الحضور بسبب اختطاف «ماريان»، لكنني وجدتها في الوقت المناسب، واضطرت لأخذها معي، وكان من الجيد أن أحضرها بخطتي.

لكن المكان يبدو مختلفاً كثيراً عن آخر مرة جئت فيها هنا مع أمي. أتذكر أن فوبوس كان خائفاً بشدة لأنه كان طفلاً، وكنت أنا أيضاً كنت طفلاً، لكن لم يكن في قلبي أي ذرة خوف، ولا مشاعر، بلا أحاسيس، وهذا ما جذب انتباه الجميع هنا. لا أذكر لماذا أصلاً أمي جاءت إلى هنا وأخبرتنا أن نحافظ على هذا السر، وألا نخبر أي، بينما تركتنا أنا وفوبوس في هذا القصر المخصص للضيوف غير المرغوب بهم. غادرت تلك... رحلنا.

والآن أنا هنا مجدداً، هبطت بوحشي «الأسود» مع ماريان التي كانت شبه ميتة بسبب الجروح والصدمة النفسية التي تعرضت لها. استعنت بإحدى «سيدات الكوابيس البيضاء»، التي كنت أعرفها سابقاً، وهي «ماي»، وأثق بها بقدر ثقتي بنفسي. هذه الشابة لم تتجاوز أبداً حقيقة أنني كنت على علاقة بها يوماً ما، لكنها لا تزال تخدمني جيداً، وعلاوة على ذلك، فهي وجماعتها قادرون بسهولة على الدخول إلى هذا المكان. تركتها تعني بماريان، وغادرت إلى القلعة الحمراء، قلعة «دراكولا».

القلعة خالية من الحياة، البرودة فيها أسفل الصفر، الضباب يبتلعها، وتظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى. هنا لا أحد يمتلك حرساً أو عائلات أو أصدقاء، لا يوجد أحد، فقط كل شخصية في مكانها وحدها. دخلت أعماق الضباب، وتحول إلى اللون الأحمر، حينها علمت أن سيد مصاصي الدماء، الأسطورة الخالدة، قد رحب بي. انشق الضباب لتظهر أمامي قلعة حمراء، بلون الدم، وكل ما فيها من جدران وأعمدة يراقب. تقدمت أمام البوابة المخفية، وهنا ظهرت.

في أقصى أطراف المملكة القوطية، حيث تنتهي الطرق وتبدأ الأساطير، تنهض قلعة دراكولا ككابوس متجسد، لم تُبن لتُسكن، بل لتُخشى.

تربح القلعة فوق هاوية سوداء تُسمى «فم الشيطان»، كأن الأرض اختنقت بها، فمزقت ذاتها وابتلعت الضوء والرحمة معاً. جدرانها من حجارة سوداء تمتص النور، لا يُعرف إن كانت نُحتت من صخر، أم جُمعت من قبور ملوك قَدَموا طواعية لعرش الدم.

وتنمو فيها نباتات سامة تعرف باسم «عرائش الندم»، لا تزهر بل تموت بعشق، ولا تصدر صوتاً إلا أئيناً مكتوماً يشبه بكاء من ندم وهو قادم على الحياة. وتظل الرياح تصرخ حولها، ليس لأثر جو عاصف، بل لأن القلعة تتنهد من الداخل، مثل حيوان جريح محتضر بالمذابح.

لا أبواب تفتح في النهار، ولا نوافذ تطل على العالم، فقط حين يسود الليل وتختفي النجوم، تظهر نوافذها كشروخ في جدار الحقيقة، يتسلل منها ضوء خافت، ليس نوراً، بل بقايا أرواح احترقت في أحلامها.

في أعلاها، يرتفع برج منفرد يُعرف بـ «لسان الجحيم»، تعلوه ساعة عتيقة لا تشير إلى الزمن، بل تنزف دماً في كل منتصف ليل، تذكيراً بأن الندم وحده هو ما يقيس مرور اللحظات في عالم دراكولا.

أما الداخل، فهو خيانة للحواس ومذبحة للعقل. الممرات تلتوي كالأفاعي، والجدران مبللة بندى لا يشبه الماء، بل يشبه عرق الموتى.

في قلب القلعة تتريع قاعة تُدعى «غرفة النزيف الأبدي»، سقفها لا يحمل مصابيح، بل قلوباً متجمدة تدلى في سلاسل صدئة، ينبض بعضها أحياناً، لم تنس كيف كانت تحب، ثم كيف خُذعت. كل قلب فيها يحمل حكاية، وكل حكاية لعنة.

وهناك، على عرش من عظام من لا تُذكر أسماؤهم، يجلس دراكولا. لا يشبه ملوك البشر، بل يبدو كفكرة قديمة عن الخوف، تجسدت في جسد لا يموت ولا يهدأ. عيناه مظلمتان كبئر طفلين، وابتسامته تحمل وزن قرون من الخيانة والعطش.

لا يعيش وحده، بل تحيط به كيانات لا تفسر: الغراب الأحمر الذي يهمس بما سيحدث قبل أن يحدث؛ الساقى الأعمى الذي يسكب الدم بدلاً من الخمر؛ الطفل المصلوب الذي يضحك حين يسمع الصراخ؛ والحارس العارية ذات الألف لسان التي تغني بأصوات كل من مات هنا.

القلعة لا تنام، وإن فعلت، تحل اللعنة في العالم كله، لأن أحلامها لا تشبه أحلام البشر، بل كوابيس الشيطان حين غضب.

دخلت بثبات، بخطوات واثقة، حتى وصلت إلى قاعة العرش. لم أكن أعلم مكانها بدقة، لكني رأيتها في أحلامي سابقاً. وصلت إلى ذلك العرش الذي كان يُسمع عنه كأسطورة، والآن أصبح أمامي، متدلياً من فوقه تلك القلوب المتنوعة. تقدمت في المكان البارد، حتى وصلت إلى العرش؛ تأملته ثم جلست عليه، وضعت ساقاً على ساق دون مبالاة.

سمعت صوتاً أجش ضخماً، محملاً بزمن طويل وقرون من الشر والفساد والظلمة، يقول:

- «هل تعرف؟ لم يجزؤ أحد من قبل على الجلوس على عرشي! كنت أسمع عنك بأنك مجنون جريء، متهور، لكن لم أظن أنك لهذه الدرجة، يا ابن أريس».

أجبت بسخرية، كأنني أنسى من هو أمامي:

- ومن أنت؟

- متجسداً، قائلاً:

دراكولا - السيد الذي لا يموت.

عند ذكر اسمه، ترتجف القلوب التي لا تزال تنبض، وتلوذ في صمت خائف. ليس دراكولا مجرد مخلوق، بل عصر من زمن، ظل الخطيئة الأولى، وورث الليل الأوحده.

بصمت شاق، كأن قامته سُلبت من تماثيل الأساطير لا ينحني، لا يلتفت، بل يسير كمن تعود أن تتبع الأرض لا العكس. بشرته بيضاء كنسيج الكفن، لا يشوبها لون عروقه رفضت الحياة منذ قرون. لكنها ليست هشة، بل تُشع ببرودة غامضة، مثل جدار من رخام نُحت فوق قبر ملك ظالم.

عينيه ثقبان من جمر خافت، ليس فيهما وهج الحياة، بل حيرة الموتى، من يحدق فيهما طويلاً يرى نهايته، ومن يجرؤ على نظر أعمق، قد يرى نفسه كما لم يجرؤ من قبل.

أما شعره، فأسود كالليل، ناعم كهمسات الغواية، مُسرح بعناية مريية، تتدلى منه خصلات كأنها شعائر ظلية تلامس وجهه، تذكره بما كان، أو بما قُتل. استمر بالتقدم نحوي، مسترسلاً حديثه:

- ارتكب أريس أخطاء كثيرة، لكن أسوأها أنه جعل طفلاً مثلك ملكاً لهذا العالم!

أطلقت ضحكة طويلة ساخرة، حتى سعلت ثم تنحنت، قائلاً:

- أتفق معك في هذه النقطة.

تنحى جانباً، وتوجه نحو طاولة حجرية طويلة، سكب له كوباً من... كوباً من المشروب الخالص: انتشرت رائحة العنب الأسود، وقدمه لي بيده البيضاء الشاحبة وأظافره السوداء الطويلة:

- رغم هذا، يجب أن نضفي بعضاً من ضيافة ضيوفنا، حتى لو كانوا غير مرغوب بهم، ويجلسون على عرشنا بلا إذن، تفضل.

- شكراً، لهذا لا أريد أن أطيل الأمر، فأنا مشغول. سأخبرك بما أريد.

قاطعني بعد أن ارتشف كوب الدم برشفة واحدة:

- أعرف ما تريده يا سيد الخراب، أنت تريد أن نركع لك، أليس كذلك؟

ابتسمت ساخراً:

- من الجيد أنك ذكي بما فيه الكفاية، لكن ليس هذا ما أريده فقط، فالركوع أو عدمه محسوم.

سأل بدهشة:

- ماذا تريد إذا؟

أجبت بثقة:

- قلب الأرض القوطية.

قلت لها وأنا أضع الكأس جانباً. لو كان شخص غيري قد قالها، لكان لم يتردد ثانية، وقفز دراكولا نحوه، مزق جسده وأخرج قلبه، وقضى عليه...

...أوقح، وأجرأ، وأشجع مما توقعت. أخبرني، ما المميزات التي لديك، غير النباتات التي تقال عنك؟

- رد بنبرة ساخرة:

- أحتاج إلى سنوات لأحكي لك عن مميزاتي، لكن شيئاً واحداً يكفي: أنا «ملك الخوف والرعب».

- يا ملك الخوف، هل تعرف العقوبات واللعنات التي ستحل علينا جميعاً عندما تحصل على قلب هذه الأرض؟

- نعم، أعرف، لكن في حينه سأكون مؤهلاً لذلك، وسيكون الجميع تحت حمايتي.

ضحك ضحكة قوية حتى سعل، وقال بدهشة وسخرية:

- حمايتك؟ أنت من سيدمرنا، كيف ستحمينا؟

نهضت عن عرشه، وتقدمت نحوه، رغم أنه كان أطول وأضخم مني:

- لديك أسبوع واحد لتفكر فقط، وخلال نهاية الأسبوع، بعد انتهائي من طقوس «تحية الموتى»، سأعود إليك لأسمع قرارك.

تحولت ملامحه من سخرية إلى رعب وخوف، قال بتلعثم، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، تكسوهما الصدمة:

- هل... ط... تح...ية الموتى؟ هل ترغب في...؟

لم أجعله يكمل كلامه، قاطعته بثقة:

- نعم، بالضبط. بعد ذلك اليوم سيتغير كل شيء، وسنحطم الموازين والقوانين والأنظمة الممثلة. لذلك كن على استعداد يا سيد الموت، وحتى ذلك الوقت سأدخل هنا وأجرك أنت ومن معك منحنين لي.

ظل الرجل مصدوماً، غير مستوعب وغير مدرك لما قلته، ولم يتوقع ولو واحداً بالمئة المصيبة التي سأفعلها. خرجت وتركته في صدمته، ربما كان قادراً على قتلي هو ومن معه هنا، لكن لا أحد يجرؤ على هذا الفعل.

ستكون مملكة «الأساطير القوطية» تحت حكمي، وستصبح المملكة التاسعة لهذه الأرض، بعد أن أضمت مملكة «الأساطير الخيالية المظلمة». ليست صعبة، وليست أصعب من المملكة القوطية. توجهت بعد ذلك إلى قصر الضيافة، حيث أبقيت ماريان نائمة هناك.



الثالث والأربعون مملكة القوطية

«إلياس»

- لا أحد يعلم أن ديموس سيقوم بطقوس «تحية الموتى»، كيف عرفت ذلك؟
سأل الراهب «نولان» بصدمة وارتعاش، ما أدى إلى سقوط الكوب من يده. التقطه وهو ما زال يرتعش، واسترسل بتلعثم:
- أرجوك يا سمو الأمير، أخبرني بأن هذه كذبة أو مزحة منك! أقسم بأن الهلاك سيحل علينا.
أجبت بهدوء:
- للأسف، سيحدث ذلك إن لم نوقفه. نعم ديموس شقيقي، متجسد بوجه الخبث والفساد، صدقني، حتى
الشيطان تبرأ منه، ونعم، أنت محق، لا أحد يعلم، لا والدي عديم الفائدة، ولا إخوته، ولا أي فرد من عائلته، سيفعلها بشكل سري.
- ارتجف نولان وهو يرفع صوته بانفعال:
- هذا مرفوض ومحرم، يجب أن نرسل إلى المتنبئين والمجلس هذا الخبر!
تنهدت وقلت له:
- اهدأ، لن يصدقنا أحد، وسنحتاج إلى دليل. لكنني سأوقفه بطريقتي، ولن أسمح له بالنجاح.
قال وهو يلتقط أنفاسه:
- وكيف؟ أنت تعرف أنك لست نداءً له، يا بني، أخشى أن يؤذيك!

ابتسمت بهدوء وأكدت:

- لا تقلق، لن أكون وحيداً في ذلك اليوم. شخص مثل ديموس لا يموت إلا غدرًا، لذا سيكون الغدر عنواننا لتلك الليلة.

ارتجف نولان وقال بتردد:

- ومن قال إن ديموس يموت؟ إنه لا يموت، صدقني.

- سيصبح كذلك بعد أن يكمل طقس «تحية الموتى»، لكنني سأقتله قبل أن يكمله. لذلك، أعطني الخنجر الحجري.

صمت الكاهن بصدمة ورعب وحيرة، وقال بارتعاش:

- لا أستطيع! هل جننت؟ هل تريد مني أن أضع نفسي وأهلي في ساحة القصاص، أو في مدينة العذاب حيث يتجرعون الناس الموت؟ إذا مات الملك ديموس، سيقبضون علينا كنا! هل جننت؟ لا أريد أن أشارك في هذا الغدر، اعذرني يا سمو الأمير.

زفرت بملل، فركت رقبتني بيدي، واشتعلت عينايا احمراراً:

- فنيموس معه حق في شيء واحد.

التفت الكاهن نحوي بعد أن أدار لي ظهره، وانتفض جسده حين رأى هيئتي المستعدة لقتله، وقبل أن يستوعب الأمر، قلت بصوت عذب:

- أنتم حقاً لا تستحقون الاحترام. أنتم تخشون ديموس وفونيموس فقط، لكنكم لا ترونني شيئاً. حسناً، سأجعلكم تشاهدون بوضوح من يكون إلياس، الذي سيصبح ملك هذا العالم. أنا لست لقيطاً تافهاً، ولست هجيناً من دماء البشر، أنا أعمق من ذلك، سأكون كوابيسكم الأبدية.

صرخ الكاهن بعد أن أشعلت جسده ناراً، تلوى وتخبط في الهواء حتى سقط ميتاً، جسده متفحم. تقدمت والتقطت الخنجر الحجري، ذلك السكين الصغير الذي يتغذى بتعويدة الموت منذ زمن. إنه القادر على اختراق قلب شقيقي التافه قبل أن يتم طقوس «تحية الموتى» ويصبح شيئاً آخر. لن أسمح له أبداً، لن أسمح له.

« ماريان »

شهقت وفتحت فمي في ذهول، واتسعت عيناى باندهاش يفيض بالحماسة، حتى نسيت آلامى كلها وما كان يثقل صدري من كآبة وصعوبات. اندفعت نحو ويليام، فيما كنا لا نزال واقفين فى تلك المدينة الغارقة بالضباب والصمت:

- أتقصد أن وحش فرانكنشتاين، ودراكولا، وأوسكار وايلد، وأساطير لافكرافت، وغيرهم من الكائنات الملعونة يعيشون هنا؟! أتقصد أنهم حقيقيون فى هذا المكان؟

رمقنى بنظرة باردة من وراء قناعه، وقال ساخرًا:

- ولماذا كل هذا الافتتان؟ أليسوا مجرد وحوش، أم ترينهم أمراء من نوع آخر؟

- لا فرق بين الوحش والملك، كلاهما سيد للرب. لكنك لا تدري كم أنا مسحورة بهذه الكائنات وبالآدب القوطى. أشعر كأنى فى حلم متجسد. أخبرنى، هل بوسعى أن ألقاهم حقًا؟

- إنهم وحوش يا أميرة الفضول، وليسوا دى للهو. ولكن.. إذا كان شغفك بهم يصل إلى حد الهوس، فسأعرض عليك عرضاً قد يغير مصيرك: ما رأيك أن تمكثى هنا إلى الأبد؟

تقلص صدري برعشة مباغته، وتبخرت ابتسامتى كأنها لم تكن، فصحت بانفعال:

- كلا! بالطبع دعنى أراهم وحسب!

ابتعد وهو يواصل السير وسط الضباب الكثيف، وقال مكرراً عبارتى بنفس النبرة:

- كلا، بالطبع.

أسرعت بخطواتى خلفه؛ خشية أن أضل الطريق فيبتلعنى هذا الصخب الأبدي. سألته بصوت يختلط بالارتباك:

- أخبرنى، لماذا عدت لتضع القناع أمامى؟ لقد رأيت وجهك بالفعل. ما الذى يجعلك أسيرًا لهذه الأقنعة؟

أجاب دون أن يلتفت:

- وأنت، ما دمت مهووسة بتلك الشخصيات الأدبية الكلاسيكية، فلماذا لم تنشئى هوسًا بى أنا؟

تجمدت قدمائى فى مكاني، كما تجمد هو بدوره، والتفت نحوى، فقلت متلعثمة وأنا أحاول صرف بصري عنه:

- وهل أنت شخصية أدبية منسية؟ لم أجذك يومًا فى أى كتاب، ولا فى أى رواية.

- الآن فقط أدركت ما يميزني أنا وعائلي، نحن لم نولد من الحبر والورق، نحن كائنات من جوهر آخر، مختلفون تمامًا عن كل ما كتب وما سيكتب.

- إذن، من أين جئتم؟

- ليس الآن.. ستعرفين كل شيء إن قبلت عرضي.

تسمرت في مكاني، وعيناى تتسعان:

- أي عرض تقصد؟

اقترب منى خطوة بخطوة، ثم خلع قناعه، فكشفت عيناى وجهه للمرة الثانية منذ عرفته. أحسست أن الأرض قد انشفت من تحتي، وأن معدتي تنقبض كحفرة معتمة، فيما آلاف الفراشات ترتجف في صدري وتصعد حتى جمجمتي. قلت في نفسي باضطراب: تماسكي يا ماريان، هذا عدوك، العدو الوحيد الذي يهدد عائلتك بالهلاك. كان خوفي الأكبر أن يكشف ويليام أنه لم يعد قادرًا على قراءة أفكارى، لذا علي أن أملأ الفراغ بيننا بالثرثرة، أن لا أترك للصمت مكانًا.

قلت بسرعة:

- ويليام، أنا لا أفهم ما الذي تريده بالضبط.. حدد لي بوضوح.

ابتسم وكانت تلك أول مرة أراه يبتسم بلا قناع. كانت ابتسامه مريبة، شريرة حد الفتنة، جميلة حد الخراب، أربكت توازني أكثر. قال أخيرًا:

- حسنًا، سأكشف عرضي: أريدك أن تبقي معي هنا، إلى الأبد. لن تكوني بيننا مجرد ظل عديم النفع، بل شيئًا أعظم بكثير.

ارتجفت وسألته بصوت متوجس:

- وإذا رفضت؟

هز كتفيه بلا مبالاة، وزم شفثيه كأن الأمر تافه، وقال ببرود:

- حينها ستعودين أسيرة، محبوسة في قبور رطب تحت ضوء شمعة يتيمة، وأمامك آلة كاتبة لا ترحم. ستكتبين حتى تنزف يداك الناعمتان، وتركضين حتى تتحطم قدماك مرارًا وتكرارًا.

اندفعت بسؤال آخر لا أدري من أين خرج، ربما خوفًا من صمتي وخطتي الساذجة مع إلياس:

- وإذا هربت.. ماذا ستفعل؟

ضحك، ضحكة ساخرة، لكنها جميلة بشكل آثم، ثم قال:

- ما بالك يا ماريان؟! كنت أظن أن فكرة الهرب هذه دفنتها منذ زمن بعيد. لكن حسنًا.. إن أردتِ الجواب فأليك هو: أولاً، سأعثر عليك مهما اختبأتِ، وسأقتل عائلتك بأبشع الطرق. ثانيًا، سأطاردك إلى الأبد، نعم، ذلك الأبد الذي لا يعرف نهاية. وإن ضجرت منك، فسأقتلك ببساطة.

اقترب أكثر، ثم همس بعيون تتوهج كأنها جمر:

- هل تعلمين ماذا قال ذلك الكاتب المجنون «إدغار آلان بو»؟ قال ذات مرة: «موت امرأة جميلة هو بلا شك أكثر موضوع شاعرية في الوجود»، وهذه المقولة، يا ماريان، أهديتها إليك. إن قتلتك فسأكون سعيدًا للغاية، وإن عشتِ معي هذا إلى الأبد فسأكون سعيدًا كذلك. في كلتا الحالتين ميتة أو حية، المهم أن تبقي أمامي: هنا إلى الأبد.

تجمعت دموع اليأس في عينيّ، وسألت بصوت مرتجف:

- وم... ما ذنبي أنا؟

ابتسم ابتسامة غامضة وقال بثقة لا تعرف التردد:

- لا يهم.. ستكونين سعيدة هنا، بهذا العرض الذي سأقدمه لك الآن. صدقيني، إن رفضته، فلن تجدي سوى بؤس أشد وطأة في ذلك القبو المظلم.

تنفستُ بصوت متهالك، واستسلمتُ لسؤالِي:

- وما هذا العرض؟

اقترب مني حتى كاد يلتصق بي، قبض على يدي بكلتا يديه، ثم تحدث بصوت يملؤه جلال مخيف:

- عبر الضباب الأسود، تحت سماء بلا نجوم، وقفتُ أنا، ونظرتي تتوهج كجمر تحت عباءة الليل. خلفي امتدت أرض لم تطأها قدم، أرض ليست ترابًا وحجارة فحسب، بل إبداع حي، حُط بمداد الظلام ذاته. كانت هذه مملكتي التاسعة.. المملكة القوطية، تلك التي نفاها الجميع، وارتجف أمامها الجميع، لأنها أرض حرة؛ أرض فاسدة وسوداء.

سكت لثوان، وفي ذلك الصمت شعرتُ بأنفاس الأرض من تحتي تهمس إليّ، كأن للتربة ذاكرة تسرد حكايات لم تُكتب بعد، والأشجار اليابسة حروف تنتظر قلماً يكمل سطورها، والهواء مشبع بروح الأدب القديم الفاسد.

رفع ويليام عينيه إليّ، وصوته يتماوج بين الفخر والنبوءة، بينما قلبي يخفق كطبول حرب:

ه.. سأبني عرشاً لا مثيل لك. هنا ستولد المملكة التاسعة، حيث الحياة والموت يزوبان في كيان واحد، حيث الأدب ليس مجرد كلمات تُقرأ، بل عوالم تُعاش.

ترك يدي اليسرى، ووضع يده الأخرى على وجهي، يتلمس بشرتي برفق يثير الرعب. أصابعه انزلت بخفة من وجنتي إلى صدغي، وعيناه تتقدان بلهيب لا تفسير له: - وأنت، يا ماريان.. ستكونين ملكتها.

ارتعشت شفتاي همساً: - أنا؟.. ملكة لمملكة لم تولد بعد؟

ضحك، ليس بسخرية، بل بضحكة رجل يعلم أن العالم يخضع لإرادته: - الممالك العظيمة هنا لا تُبنى بالسيوف، بل بالحبر، بالخوف، بالجمال القاتم. وأنت، ماريان، تملكين كل هذا.

ثم أشار بيده إلى الأفق، حيث تشكلت أبراج قوطية من العدم، الأرض أطاعت أمره، الممالك لا تحتاج إلا إلى فكرة، وكاتب يجرؤ على جعلها وجوداً.

- اكتبني، احلمي، وهذه المملكة ستنحني لك. ستكونين ملكة الأدب الملعون، سيدة الحكايات التي لا تموت، وستكتب أسطورتك هنا.. لا كوردة تذبل، بل كلعنة خالدة.

ارتجفت روحي تحت السماء الحالكة، بينما تحت قدمي أحسست بشيء يشبه المجد يتخلل عروقي. «أنا ملكة؟» في عالم ليس لي، عالم لا أنتمي إليه؟! احتجت صفعاً لأستيقظ من هذا الوهم. صرخت:

- كيف ذلك يا ويليام؟! أتبقيني هنا وحدي بين هذه الوحوش؟! أسيقلون بشرية ضعيفة كملكة عليهم؟! هل فقدت عقلك؟

ضحك مبتعداً بضع خطوات، يبدو أنه يسخر من خوفي:

- أتخشين من الأساطير التي طالما همت بها عشقاً؟ لن تكوني وحدك، فأنا معك. ثم إنهم جميعاً ولدوا من الحبر والورق، من أقلام مؤلفين مثلك؛ ولهذا سيرون فيك ملكة وعظمة لا تلمس. لن يجرؤ أحد على مسك أو إيذائك. أما الامتياز الأكبر.. فهو أن من نصبك ملكة هو جلالته الملك ديموس نفسه، وهذا سبب يكفي لإخضاع كل كائن، مهما كان.

سألته بسخرية يائسة:

- وهل ستعفيني من الركض حين أصبح ملكة؟

ابتسم ابتسامة خبيثة، وعاد إليّ، ثم قبض على معصمي بقوة وسحبني لنمضي معاً وسط الضباب. قال ببرود يقطر متعة:

- لا أبداً.. تلك هي وظيفتي المفضلة.

توقف فجأة، جذبني نحوه بعنف، وانحنى ليهمس في أذني:

- يؤسفني أن أخبرك، بأنك ستظلين تركضين دائماً. وأنا.. سأكون مطاردك الأبدي.

ثم غمز بعينه في سخرية مراوغة، وللمرة الأولى لاحظت غمازة في خده الأيسر. عندها انهار عالمي كله، كأن ابتسامة صغيرة كانت كافية لهدم حصون عقلي. سرحت صامتة في الأفق بعيد. عاجزة عن لفظ كلمة واحدة.

قطع صمتي وهو يقول بلهجة آمرة:

- الآن.. علينا أن نعود إلى العاصمة. الجميع ينتظرونك هناك، يا ملكة الفضول.

لكن صوته لم يوقظني من انهيار. كنت أعلم أنني لن أخرج من هذا السجن أبداً. لقد انتهى أمري بالفعل. أنا واقعة في حب هذا الشيطان، رسمياً وبلا عودة. فهنئاً لقلبي هذه الكارثة، وعزائي الوحيد لعقلي الممزق.



الرابع والأربعون مملكة الساحرات

عدت من جديد على ظهر هذا الوحش، أشعر أن أحشائي تتقطع حتى تصل إلى حلقي، والهواء يلفح وجهي لدرجة شعرت فيها أن بشرتي تتشقق كأرض جفت.

فجأة، سمعت أصواتاً مرعبة قادمة من ضباب السحاب. بدأ الرعب يدب في قلبي، بينما كان ويليام ثابتاً جامداً. لا أعلم ما الذي يجري، لكنني تشبثت بكل ما لدي، وأحطت بيدي خصر ويليام، وأنا متأكدة أنني كدت أقطع الهواء عن رتتيه، ومع ذلك لم يعترض.

خرجت من قلب الضباب مخلوقات طائرة، وحوش ليست كأى مخلوق الذي نمطيه. بدت أكثر تشوهاً، تشبه الغربان السوداء، لكنها أضخم وأكثر بشاعة! وكان يمتطيها فرسان يبدون وكأنهم قادمون من الجحيم:

- ويليام!

- صرخت بهلع، وقد سكن الخوف أعماق روحي:

- أراهم بالفعل.. تمسكي جيداً فقط.

رد ببرود، وكأنه معتاد على هذه المطارادات الجوية. أما أنا، فلست معتادة لا على المطارادات الجوية ولا الأرض.

استمر ويليام في الإسراع أكثر فأكثر. لم يكونوا نداءً لسرعة وحشه، لكن المشكلة كانت في عددهم؛ فقد كانوا بأعداد هائلة لدرجة امتلأت بها السماء. ورغم أن مخلوقاتهم الطائرة كانت أصغر بكثير من حجم وحش ويليام، فإنهم اقتربوا منه كثيراً وبدأوا بخدش جسده. تأثر الوحش بهجماتهم، ورغم أنه أطاح بعدد لا بأس به منهم، فإنهم كانوا كالنمل الذي يتجمهر على حبة سكر.

مال وحش ويليام بشدة، حتى ظننت أننا سننقلب، وانقبت أحشائي معه. دعوت في داخلي أن أستيقظ من هذا الكابوس، أو أن أسقط فتتحطم عظامي وأرتاح.. لكن ذلك لم يحدث؛ لأنني كنت

متمسكة بكل قوتي بويليام، حتى إنني غرست أظافري في جسده. غريزة البقاء هي ما كانت تحافظ على حياتي دائماً.

- تمسكي، سنهبط.

قال ويليام هذه الكلمات بصوت سمعته كأنه قادم من ضباب. هبطنا بسرعة هائلة، واصطدمنا بالأشجار العملاقة. عندها أدركت

صعوبة مهمة. وصلنا إلى أرضها وأنا ألهث، ألاحق أنفاسي التي حرمت من السماء.

سكن الهدوء لبضع دقائق، ويبدو أنهم أضاعوا أثرنا. أدركت بعدها، عندما صفت رؤيتي ونظرت حولي.. ويا له من منظر! لم تكن في أرض عادية؛ كان الضباب يحيط بالأشجار الشاهقة التي صعب رؤية نهاياتها، وحتى النباتات والأعشاب تحت قدمي كانت تلمع حولنا، وكان المكان بارداً جداً.

- هل أنت بخير؟

- سألني بهدوء، بينما كنت ألتقط أنفاسي:

- من هؤلاء؟

- لا شيء، إنهم بعض القلائل الذين يرغبون في اغتياي. لهذا لا أسير بالأسود؛ فغالبية الشعب لا يعرفونني، لكنهم يعرفون هذا المخلوق القبيح. كنت أظن أنني محبوب!

- قالها بسخرية. فضحكت على مضض:

- بالتأكيد أنت محبوب، وهذا استقبال الشعب لك، لا تقلق. والآن أخبرني، هل سنبقى في هذه الغابة أم ماذا؟

- لماذا؟ هل أنت خائفة؟

- خائفة؟ لقد كدت أموت مرتين، بل عشر مرات.

- لن تموتي وأنت معي. على أي حال، سيختفي «الأسود» الآن، من الأفضل أن يتوارى عن الأنظار حتى لا يتبعنا أحد. سنمشي عبر هذا الطريق.

ضممتُ نفسي بذراعيّ، وأتأمل الغابة المخيفة:

- وهل تعرف كيفية الخروج منها؟

هزّ كتفيه بلا مبالاة، ثم تقدّم نحوي وأمسك بيدي:

- سنعرف الآن سوياً. اعتبرها مغامرة صغيرة، هل ترغبين بذلك؟

- مغامرة؟ أكثر من المغامرات التي خضتها؟ حسناً، أيا يكن.

سرنا عبر طريقٍ شجريّ ضبابي. كانت هناك أصوات تنبعث من الغابة، أصوات مجهولة مقلقة، لا أعرف إن كانت حيوانات أم طيورًا! كان ويليام يلتزم الصمت، وهذا غريب. أعلم أن هذه الغابة ليست آمنة، لكنه لا يريد إخافتي، ولا يريدني أن أطرح مئة سؤال في الدقيقة.. لكنني كسرت الصمت:

- ما هو «مصنع العقول»؟

توقف عن السير والتفت نحوي بملل، وضاحت عيناه:

- وأين سمعتِ عنه؟

- هناك فتاة بشرية، إنها مؤلفة. بالطبع، لقد التقيتها في ذلك السجن. الجميع عاملوها بطريقة وحشية، لكنها لا تزال على قيد الحياة. ولو أخبرتك باسمها فلن تتذكرها، لذلك هذا ليس مهمًا. المهم أنني أريدك أن تخرجها من هناك.

عمّ الصمت لثوانٍ، وكنت أعلم أنه سيسخر مني بعدها.. وبالفعل:

- أمرك، أي أوامر أخرى يا جلالة الملكة؟ سأكون تحت خدمتك.

سرنا لبرهة، حتى سمعنا صوتًا مريبًا قادمًا من الأرجاء. تراجعنا للخلف، وأخرج سيفه. كانت هناك خطوات تتقدّم نحونا من كل اتجاه! شددت قبضتي بقوة على رداء ويليام، وخفق قلبي، ثم أخيرًا ظهر من بين الأشجار.. نساء!

كنّ يرتدين ملابس غريبة، وشعورهن طويلة تتراوح ألوانها بين الأصفر والبنفسجي. لم تكن أشكالهن مرعبة ولا غريبة، بل كنّ من أجمل النساء اللاتي قد تراهن عيني. اختلفت ألوان بشرتهن؛ فممنهن من كانت بيضاء شاحبة، وممنهن ذات بياض طبيعي، وأخريات بسمرة الكراميل واللون البرونزي. كنّ يشبهننا إلى حدّ كبير، لكن الشيء اللافت كان أعينهن؛ كانت زجاجية اللون، ولا تمتلك ذلك مجرد اللمعان، بل كأنها بلورات كروية شفافة تظهر فيها ألوان متعددة.

وجوههن طويلة، وملامحهن فاتنة حدّ الهلاك. كنّ يرتدين شيئًا يشبه التنانير من الأسفل، ومن الأعلى أقمشة ملوّنة تلتف حولهن، ويضعن زينة حول أعينهن تشبه الألماس الملون. على رؤوسهن أطواق تشبه أطواق الورد، لكنها كانت محشوة بأشياء غريبة؛ أعواد صغيرة، ونباتات خضراء، وأشياء أخرى بدت كالعظام!

كانت جميع النساء يرتدين أطواقًا صغيرة.. إلا واحدة. وقفت في المنتصف، وترتدي طوقًا أشبه بالتاج، محمّلًا بجماجم وريش أسود كبير. كانت عيناها بيضاوين تمامًا، وشعرها أسود كسواد الليل. كان واضحًا أنها قائدتهن.

حاصرنا من جميع الاتجاهات، وكان عددهن كبيرًا نوعًا ما. كانت تفوح منهن رائحة غريبة.. لكنها جميلة. خرجت القائدة عن صمتها أخيرًا، بصوت بدأ كصوت أفعى:

- هل تعلم أن كل رجل تطأ قدماه أرضنا يُقتل؟

وجّهت كلامها إلى ويليام، الذي لا يزال يرفع سيفه في وجوههن. تمتت بسخرية من خلفه:

- الحمد لله أنني لست رجلاً.

أنزل ويليام سيفه وأعادته إلى مكانه:

- إذا أنا في مملكة «الساحرات».

ابتسمت الساحرة، وفي مشهد مهيب انحنت، وانحنت خلفها جميع فتياتها.

- كيف عرفت أنني الملك؟

- لا يغيب الملوك عن عروشهم إلا ملك واحد.. وهو أنت.

- كان لدي أمرٌ عاجل، لذلك أنهيته بسرعة.

- قالها وهو ينظر إليّ.

ضحكت الساحرة بخفة، وفتحت ممرًا ضيقًا وهي تشير إلينا:

- سيكون من دواعي فخرنا أن نستقبل جلالتك اليوم في مملكتنا.

سار ويليام، فتبعته بصمت. وبينما كنا نعبّر ذلك الممر المزدحم بالفتيات، بدأن يلمسن ويليام بطريقة غريبة، كأنهن يمسحن عنه أثرًا ما بسعادة. همست في أذنه:

- لماذا يفعلن ذلك؟

- هل تشعرين بالغيرة؟

- بل أشعر بالغرابة!

إنه نوع من الاحترام لملكهن، كما هو واضح. وأنا أيضًا لا أحب اللمس.. لا أحب أن يلمسني أحد، لكن ليس لدي خيار آخر. يجب أن أمثل دور الملك اللطيف، وهذا مستحيل.

وصلنا إلى مكان يشبه مدينة ضبابية؛ أشجار غريبة، ومنازل غريبة.. ليست من خشب ولا حجر، بل - مهلاً، هل...؟

- إنها جثث تعود إلى رجال.

قالها ويليام بابتسامة، وكأن الأمر لا يحمل شيئًا غريبًا أو مرعبًا.

تسارعت نبضات قلبي مجددًا من هول المشهد؛ كانت المنازل مبنية من أشلاء جثث، محتّطة بالطبع، لكن نظراتهم المتألّمة لا تزال حاضرة، وأفواههم المفتوحة توحى بأن صرخاتهم ما زالت تُسمع.

تشبّثتُ بكتف ويليام، وشعرتُ بالغثيان. بدا الضباب الذي يحيط بالمدينة وكأنه يزداد كثافة في عينيّ، وبدأ سمعي يتشوّش، بينما كانت تلك المرأة تخاطب ويليام:

- إذاً هذه هي الفتاة البشرية التي يتحدث عنها الجميع في المملكة. يا جلالة الملك، يمكنك أن تُبقيها هنا.. ستكون أكثر أمانًا.

ازداد شعوري بالاختناق، لكنني لم أستطع الرد. كان جسدي منهكًا بسبب كل ما مررت به. وقبل أن أسقط بين ذراعي ويليام، همست: لن أبقى هنا.. ولا أظن أنه سيفعل.



الفصل الخامس والأربعون السيف اخترق القلب

مع كل ما مررتُ به من صدماتٍ متلاحقة؛ بعد حكاية ماما البائسة، وأبي، وأخي إلياس، وماريانا، وويليام وعالمه... أدركتُ أنّ كلَّ ذلك لم يكن مصادفة، بل خيط قدر ممتد لمساري منذ البداية. حين درست الأدب، وحين أمسكت القلم لأول مرة، وحين قررت أن أصبح كاتبة.. كنتُ أجهل السبب. واليوم فقط فهمتُ لماذا غضب أبي إلى حد الجنون.

لو عشت حياتي كما ريان، ولو بقيت ماريانا على قيد الحياة، لكان قدري مختلفاً؛ لكنتُ الآن أوقع ألبوماً غنائياً، لا كتاباً. كما قال ويليام، كنت سأغدو مغنية، لا كاتبة. لكن كلَّ شيء تبدل منذ اللحظة التي أدخلت فيها ماما سارة الوحوش إلى حياتنا، ومعها اجتاحتنا الشياطين والكوابيس والجنون.

ومع ذلك، ورغم الانهيارات كلها، لم أكره الكتابة، ولن أكرهها أبداً. لو عاد بي الزمن إلى الوراء، لاخترت أن أكون كاتبة، لا مغنية تافهة. الكتابة هي لعنتي وخلصي، وهي السبيل الوحيد الذي يقودني نحو ويليام. نعم، ويليام الذي لم يعد يفصلني عنه سوى يومين فقط، يومين للقرار الفاصل: قتله.

رأسي يكاد ينفجر من شدة التفكير، وقلبي يتمزق من وطأة الخوف والحيرة. هل سنزج أنا وإلياس، أم ستبوء الخطة بالفشل؟ ماذا لو فشلنا، وذبح ويليام أبي وإلياس وأمي الأخرى؟ ماذا لو قُتل ولم أفلح أنا في الفرار؟ سيكون مصيري حينها أشبه بمصير تلك المسكينة التي سبقتني: يُعذبونني، ويبيعونني في السوق السوداء للمؤلفين، ولن يكون هناك ويليام ليخلصني، بل سأكون مجرد غنيمة تُنهش.

لم أعد قادرة على التفكير. أنفاسي تضيق يوماً بعد يوم، والتوتر يخنقني كحبل يلتف حول عنقي. لقد عدنا من المملكة القوطية قبل ثلاثة أيام، ولم يتبقَّ سوى يومين على تنفيذ الخطة. إلياس لم يكذب؛ لم أر ويليام منذ عودتنا، فهو غارق في الاجتماعات والجلسات، يمارس دور الملك، لكني

على يقين بأنه يشعر بالملل، فذلك ليس ما يريده. وربما، قريباً، سيثر سخطه على كل روح في هذا المكان.

هذه الأيام الأخيرة، وأرجو الله أن تكون الأخيرة بالفعل التي أقضيها هنا، ومع ذلك، هناك في قلبي نقطة خفية لا تريد لهذه النهاية أن تأتي. لم أفعل الكثير سوى كتابة هذه المذكرات، أفكر:

ماذا آخذ معي إن هربت؟ لا وقت للأشياء المهم أن أحمل ما في قلبي أحمله.

ولقد استيقظت عندما فتحت عيني ووجدتني في غرفتي، وعلاقة ويليام، كانت زيارتنا لمملكة الساحرات مثل الحلم سر السريع. لا أعرف كيف عدنا إلى هنا ولا أعرف متى؟!

كنت أتحدث كثيرًا مع سمارا، فسألته يومًا عن طقس تحية سمر. وما إن نطقتُ بالاسم حتى ارتجفت، وانتفض كل شبر من جسدها، وتجهم وجهها غضبًا؛ كانت تلك أول مرة أراها غاضبةً مئي. سألتني بعينين متسعيتين:

- من أين سمعتِ بهذا؟

تحسست وأجبتها بأنني التقطتُ الكلمة في ذلك السجن. فأطرقت برأسها وقالت بصوت خافتٍ قاطع:

- يجب ألا يسمعك أحد تتحدثين عن هذا الطقس، فهو محرّم وممنوع.

خرجتُ من حديثي معها باستنتاج واحد: ويليام مقبلٌ على تجربة كارثة خبيثة، لن يستطيع أحدٌ أن يوقفها بعدها.

وجاء الثلاثاء. وغدًا الأربعاء، اليوم الذي انتظرته لعام وأربعة أشهر كاملة، نعم.. بقيت مع ويليام طوال عام وأربعة أشهر، وسأظل ممتنة لنفسي لأنني صمدتُ وما زلتُ على قيد الحياة، على الأقل حتى هذا اليوم.

دخلت سمارا عليّ لتأخذ صينية الطعام بعدما انتهيت:

- أرى أنك لم تأكلي كثيرًا!

قالت باستغراب:

- لا بأس.. لستُ جائعة.

بالطبع لم أكن جائعة؛ أمعاء معدتي كانت منكمشة من شدة الخوف والتوتر.

- حسنا، سأذهب الآن.

لكنها لم تكمل جملتها حتى دوى صوت الحارس من الخارج:

- جلاله الملك ديموس!

انتفض جسدي كمن باغته بردُ جارف، حاولتُ أن أخفي ارتعاش أطرافي، لكنني فشلت، ودخل ويليام؛ وكان يرتدي قناعًا ذهبيًا هذه المرّة. انحنت سمارا مرحبة به، وهي تحمل الصينية بين يديها:

- مرحبًا بك يا عزيزي.. كيف تمر أيامك كملك؟

- بأسة.

أجاب بحدة متذمّرة، فضحكت سمارا بخفة.

أما أنا، فكنتُ أودُّ أن أقطع حدة التوتر التي خنقت الجوّ بيننا، لم أعلم هل أنا وحدي أشعر بها، أم هو أيضًا؟ لا، لا أظنّه يشعر؛ فهو بلا قلب، بلا مشاعر. كل ما يريده أن يتسلّى بي كدمية، أن يفرغ غضبه بي لأنه لم يشبع انتقامه من سارة.

رمى فجأة، كمن يلقي حجرًا في ماءٍ راكد:

- هل تعرفين لماذا ملككم يستمرُّ في ارتداء الأقنعة؟

فوجئت سمارا بسؤالِي، فقد داهمتها به على حين غرة. كنتُ أعرفُ أنها لن تمنحني الإجابة الحقيقية من دون إذنه؛ لكنني أردتُ أن أشغل عقلي عن التفكير في الكارثة القادمة. ماذا لو يُكشف مفعول الدواء؟ ماذا لو تهاوت خطي أمامه؟

نظرت سمارا إلى ويليام بابتسامة متردّدة، ثم سألته:

- هل أخبرها؟

تقدّم بضع خطوات حتى وقف بيني وبين سمارا، ويدها في جيوب بنطاله القطني الأسود. كان هو الوحيد تقريبًا الذي يرتدي ثيابًا تشبه ثيابنا نحن البشر، ولعلّ السبب أنّه عاشرنا طويلًا، وعاصر عالمنا أكثر من غيره. قال ساخرًا، وعيناه تخترقاني بنظرة حادة:

- أخبريها.. دعي فضولها يرتو.

قالها وكأنّه يستمتع بتمزيق أعصابي. التفتت سمارا نحوه للحظة، ثم عادت إليّ قائلة:

- حسنا، ذلك لأنّ ديموس، منذ ولادته، يملك ثلاثة وجوه!

ارتجف قلبي بعنف. تذكّرت كلماته القديمة حين ذكر ذلك عرضًا، وظننته يمزح لكن الآن؟ لا.. بدا الأمر أكثر من مجرد مزحة؛ ثلاثة وجوه؟ وأنا أملك وجهًا واحدًا بالكاد أحتمله! شعرت أنّ عالمي يتداعى. تمتمت مذهولة:

- ثلاثة وجوه؟ كيف ذلك؟ هل يتغيّر وجهه؟

تبادلت سمارا النظرات مع ملكها، ثم همست بصوتٍ منخفضٍ ممتلئٍ غموضًا:

- وجه وسيم.. وآخر عادي.. ووجه ثالث...!

توقفت فجأة، وساد الغرفة صمت ثقيل، صمت يكاد يسمع فيه خفقان قلبي، ثم أتمت ببطء وكأنها تنطق لعنة:

- وجه لا يستطيع أحد النظر إليه، ومن تجرأ على رؤيته، يموت فورًا.

تجمدت في مكاني. ارتسمت على وجهي علامات الصدمة، والرعب، والذهول. جلستُ بينهما كغريبةٍ محاصرة؛ لا أملك إلا الصمت الذي صار أثقل من الهواء.

وفجأة.. انفجرا معًا بالضحك! ضحك ساخر يجلدني كالسياط.

- أمزح معك فقط!

قالتها سمارا وهي تلتقط أنفاسها بعد ضحكتها؛ ثم أضافت وهي تمضي نحو الباب:

- لا شك في أن ديموس غريب الأطوار.. ولعلّ هذه إحدى هواياته المفضلة.

لكنني لم أقتنع. لم تكن كاذبة؛ سمارا لا تجيد الكذب ولا السخرية. في أعماقي كنت واثقة أن ما نطقت به ليس مزحة، وأن وراء الأقنعة التي يخبئها ويлияم أسرارًا أفتع ممّا أنتصوّر.

- هذا ليس مضحكًا أبدًا.

قلت ذلك له وأنا أجمع شعري لأربطه. لكنه أمسك بمعصمي بقوة، ومنعني من رفع يدي. انتزع الربطة من شعري وألقاها بعيدًا.

ماذا تفعل؟

سألته بنبرة عصبية، أحاول أن أتجنب النظر إليه مباشرة، خائفة من أفكاره، وأخرى خائفة من أن أضعف، يجب ألا أضعف، يجب أن أعاد، يجب أن أعود إلى أبي وأمي قبل أن يموتا وهما يبحثان عني.

- لا شيء، لقد أخبرتك سابقًا بأن هذا أفضل. هيا اتبعيني، سأريك شيئًا ربما يروي فضولك قليلًا.

قالها وهو يسبقني نحو الباب، بينما أنا ما زلت جالسة على السرير. التفت نحوي وهو يفتح الباب:

- هل من الضروري أن أمسك بك من معصمك؟

أيقظتني كلماته من سباتي، وأخذت أفكر كيف أتهرب وأنا معه. غدًا تنفيذ الخطة.. لماذا ترك كل أيام الأسبوع واختار هذا اليوم ليكون معي؟

- لا.. ليس ضروريًا أنا قادمة، لكنني دائمًا أشعر بالخوف والقلق من أي مشوار معك.

قال وهو يهم بالخروج:

- تشعرين بالخوف وأنتِ معي؟

ضحكت بسخرية وأنا أتبعه:

- لكن يبدو أنك نسيت.. أنت سبب خوفي، أليس كذلك يا سيد الرعب؟

توجهنا عبر المصعد السحابي، وصعدنا إلى الأعلى. لم أدرِ أي طابق هذا، لكنه كان عاليًا بشكل مخيف، حتى شعرت بالدوار والغثيان. وأخيرًا انفتح باب المصعد، وظهر أمامي، ليس مجرد طابق عادي، بل عالم كامل من عوالم القصر الغريبة.

ترجل ويليام بصمت، وتبعته وأنا أنظر يمينًا ويسارًا. كان المكان أشبه بشيء خرج من جحيم جميل! قبة ضخمة تتسع للعيون، وفجوة في السقف بدت وكأنها ستبتلعني لو أطلت النظر إليها. الجدران ضخمة وطويلة، مزينة برسومات غريبة ومهيبة، وكتابات بلغة غير مفهومة، كأنها تاريخ المملكة بأكمله.

قال ويليام وهو يخلع قناعه:

- مرحبًا بك في «تاريخ الممالك الثماني لمملكة الخوف»، هنا كل شيء مكتوب وموثق؛ معارك، لحظات، أحداث، كل شيء موجود هنا بشكل مرئي.

فتحت فيمى بدهشة، كانت إحدى الرسومات تظهر ويليام على حصان غريب، مماثل لتلك الخيول التي رأيتها في ساحة الإعدام، يمزق بسيفه الضخم بعض المخلوقات. ورُسمت مشاهد أخرى تجمعته مع شقيقه ووالده وأشخاص لا أعرفهم، ربما عائلته بالطبع. هناك الكثير من المعارك المرسومة: دماء، رؤوس تتطاير، تمزق مخلوقات عدة.. شيء لم أستطع حصره في يوم واحد منه.

- من فعله هذا؟

سألت باندهاش وعيناى لا تزالان شاخصتين نحو الجدران.

تنهد ووقف بجانبى، وقال:

- المكان نفسه، هذا المتحف هو عارض حياتنا، مصور ورسام لكل الأحداث. هو يكتب التاريخ بدون أن يكذب في نقطة واحدة، هذا التاريخ بأكمله، وما زال مستمرًا. هناك أحداث لم تُكتب بعد، ومعارك كثيرة وإنجازات أكثر، وستكون كلها على يدي.

نظرت إليه بريبة وسألته بشكل مفاجئ:

- هل إلياس أحد أعدائك؟

استغرب من السؤال، قطب حاجبيه ونظر إليّ، ثم انفجر ضاحكًا بسخرية لاذعة:

- إلياس؟ ذلك الطفل المنبوذ! كيف لمثله أن يكون عدوي؟ نحن حتى لا نعتبره شيئًا في هذا العالم.

- لا تستطيع نكران ذلك.. إنه شقيقك.

قلت بغصّة، بينما نظر إليّ.

- هل هذا لأنك قابلتيه مرة واحدة، فشعرتِ بمشاعر الأخوة بينكما؟ أوه يا ماريان، أنتِ حقًا فتاة لطيفة.. ذلك المدعو

إلياس هو وحش مثلي ومثل فوبوس، لا فرق، الفرق الوحيد أنه من دماء بشرية ضعيفة. لكن هل رأيتِ هناك الآن صلة قرابة بيننا؟ إلياس شقيقي، وشقيقك.. هذا جيد. لكن يؤسفني أن أخبرك أنه سيموت قريبًا، عندما أكون متفرغًا له.

استدار واتجه إلى الجهة الأخرى، وضغط على حجر فظهر باب كان يتظاهر بأنه حائط مغطى بالرسومات. دخل وأشار إليّ أن أتبعه.

تبعته بصمت حتى وصلنا إلى قاعة تختلف كليًا عن المتحف.

كانت مضيئة جدًا؛ وهذه أول مرة أصادف فيها مكانًا مضيئًا بهذا الشكل في هذا القصر. السقف تتدلى منه بلورات زجاجية كأنها ثلج، والأرضية الجليدية تشبه الثلج، لكنها ليست كذلك.. المكان كان جميلًا بشكل ساحر. في المنتصف، طاولة طعام جليدية، وقد وُضع عليها بعض الطعام الراقي، شموع، وكؤوس من المشروب الأحمر. وفي الزاوية بيانو جليدي أيضًا.

سألت بدهشة وانبهار:

- ويليام.. ما هذا المكان؟

لم يجبني، وتوجه إلى زاوية من الغرفة وأحضر آلة كتابة! شعرت بالإحباط والخوف، لم أر هذا المجسم منذ فترة طويلة. كنتُ كاتبّة، لكني الآن أصبحت أخاف من الآلة. وضعها ويليام على الطاولة التي وُضع عليها الطعام، ثم سحب الكرسي وأشار إليّ بالجلوس. جلست متنهدة، وأخذت أتنهد بتمذر، بينما سحب الكرسي المقابل وجلس عليه. أخرج سيجارة وأشعلها، وانبعث من فمه دخان كثيف.

- هل هي طقوس كتابة جديدة؟ هل المكتبة تمر بإصلاحات؟

رد وعينيه على الدخان ببطء:

- ليس كذلك، هذا المكان هو الذي كتبت فيه سارة آخر قصة لها لوالدي.

جمدت كلماته، وتوقف الدم في عروقي. شعرت بأن يدي صارت باردة كالثلج، ووجنتي ساخنة كالجمر. ابتلعت ريقى بصعوبة، وتلعثمت قائلة:

- م.. ماذا تقصد؟

- أقصد أن ذلك العجوز تصرف بشكل بائس في تلك الليلة، وسمعتة يقول إن أكثر قصة مميزة ومختلفة كتبها سارة كانت هنا.

أصبحت رؤيتي ضبابية، بينما استمر ويليام يحدق بي بثقب عينيه. وكأن نظرة واحدة اخترقت جسدي كله حتى وصلت إلى روحي. كانت ملامحه جامدة، لا أستطيع تفسير ما يفكر فيه. هل كشف أمري؟ هل يشير إلى آخر قصة؟ هل سيقتلني؟ هل.. ماذا أفعل؟ وماذا سأقول؟ خرجت الكلمات بصعوبة من فمي:

- هل تريد مني أن أكتب؟

- بالطبع.

- إذًا.. لماذا تقول «آخر قصة»؟

- كنت أتحدث عن سارة.. لماذا تحسستِ هكذا؟ ولماذا تشعرين بالقلق؟

- لا.. لا، أنا بخير، لكن ذكر سارة يصيبني دائمًا بالقلق فقط.

نهض من مكانه، وسكب لي المزيد من المشروب رغم أنني لم أشرب كأسًا:

- حسنًا ستكون هذه الليلة مختلفة. مطلوب منك فقط قصة واحدة.

- وإذا فشلتُ ولم تعجبك، هل ستعاقبني؟

- أمم.. لا، لن يكون هناك عقاب الليلة، فليس لدي وقت. غدًا يوم مهم ومميز بالنسبة إليّ. أريد فقط قصة واحدة، ومتأكد أنها ستكون من أكثر القصص المميزة التي لن أنساها أبدًا.

قالها بطريقة مريبة. تناولت الكأس بيد مرتعشة وشريتها دفعة واحدة، بينما كان يراقبني بعينين قاربتا اختراق روحي. مددت يدي إلى الآلة الكاتبة، وقبل أن أبدأ، سألت:

- وهل هذه أيضًا الآلة التي كانت تكتب بها سارة؟

- نعم.

أجاب بسرعة، دون تردد. تجمعت الدموع في عيني، وقلت:

- ستكون هذه القصة مختلفة نوعاً ما، وويليام، بما أنه لا يوجد عقاب.

نظر إليّ وهو ينفث الدخان ببطء:

- حسناً.. سأقبلها بصدر رحب. ابدئي الآن.



الفصل السادس والأربعون الملائكة أمثالك

في مكان، في قرية منسية عند أطراف الغابة السوداء، كانت فتاة تُدعى «أليان». كانت يتيمة منذ ولادتها، لم تعرف أمّاً ولا أباً، بل رأت فقط جدران الكنيسة الباردة، واستمعت إلى أصوات الصلوات التي لم تُجيبها السماء. كانت مختلفة.. ليس لأن عينيها بلون الغسق، أو لأن صوتها يشبه أنين الريح، بل لأنها منذ طفولتها لم تخف الظلال.

كانت تمشي بين القبور بلا وجل، وتحدث الأشجار كما لو كانت أصدقاء قدامى. ورأت أليان ما لا يراه الآخرون.. الوحوش.

لم تكن تلك المخلوقات مخيفة لها، بل شعرت بالحنان حين تلمح وجوهها المتآكلة، أو تسمع صرير أنفاسها الليلية. وعندما بلغت السابعة عشرة، جاءها في الحلم صوت عميق، لا يشبه صوت إنسان، ولا همس ملاك، قال لها:

«أنا الذي خلقتُ من ألمك، وسرقتني السماء حين وُلدتِ. أنا الوحش الذي ينتظر حبك.. أو نهايتك.»

استيقظت أليان وقلبها ينهشه قلق غريب، لكنها لم تهرب. خرجت في تلك الليلة تتبع أثر الصوت، حتى وصلت إلى قلب الغابة، وهناك رآته.

كان يقف بين الرماد والأشجار المحروقة، طويلاً كأنه جبل من الليل ذاته، وعيونه تتوهج بلون الدم. لم يكن جميلاً، لكنه بدا كأنه كُتب لها وحدها. اسمه كان «الرَّزَّاح»، أحد أبناء الظلال السبعة، مخلوق أرسله العالم السفلي ليبتلع قلبها ويستولي على روحها، لأنها الوحيدة التي وُلدت بنصف نور ونصف ظلام. لكنها، حين نظرت إليه، ابتسمت.

ولم يقتلها.. بل بقي.

صار يظهر لها كلَّ ليلة، يحدثها عن العالم السحيق، عن جحيم لم تلمسه النار، بل صنعته مشاعر منسية: الكراهية، الوحدة، والحب الذي لم يكتمل. كانت تصغي إليه، وتكتب كلماته في دفترها، وترى فيه ما لم يره أحد: إنه مكسور.

وفي ليالٍ معينة، حين يكتمل القمر، كان يرقد بجوارها، يمد مخالبه على الأرض، لا يمسه، لكنه يهمس:

«أليان.. لا تحبني.. أنا لست لك، أنا الجحيم».

وكانت ترد بابتسامة دامعة:

«لكني لم أجد الجنة إلا فيك».

كانت تعرف أن هذا الحب لا يعيش، ولا يتنفس، ولا يُغفر. كلُّ من أحبَّ شيطانًا، صُلب. وكلُّ فتاة عشقت وحشًا، احترقت. لكنها لم تتراجع.

ولم تكن تعرف أن الزَّراح لم يكن مجرد وحش، بل كان وعاءً حُبست فيه روح شيطان ملكي قديم، اسمه الحقيقي.. شيء آخر. سيد مملكة محجوبة، خُتم عليه منذ قرون بقوة غامضة. لكن قلبها أنقذه، وحبها حرَّره. واللعنة التي كبلته انكسرت، بقبلتها الأولى.

ومنذ تلك اللحظة، صار واجبها قتله.

فمن أحب الشيطان، يجب أن تصبح سيفًا في قلبه.. أو تصبح جسرًا يعيده إلى العرش.

انتهى.

ساد صمت مريب، وخيم هدوء لم أعرف له مثيلًا من قبل. كنت أحاول جاهدة أن أخفي ارتعاشات قلبي، وأكبح دموعي كي لا تتحرر. مرارًا وتكرارًا أمسكت نفسي عن أن أبوح لوليام بخطة إلياس وأحذره. لعنت نفسي مئات المرات، بل آلاف المرات. كان يحبني، أراد أهلي، أن أعود إلى عائلتي، أن أمنع حدوث ما هو ليس في الحسبان. صحيح أنني لا أحمل نحوه أي مشاعر أخوية حقيقية، لكنه في النهاية أخي، ابن سارة الذي عاش عمرًا في الاضطهاد والعذاب والحرمان من أمه. كان من حقه أيضًا أن يحصل على انتقامه.

كان وليام قد وضع أوراق القصة بهدوء على الطاولة، ثم أشعل سيجارة أخرى وسألني بنبرة هادئة:

- لماذا هذه القصة بالذات؟

تنحنحت وأنا أحاول إخفاء تلعثمي، وقلت:

- إنها... إنها أول قصة كتبتها عندما كنت مراهقة. كتبتها من أجل مسابقة في المدرسة لاختيار أفضل قصة.

- بينما ضحك عليك الطلاب، لأن المعلمة اشترطت أن يكون موضوع القصة عن العائلة أو العلم أو الطبيعة، بينما أنت كتبت عن الوحوش.

اعتصر قلبي، ورفعت نظري نحوه مذهولة:

- هل كنت هناك؟

- نعم، كنت دائماً هناك. أكون حيثما تكونين.

سكت قليلاً، ثم أطفأ سيجارته ونهض من مقعده. اقترب نحوي ببطء، وقال بصوت منخفض:

- أتدريين يا ماريان؟ ثمة قصص لا تُروى إلا إذا انكسر أحدهم أولاً... وأنت الآن تبدين وكأنك على وشك الانكسار. وهذا أمر لا يروقي.

أجبت بصوت منهك: - لن أنكسر يا وليام، إنني فقط أحمل شيئاً لا يعرف ثقله أحد.

وفي أعماقي، كان صوتي يهمس لنفسي: لقد أحببته... أحببت وسواسه، رغم كل ما هو عليه، ورغم كل ما أنا عليه. فهل هذه خطيئة أم معجزة مشوهة؟

اقترب مني أكثر، نظر في عيني طويلاً ثم همس قائلاً: - ما بين النور والظلام خط لا يمكن عبوره دون أن يحترق أحد. وأنت يا ماريان... خلقت من نور لا يعرف الظل، وقلبك، رغم كل آلامه، ما زال ينتمي إلى الملائكة.

أجبت بابتسامة مكسورة: - لكنني لم أعد أشعر بأنني أنتمي إليهم. - أهو ذات الشعور الذي عرفته أليان؟ - قالت أليان: حين تكون معه لا ترى الجحيم، بل تراه هو، كما هو، لا وحشاً، بل حزناً عظيماً يتخفى في هيئة شيطان. فلماذا يريد الجميع أن تقتله؟ لماذا يُعاقب حبها له؟

جلس وليام على الطاولة أمامي، حتى صار قريباً مني حد الهلاك، وقال: - لأن الحب، يا ماريان، ليس خلاصاً دائماً. أحياناً، يكون اختباراً. ولم تُخلق هي لتنقذ الشيطان، بل لكي تتذكر أنها ليست منه.

غضضت بصري، والدموع تحترق في عيني، وتمتمت: - غريب، أليس كذلك؟ لأنها مع ذلك اختارته!

ابتسم ابتسامة عابرة وقال: - لكنها لم تخطئ حين أحبته، ماريان... غير أن الملائكة لا تستطيع أن تبقى مع الشياطين؛ فحضورها يجلب التعاسة والنار، وحبها يسممهم.

قلت بصوت مرتجف: - إذأ... هي لعنة عليه؟

تأملني طويلاً، ثم خرج عن صمته وهو ينهض، يزيح الصحون جانباً ويبعد آلة الكتابة، وقال: - بل كانت خياره الأخير قبل السقوط الأبدي... وامتحانه الأخير قبل الصعود. والآن، تناولي طعامك، انتهت جلسة الكتابة. ورغم ذلك لقد أعجبتني قصتك، كانت مختلفة.

نظرت إليه بحدة ممزوجة بالشك وسألته بسخرية وأنا أحاول ابتلاع لقمة: - جيد، ظننت أنك ستسخر منها؟

هز رأسه وقال ببرود: - لا، لن أفعل. كانت مناسبة للمكان والزمان وحتى اللحظة.

كان في داخلي شعور مريب تجاه ويليام، لكنه يملك خبرة واسعة في إخفاء ملامحه. وجهه جامد دائماً، لا يثني بشيء.

... وسرنا بصمت ثقيل يشبه نذير كارثة ستتم غداً. سرنا إلى المصعد، حتى وصلنا إلى الطابق الذي تقع فيه غرفتي، أنفاسي ثقيلة حتى الجنون.

عند باب الغرفة توقفت، والتفت لأجده واقفاً متكئاً على الجدار بجانبني، في داخلي صراخ لا ينطفئ؛ لو أن ويليام حمل ذرة من تجاهي، لو كنت أعلم بذلك، ربما كنت سأراجع عن قراري، ومثل الصمت والدخول إلى النوم كان الخيار الأجدر بي.

طلب ويليام بصوت حاسم: - غداً سيكون هناك طقس خاص بي، طقس لا يُقام إلا لي وحدي. وبما أن الوقت قد اقترب، ستكونين أنتِ ملكة المملكة القوطية، وسأخذكِ معي.

تشنجت في داخلي. إذن كان إلياس محقاً، وويليام سيأخذني إلى ذلك المكان. لم يعد يهمني كيف يعرف إلياس كل هذه التفاصيل، ما يهم الآن هو أن أتماسك. أشعر أنني على وشك الانهيار، إعصار من مئة شعور يضرب روحي، وجمجمتي، وقلبي دفعة واحدة.

قاطع أفكاره صوته: - هل سمعتِ ما قلته؟

أفقت من شرودي، وأجبتته متلعثمة: - آه... نعم. أظن أنه لا خيار لي على أية حال، فأنت ستمسك بمعصمي وتسحبني معك مهما حدث.

ابتسم بخفة وقال:

- صحيح، أنتِ محقّة إذن... أراكِ غداً.

- حسناً.

وعندما أمسكت بمقبض الباب لأدخل غرفتي، التفت وويليام من جديد، وناداني:

- ماريان...

التفتُ نحوه، ولأول مرة منذ عرفته، بدا أن عينيه تحملان شيئاً مختلفاً، شيئاً لم أراه من قبل. كانتا نظرتين غريبتين، عميقتين، وكأنهما تكشفان عن سرّ طال كتماناه. ابتسم ابتسامة رقيقة وقال:

- هل تتذكرين حين قلتِ إنك ترغبين أن تجعلني مني وحشاً في روايتك القادمة؟

أجبتته هامسة، أحاول إخفاء العاصفة التي تعصف بي:

- نعم...-

اقترب قليلاً وهمس:

- إذن... لا تكتبي لي نهاية. لقد رضيتُ أن أعيش في روايتك إلى الأبد. وداعاً يا ملكة الفضول.

ابتسمتُ محاولة أن أخفف من وطأة اللحظة:

- تقصد... «عمت مساءً»؟

ابتسم بخفة، وقال:

- نعم، أيّاً يكن.

أجبتُه بابتسامة واهنة:

- وداعاً... وعمتُ مساءً أيضاً، يا سيّد الرعب.

في تلك اللحظة كان قلبي يخفق بجنون، خفقات مرعبة لم أعرفه من قبل. لم يتصرّف ويليام هكذا قط، ولم ينظر إليّ بتلك النظرات يوماً. شعرت بانهيار يتسلل إلى روحي، حتى لم يعد يهمني إن قتلتني الآن. لم تعد بي طاقة للمقاومة، وكأن قلبي أعلن استلامه قبل جسدي.

ألقيت بجسدي على السرير، وانفجرت في بكاء شديد، بكاء يلتهم ما تبقى من قوتي.



السابع والأربعون الأشياء الجميلة لا تدوم

صوت المطر يزأر كوحش جائع، يهدر في السماء بعنف، فيما بدا القمر وقد اكتسى بحمرة مريئة تُنذر بالفاجعة. قيل ذات مرة إن اجتماع القمر الأحمر مع المطر والعاصفة لم يكن إلا نذير شؤم، وإن كارثة كبرى ستحل. كانت البيوت مغلقة بإحكام، فالكوابيس تجوب الشوارع وتتنفس بين الأزقة.

كانت سمارة تتحدث بلا توقف، غير أنني لم أعد أستوعب كلماتها. فقد غلبني التوتر، وملاً الخوف كل مسامي. حينها أطل ويليام! نهضت واقفة، لكن قدي ارتجفتا حتى بدتا كأنهما ترقصان من شدة الاضطراب. كان مختلفاً عن كل مرة رأيته فيها: يرتدي الزي الملكي الكامل، عباءة حمراء تتخللها خيوط من ذهب، وتاجاً فوق رأسه. والأسوأ من ذلك، أنه لم يضع قناعه هذه المرة... تمنيت لو أنه أخفاه كعادته.

سألت سمارة باندهاش:

- إلى أين سنذهب، يا جلالة الملك؟

ابتسم ويليام ابتسامة حماس غامضة، وأجاب:

- سنذهب إلى مكان تحتاج ماريان أن تراه.

قالت سمارة باستغراب:

- لا بأس... لكنني تعجبت لأنك ترتدي زي الملك كاملاً، وأنت تكرهه.

رد ببرود واعتداد:

- لا عليك، أنا ملك، وقد اعتدت ذلك. هيا بنا يا ماريان.

أدركت حينها أنه سيقوم تلك الطقوس سراً، وحده، دون أن يعرف أحد. خرجنا من الغرفة وسرنا في الرواق. كنت أظن أننا سنتجه إلى المصعد ككل مرة، لكننا توقفنا عند نهايته.

- المكان الذي سنذهب إليه لا يحتاج إلى مصعد ولا إلى أي وسيلة انتقال مألوفة.

سألته بدهشة:

- وكيف ذلك؟

اقترب مني وقال بحزم:

- نفذي الأمر لي، أغمضي عينيك فقط، ومهما سمعت، لا تفتحيهما أبداً. هل فهمت؟

دقات قلبي تخفق بجنون، وارتجف جسدي كله. لم يمنحني فرصة للتعليق؛ إذ جذبني فجأة إلى صدره واحتضني.

في تلك اللحظة انهار كل شيء بداخلي؛ عقلي، وقلبي، وروحي، وحتى أحشائي. شعرت أن عوالمي جميعها تهدمت، من الداخل إلى الخارج. أغمضت عيني بلا وعي، وعصفت بي رياح قوية كأنها تفتحم جسدي، جعلت شعري يتطاير، وجعلتني أغرق في طوفان مشاعر غريبة وكثيفة. سمعت همسات مبهمّة، وأصواتاً لا تُفهم، كما حذرني ويليام. كان قلبي يخفق بعنف يكاد يمزق ضلوعي، وقبضته عليّ تزداد قوة، كأنه يخشى أن أفلت من بين يديه. لم أدري إن كنا نحلق في السماء أم نعبر بعداً آخر، كل ما أدركته أنني تمنيت أن أبقى هكذا إلى الأبد.

لكن الأشياء الجميلة لا تُمنح للبقاء.

سمعت صوته أخيراً يهمس قرب أذني:

- وصلنا.

اقتحم صوت ويليام عقلي المضطرب، فيما كنت لا أزال متشبّثة بصدرة وعينا مغمضتان. فتحت جفنيّ ببطء، وأدركت أنه ينتظر أن أفلت من قبضته. سحبت يدي بارتباك، بينما كان يبتسم، كالعادة، بسخرية باردة. دائماً أنا المهزومة وهو المنتصر، لكنني كنت أعلم أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد، وأنها، حين تبدأ، ستنتهي بخسارتنا جميعاً.

- أين نحن؟

خرج صوتي هامساً وأنا أجول بعينيّ في المكان. كان نفقاً حجرياً طويلاً، ممتلئاً بالجماجم البشرية وأشياء أخرى لم أجرؤ على تسميتها. الشعلات النارية كانت مبعثرة على الجدران، تبعث نوراً أحمر راقصاً، وفي كل جدار فجوات لا تُحصى، فتحات مظلمة قد يبلغ عددها الآلاف.

قال بهدوء:

- إنها مقابر.

- ماذا؟

- نعم هنا يرقد جميع الموتى: الملوك، الأمراء، المخلوقات السرية، الوحوش المنسية، والنبلاء الذين حكموا يوماً.

سألته بارتجاف:

- وماذا ستفعل هنا؟

أمسك بيدي، وانتزع من الجدار شعلة يتقد لهيبتها بلون أحمر قاتم، ثم سرنا معاً عبر الممر:
- ما سأفعله يعتبر، في نظرهم، خرقاً للقانون وتحدياً للمنطق... لكن بالنسبة إليّ، أنا القانون.
شعرت برياح باردة تسري في عروقي، فابتلعت ريقى بصعوبة وسألته:

- وما هذا الفعل؟

قال بصوت عميق:

- جميع الموتى هنا سيلقون التحية على ملكهم.

رجعت خطوة وهمست:

- وهل يتحدث الموتى؟

تبسم ابتسامة مائلة وقال:

- في عالمناء، نعم... بقليل من الطقوس، وبأمر حازم، ينهضون. لكنه أمر مهين لهم، لأن الموت هنا يُعدُّ تكريماً. من يُدفن في هذه المقابر هم أعظم الأساطير قوة ورعباً، وإذا استيقظوا جميعاً، واختلطت أزمتهم في مكان واحد، يختل توازن هذا العالم.

سألته بقلق يائس:

- وهل ستجعلهم يعيشون؟

لم يُجب، بل واصل السير حتى بلغنا ساحة هائلة الاتساع. كانت الأرض مغطاة برمال بلون الدم، تتخللها هضاب صغيرة تعلوها جماجم وهيكل عظمية وورود سوداء نبتت بعشوائية. على بعض الهضاب نُقشت أسماء وعبارات بلغة مجهولة، ورموز غريبة لم أفهمها. أما الأرض، فقد تخللتها دوائر مفتوحة مظلمة، مثل أفواه تنتظر من يسقط فيها. المشهد كله بدا جنوناً مطلقاً، أشبه بسطح كوكب جاف، أو بمرحلة من مراحل جحيم دانتي.

قال بصرامة:

- لن يعيش أحد.

- ماذا؟

- إجابتي عن سؤالك... الأموات لا يعودون، لكن أرواحهم ما زالت هنا، عالقة، تطوف بين هذه الجدران.

- وإذا؟

اقرب مني وقال بابتسامة مرعبة:

- وإذا ما قدّموا لي التحية، واعترفوا بي ملكاً، فسأبتلعهم.

ارتجف حلقي وانكشمت أمعائي:

- تبتلع... ماذا؟

ضحك بخبث، ثم قال بصوت يشوبه الشر:

- سأبتلع أرواحهم. وحينها... سيكون كلُّ شيء تحت سيطرتي. سيغرق العالم تحت قدمي، ولن يكون هناك ملك سواي.

اشتعل قلبي بالخوف، وارتجف بدني حتى العظام. إن كان هذا ما يخطط له ويليام، فهو ليس مجرد إنسان ولا حتى شيطان، بل شيء آخر تماماً، كائن يلتهم ولا يشبع، يقتل ولا يملأ، يسلب الأرواح ويحرق كلَّ كائن على قيد الحياة.

باغته بسؤالٍ الذي انزلق من بين شفطي المرتجفتين:

- هل ستقتلني بعد ذلك؟

وضع سيفه على إحدى الهضاب، ثم تقدّم نحوي بخطوات ثابتة حتى وقف أمامي وقال:

- ولماذا سأقتلك؟ لقد اتفقنا منذ البداية وحددنا مصيرك.

همست بارتباك: لكنني لا أظن أنك ستبقى كما أنت بعد أن تتم هذا الطقس. ستصبح شيئاً آخر، مختلفاً يا ويليام.

رسمت على شفطيه ابتسامة باردة: - ومن أخبرك بهذا؟ أهو إلياس؟

قشعر جسدي كله، وضرب قلبي بقوة، شعرت أنني ارتكبت خطأ جسيماً. استدار إلى سيفه وقال بصوت عميق: - لم تخبريني بعد يا ماريان... ما اسم ذلك الوحش الذي أحبه «إليان»؟ ما اسمه الحقيقي؟

تلعثمت وبدأت دموعي تنهمر بلا إرادة: - لا... لا أعرف... لقد نسيتته.

ارتج المكان فجأة بصوت هادر اخترق أذني وعقلي معاً: - ديموس!

رفعت رأسي بذهول؛ فإذا بإلياس يخرج من خلف إحدى الهضاب، يحمل سيفاً فضياً يلمع بشراسة. ابتسم ويлияم وكأنه كان يعرف مسبقاً: - لم أتوقع أن تجرؤ إلى هذا الحد، أيها الهجين.

ردّ إلياس بصلافة: - الهجين يستطيع أن يفعل ما لم يفعله غيره.

ضحك ويлияم ضحكة ساخرة مدوية، ثم قال: - كان ينبغي أن تكتسب خبرة قبل أن تلقي بنفسك في الجحيم بهذه السذاجة. أخبرني فقط: كيف دخلت إلى هنا؟ وكيف علمت أنني سأؤدي هذا الطقس؟

- ليس من الضروري أن تعرف. لدي عيون في كل مكان... ولدي الحق في استعادة عرشي.

انفجر ويлияم ضاحكاً حتى كاد يختنق بسعاله، ثم رفع سيفه وقال بازدراء: - إذن تعال وخذ حقلك الآن، ودعنا من الثثرة.

اندفع إلياس بقوة، والتحم السيفان بصوت معدني حاد اخترق المكان كالعاصفة. اشتعل الهواء برياح غريبة، وانطلقت صرخات مجهولة المصدر كأن الموتى أنفسهم يحتجون على تدنيس سكونهم. وضعت كفيّ على أذني برعب؛ فتذكرت كلمات سمارة: «الموتى هنا يجب احترامهم». أدركت الآن صدقها، فالمكان كله يرتجف لأنهما يتقاتلان.

كانت الضربات تتوالى بلا توقف؛ لكنني أيقنت - منذ اللحظات الأولى - أن إلياس ليس نداً لويليام. الأخير كان يفوقه حجماً وقوة وسرعة، يقاتل بجنون وقسوة لا رحمة فيها. جرح إلياس مراراً، والدماء لطخت جسده، بينما قلبي يكاد ينفجر وأنا أتابع المشهد بعجز ودموعي تغسل وجهي.

صرخت داخلي: لماذا لا استخدم قوته؟ تذكرت النار التي انبثقت من يديه حين أنقذني أول مرة. لماذا الآن لا يفعل؟

جاء الجواب حين تميم إليّ بعد أن رماه ويлияم أرضاً: - هذا المكان محصّن... لا يسمح لنا باستخدام قوانا. لهذا أردتُ مواجهته هنا. في الخارج سيبيديني في دقائق، أما هنا فلا يزال لدي أمل.

أخرج خنجراً حجرياً من بين ثيابه ورماه بجانبني. لم ينتبه له ويлияم، فقد عاد لينقضّ عليه من جديد. أدركت أن إلياس يستنجد بي، وأن دوري قد حان.

التقطت الخنجر بيد مرتعشة، وبدأت أقرب بخطوات ثقيلة، تكاد الأرض تنكسر تحت رجلي من الارتعاش والخوف. كان ويлияم قد أمسك بعنق إلياس ورفعته عالياً، يخنقه ببطء حتى تشاخت ملامحه من الألم. رأيت في عينيه الدامعتين إشارة واضحة إليّ: افعليها الآن.

كلّ شيء كان ينهار في داخلي: الخوف، الذكريات، كوابيس الطفولة، ليلة دفن أمي سارة لشقيقتي ماريانا وهي لا تزال حية. لكنني أدركت أن لا مجال للتردد: إن لم أفعل، سأموت أنا وعائلي جميعاً.

أغمضت عينيّ بقوة، ورأيت وجوه من أحببت وحدها. سمعت صرختي الحادة تمزق صدري:
- اتركه!!

وغرزت الخنجر بكل قوتي في قلب ويليام!

ويليام، فقد عاد لينقضّ عليه من جديد. أدركت ان إلياس يستنجد بي، وأن دوري قد حان. التقطت الخنجر بيد مرتعشة، وبدأت أقترّب بخطوات ثقيلة، تكاد الأرض تنكسر تحت رجلي من الارتعاش والخوف. ويليام قد أمسك بعنق إلياس ورفعّه عاليًا، يخنقه ببطء حتى تشاخت ملامحه من الألم. رأيت في عينيه الدامعتين إشارة واضحة إليّ: افعليها الآن.

كلُّ شيءٍ كان ينهار في داخلي: الخوف، الذكريات، كوابيس الطفولة، ليلة دفن أمي سارة لشقيقتي ماريانا وهي لا تزال حية. لكنني أدركت أن لا مجال للتردد: إن لم أفعل، سأموت أنا وعائلي جميعًا.

أغمضت عينيّ بقوة، ورأيت وجوه من أحببت وحدها. سمعت صرختي الحادة تمزق صدري:
- اتركه!!

وغرزت الخنجر بكل قوتي في قلب ويليام!

حلّ صمت ثقيل كأنما يحمل في طياته رهبة المشهد. فتحتُ عينيّ، والدموع تنساب بغزارة، والخنجر لا يزال مغروزاً في قلبه. كان ويليام منشغلاً بخنق إلياس، وظهره موجّه إليّ، ولم ينتبه لوجودي لصغر قامتي أمام جسده الهائل. شهقت مذعورة وتراجعتُ بضع خطوات متعثرة، فيما أفلت ويليام قبضة إلياس فسقط الأخير أرضاً يلهث متشبثاً بأنفاسه التي توشحت بالموت.

نظر ويليام إليّ بصدمة يكسوها مزيج من الرعب والخذلان. نظر إلى الخنجر المغروس في صدره وكأنه لم يصدق أنني تجرأت على ذلك. وضع يده عليه، وحاول أن ينتزعه بقوة. ارتج جسده وتألّم بصمت مهيب، احمرّ وجهه وسارت عروقه سوداء متضخمة، ثم ترنح يمينه ويسرة، وأنفاسه صارت ثقيلة متقطعة. الدماء سالت من الجرح، بينما السماء التي كانت حمراء تحولت فجأة إلى سواد حالك، والقمر انطفأ وصار أسود كالفحم. هبّت عاصفة عاتية، تخللتها صواعق وبرق، وارتفعت صرخات مجهولة من كل جانب كأنما أرواح الموتى تستيقظ من سباتها.

نهض إلياس بصعوبة، يحاول أن يقاوم الرياح التي تكاد تقتلعنا، التقط سيفه، وما إن أدركت ما ينوي فعله حتى صحت برجاء ممزق:

- أرجوك، لا تفعل!

لكنه لم يستمع. كانت تلك فرصته الذهبية. اندفع نحو ويليام وغرس سيفه في ظهره. شهق ويليام ألمًا، ومع ذلك بقي واقفًا كجبل لا ينحني. شعرت أن السيف اخترق قلبي أنا. تشتت بي، وصرت

أصرخ وأبكي بحرقة، حتى سقط ويليام على ركبتيه، ثم التفت إليّ بنظرة أخيرة، وسقط جسده أخيراً أرضاً.

أسرعتُ إليه وجلست بجانبه، وضعت رأسه على حجري، وبكيت بحرقة مرعدة:

- سامحني... لم يكن هناك خيار آخر، سامحني.

تمتم بصوت واهن، كأنما يسلمُ أنفاسه الأخيرة:

- الملائكة أمثالك يا ماريان... لا يستطيعون التحليق معي في الجحيم.

لم يعد قادرًا على الكلام، ثم أغمض عينيه إلى الأبد. لم أصرخ، لكنّ عالمي كله انهار. روحي تمزقت وأنا ألمح قلادة صغيرة معلقة في عنقه، القلادة المماثلة لقلادتي: هو السيف وأنا القلب. كان يرتديها طوال الوقت ويخفيها عن العيون.

صرختُ اسمه بجنون:

- ويليام!!

لكن لا مجيب.

شعرت بيد قوية تمسك بي، كان إلياس يحاول أن ينهض بي:

- هيا، ماريان. يجب أن نخرج قبل أن يصل أحد.

رفضت باكية:

- لا، أرجوك، لا أريد.

صرخ إلياس وهو يجرُّني بقوة:

- البوابة مفتوحة الآن، إن لم ندخلها ستغلق إلى الأبد!

حملني رغم مقاومتي، بينما كنت لا أزال متمسكة بيد ويليام أناديه بأمل بائس ألا يتركني. لكنه لم يستجب. كان عقلي مشوشاً، لم أعد أفرق بين الحقيقة والخيال. شعرت كأنني جثة تمشي. توقفت إلياس أمام البوابة، أمسك وجهي بين كفيه وأجبرني أن أنظر في عينيه:

- ماريان، اسمعيني جيداً. الأمر ليس مخيفاً، ستنتقلين بسرعة. فقط أغمضي عينيك ولا تفتحيهما أبداً حتى تصلي. هل فهمت؟

همست بصوت يائس والدموع تخنقني:

- وماذا عنك؟

ابتسم ابتسامة مكسورة وقال بحزن عميق:

- أنا لا أنتمي إلى عالمكم يا ماريان، مكاني هنا.

- إذن... لن نلتقي مجدداً؟

صمت قليلاً، ثم قبل جبيني برفق وقال:

- أنت تشبهين سارة كثيراً... قوية وجريئة مثلها. لعلنا نلتقي في زمن آخر يا أختي. وداعاً.

وقبل أن أستوعب كلماته، دفعني إلى داخل البوابة. أظلم بصري فجأة، شعرت كأن جسدي يتمزق في دوامة حارقة. لم أصرخ، ظللت ساكنة كما أنا. تذكرت كلماته، وحاولت أن أفكر في أحبتي، فيمن يبعثون الأمان في قلبي... لكن صورة واحدة فقط ملأت عقلي: «ويليام».



الفصل الثامن والأربعون فراشة سوداء

الواقع... ذلك المكان المخيف الذي لا يستطيع أحد تحديه والنجاة منه. الناس دائماً يهربون منه، حتى في القصص والكتب والأفلام. وحين نقرأ عبارة «قصة واقعية» نشعر بالخدلان والكآبة والسوداوية. الواقع هو ذلك العالم المشوّه بخطايا البشر وذنوبهم.

لكن... ماذا عن الخيال؟

لم أتلقّ الإجابة من أمي، فقد كانت شاردة تحدّق في الأفق. وفجأة مرّت فوقنا فراشة سوداء ضخمة وغريبة، وحين وقعت عيناها عليها ابتسمت ابتسامة غامضة. ظلت الفراشة تحلّق حتى حطت فوق شعري، عندها نظرت إليّ أمي بعينين دامعتين وقالت:

- لقد وقع عليك الاختيار يا ماريان.

كان هذا العالم غريباً، أراه للمرة الأولى، ولا أعلم أين أنا بالضبط. شعرت وكأنني أفيق من حلم طويل يرفض أن ينتهي. حاولت أن أتذكر، لكن لا شيء، الألم يجتاح جسدي كله، ألم حاول التغلغل في كل نقطة مني، ورأسي ينبض كأن فأساً ارتطم بجمجمتي المهشمة ببطء شديد، الرؤية كانت ضبابية، مملة ومؤلمة إلى حد الاحتراق، كأن الضوء يحرقني، عيناي تحترقان... السبب هو الشمس؟ نعم، هناك شمس! هل لأنني لم أرها منذ زمن بعيد؟

وجدت نفسي مستلقية بين أشجار كثيفة، ربما غابة، لكن أي غابة هذه؟

تسارع نبضي حين سمعت وقع خطوات تقترب. لم أستطع حتى تحريك عيني. الأنفاس تتلاشى من صدري. ثم جاءني صوت غريب:

- انظر!

- ما هذا؟! هل هي فتاة؟ هل ماتت؟

- لا أعلم، لا يجب أن نلمسها، اتصل بالشرطة فوراً!
- حسناً...

عند سماعي كلمة «الشرطة» قفز قلبي بعنف داخل صدري. هذا المصطلح لم أسمعه منذ زمن بعيد... هذا يعني شيئاً واحداً: لقد عدت، عدت إلى عالمي الواقعي، لقد عدت حقاً.

فتحت عينيّ وأغلقتهم مرات متتالية، ثم أفتحهما وأغلقتهم للمرة المئة، أسمع صوت صفير الأجهزة... بالتأكيد أجهزة مستشفى. أحياناً أسمع أصواتاً تتحدث إليّ، لكنني لا أميز ما يقولونه، ولا أعرف من هم. حتى فجأة، سمعت صوتاً مألوفاً:

- ألم تستيقظ بعد؟

- لا يا جلالة الملك؛ لا بد أنها متعبة جسدياً وتمرُّ بأزمة نفسية صعبة!

- أنت لستِ على فراش الموت، لا تكوني درامية هكذا، إنها مجرد حمى وستزول.

صوته... إنه ويليام! كلمات قالها لي ذات يوم عندما كنت مريضة، عادت الذكريات فجأة كطوفان، سريعة، مربكة، مرعبة: آخر ليلة لي معه، الأحداث التي جرت مع إلياس، عندما غرزت الخنجر في قلبه، حين غرز إلياس السيف في ظهره، عندما انهار عند قدمي، وعندما قال لي تلك الجملة:

- الملائكة لا يمكنهم الطوفان مع الشياطين في الجحيم!

أدركت أن ويليام كان يعرف كل شيء، كما أخبرت إلياس سابقاً. هو ليس غيبياً، كان يعلم أنني سأقتله ونغدر به أنا وإلياس، لكنه لم يمنعني. لماذا؟ لماذا لم أمت أصلاً؟ لماذا ما زلت حيّة بعد كل الفوضى التي اجتاحت حياتي؟

- ماريان!! هل تسمعينني؟

صوت مألوف جداً، مملوء بالأمان والحنان والحب، يخالطه ألم مميت ومتمسك بالوجع، صوت لم أسمعه منذ زمن، لكنني أعرفه جيداً... إنه صوت أبي.

فتحت عينيّ ببطء، لأجده ملتصقاً بوجهي، وابتسامته تحمل الحزن والقلق والصدمة والانكسار والأمل والسعادة معاً، ودموعه تتجمهر في عينيه. انهار أكثر عندما رأني مستيقظة، وقال بصوت مرتجف ومتلعثم:

- أيها الطبيب، تعال بسرعة، لقد استيقظت ابنتي!

خنقتني الكلمات، فصرخت:

- أبي... أبي!

انهرت باكية، ودموعي تتدفق بغزارة. احتضنني أبي بقوة، قوة تجعلك تتشبث بالحياة من جديد. بكيت بشدة، حتى شعرت وكأن روحي ستنتزع من جسدي. بكيت فرحًا لأنني عدت إلى أحضان عائلتي أخيرًا، وبكيت يأسًا وحرزًا لأنني تركت قلبي في ذلك المكان.

مضت الأيام ببطء قاتل، تزحف كل لحظة ثقيلة. عدت إلى المنزل، وكانت مشاعري متخبطة: شوق، ألم، حنين، سعادة. انهرت أكثر عندما رأيت غرفتي، أغراضي، ملابسي، كتي، أجهزتي، هاتفي... كل شيء! بقيت مستلقية على السرير لمدة أسبوعين كاملين، بلا كلمة واحدة.

قال الطبيب لعائلتي إن ذلك بسبب الصدمة النفسية، لكنني شعرت أنني لا أرغب بالتحدث، لا أعلم من أين أبدأ. جاءت الشرطة للتحقيق، لكنني لم أستطع إفادتهم بأي شيء، أخبرتهم أنني لا أتذكر. قصتي المجنونة كانت ستؤدي بي إلى المصحة العقلية. لكن أبي كان يعرف كل شيء، علم أين أنا، عرف ذلك عندما ناداني باسمي الحقيقي «ماريان».

أراد أبي وأخي نقلي من المنزل، لأن الصحافة كانت تحاصرنا بلا كلل، لكنني رفضت. كانت تلك المرة الأولى التي أنطق فيها كلمة: أخبرتهم أنني لن أخرج، وأنهم سيصابون بالملل والتعب، وسيرحلون.

كانت أيامًا دافئة وفي الوقت نفسه قاتلة، أرى في أعين الجميع الخوف، خوفهم من أن أكون مجنونة مثل سارة. لكنني اكتفيت بالبقاء في غرفتي، بعيدًا عن العالم؛ أحيانًا أبكي بصمت، وأحيانًا أصرخ، لكنني لست مجنونة.

مرّ شهران تقريبًا، وفي ليلة ماطرة كنت مستلقية على سريري، لم ألمس هاتفي، فقدت شغف الحياة. رفضت استقبال أقرب صديقاتي أو أقاربنا، وأخبر أبي الجميع أنني في فترة علاج وأحتاج إلى الوقت.

نهضتُ بثقل، وتوجهت إلى مكتي، خطر في بالي شيء لم أرغب أن أنساه: رسم ملامحهم. رغم أنني لست بارعة في الرسم، رسمتهم! نعم، رسمت ويليام، وعلقت رسمه على الحائط، ورسمت وجه إلياس وسامارا. كنت أريد إثباتًا لنفسي، أنني لست مجنونة، وأنهم حقيقيون.

لم يكفني الرسم، فقررت كتابة قصتي عنهم، مهما صدّق الناس أو رفضوا، سأكتب. تذكرت عندما أخبرني ويليام أنه يمنعنا من الكتابة عنهم، لكنني سأكتب. ربما سيستدعيهم ذلك مرة أخرى إذا كانوا أحياء، أما إذا لم يمت ويليام، فسيقتل إلياس الآن، ويأتي لقتل عائلتي أمام عيني... ومع ذلك، ما زلت أريده حيًا، ما زلت أريد رؤيته!

آه، يا إلهي.. اغفر لهذا القلب الأحمق، لهذا الكيان المسكون بوهم الجمال وسط الخراب، لهذا النبض الذي عصى ناموس الفطرة واستسلم عند أقدام الوحش. كيف يظلل الإنسان أن يعشق الكابوس؟ كيف يمكن للحب أن يزهر في تربة مُلطخة بالدم، بين أنياب الفناء؟

أي لعنة حلت بي حتى أرى في العتمة وهجًا، وفي الظلام دفنًا، وفي الوحش خلاصًا؟ هل هذا القلب معطوب، أم أن العشق ذاته مرض يحيل العقل إلى رماد، ويحوّل الوحوش إلى آلهة؟

يا إلهي، إن كان هذا حبًا، فإنني أتبرأ من قلبي، وإن كان جنونًا، فهنيئًا لي بفنائِي.

كأنّ قلبي لم يعرف معنى النجاة إلا حين اختار الغرق، لقد وقفت على حافة هاوية لا قرار لها، ورغم ذلك، اخترت أن أرمي بنفسي في العتمة، غير مبالية بما ينتظرني في القاع. اكتشفت أنّ حبي للملك ديموس لم يكن سوى جنون، قصيدة سقطت على روجي كما يسقط الليل على مدينة مهجورة. أي عقل يستطيع أن يقاوم سطوة العاطفة حين يكتبها القدر؟

أحببته، رغم أنّ كلّ شيء فيها كان يصرخ بأنني أهوي نحو مدينة حزينة، رغم أن ظله كان أطول من كل مخاوفي، ورغم أنّ ملامحه لا تعكس إلا خرابًا يتكرر في هيئة مجد. أحببته كما تحب الفراشة لهيب الشمعة، وكما تحب الضحية يد الجلاد حين تلامس وجنتها قبل أن تهوي بالسيف.

كنت أعلم أنني أمام ملك لا يعرف الرحمة، رجل نُسج من الكوابيس والأحلام المحرّمة، لكنني رأيت فيه شيئًا لا يراه غيري، شيئًا لم يفلح حتى هو في إخفائه تمامًا، ذلك الحزن العتيق الذي يسكن من شقوق روحه، تلك الوحدة المتجسدة في صمته الطويل، وكأنّ العالم كله قد خانه فقرر أن يخونه بالمقابل.

أهو حب أم هلاك؟ أهو افتتان أم سقوط في فخ لا نجاة منه؟ لست أعد أعلم كلّ ما أدركته أنني أصبحت أسيرة، لا لقوته، بل لغزارة الكيان، للغموض الذي يحيط به، وكأنّ قلبي وجد راحته الأخيرة في أنين الضياع.

أمسكت بجهازِي اللوحي، شعرت حين فتحته كأنني أفتح نافذة تمنحني الشفاء، التأمّت روجي قليلًا. أكدت لي هذه الطاقة أنني لا يمكن أن أكره الكتابة، طالما كانت سبب نجاتي، مسبب سحبي إلى الجحيم، وسبب دخول ويليام إلى حياتي. لذلك لن أكرهها أبدًا، بل أحببتها أكثر.

وبيدي المرتعشة، أخذت نفساً عميقاً، أغلقت عيني، وهنا سمعت صوته:

- اکتبي، ماريان.. اکتبي من أجلي.

الآن أصبح ويليام هو إلهامي وحافزي للكتابة، وعلى الصفحة البيضاء كتبت عنوان الرواية التي قد تأخذني إلى دهاليز المصححة العقلية:

«أكتب حتى لا يأكلني الشيطان»

خاتمة

كان الليل فوق مملكة الخوف أثقل من المعتاد، كأن السماء كانت تحتضر. لم يكن هناك قمر، ولا نجوم، فقط ظلامٌ سائلٌ ينسكب فوق الأرض، يبتلع كلَّ شيء في طريقه.

في الخارج، خلف أسوار المملكة المنهكة من الدماء، عند تخوم الخراب، كان هناك شيء يتحرك.

لم يكن ريحاً، لم يكن ظلاً عابراً، كان كياناً مولوداً من الفراغ، من العدم، من صرخات لم يسمعها أحد من قبل.

أول ما ظهر منه، كانت عيناه.

فراغان أسودان يبتلعان الضوء، يبتلعان الحقيقة، يبتلعان كلَّ ما يملك القلب من أمل.

الأرض تحت قدميه تشققت، وكأنها ترفض أن تحتل وجوده.

لم يخض خطوة، لكنه اقترب بلا صوت، بلا شفق.

وصوته، رغم أنه همس، كان يتردد في العظام قبل الأذان: «إذن.. لقد حان الوقت».

صوته طقطقة نيران تحت طبقة من الجليد، همس يُزرع في الروح قبل أن يُسمع بالأذن.

أمامه، المملكة غارقة في الظلام، والجميع جزء من القصة إلا أنه كان الصفحة الأخيرة.

رفع يده الباردة، انهيار الهواء من حوله كان كقماش ممزق؛ كأنَّ العالم نفسه يتراجع أمام وجوده.

ثم ابتسم، إعلاناً صامتاً بأنَّ كلَّ شيء حتى الآن كان مجرد مقدمة.

وفي غمضة عين.. اختفى.

لكنه لم يذهب، بل كان ينتظر، خلف الظلام، في زاوية لا يجروُّ أحد على الاقتراب منها.

«النهاية؟ لا.. هذا مجرد البداية».

الفهرس

- [الفصل الثالث والعشرون الممالك الثماني](#)
[الفصل الرابع والعشرون سيسيليا](#)
[الفصل الخامس والعشرون العاصمة أرض الملائكة والوحوش](#)
[الفصل السادس والعشرون أنت لست وحشاً أنت ملك](#)
[الفصل السابع والعشرون هدية مميزة!](#)
[الفصل الثامن والعشرون لمست وجهه](#)
[الفصل التاسع والعشرون معركة التحرير](#)
[الفصل الثلاثون الملك ديموس](#)
[الفصل الحادي والثلاثون البشرية الوحيدة](#)
[الفصل الثاني والثلاثون قلب محطم](#)
[الفصل الثالث والثلاثون طقوس الدم](#)
[الفصل الرابع والثلاثون الحقيقة](#)
[الفصل الخامس والثلاثون الحقيقة دائماً ما تكون مرعبة](#)
[الفصل السادس والثلاثون أدريانا](#)
[الفصل السابع والثلاثون الجنون](#)
[الفصل الثامن والثلاثون تماسك يا قلبي](#)
[الفصل التاسع والثلاثون سجن الهاوية](#)
[الفصل الأربعون وجه الملك](#)
[الفصل الحادي والأربعون المملكة القوطية](#)
[الفصل الثاني والأربعون الأساطير الأدبية حية](#)
[الثالث والأربعون مملكة القوطية](#)
[الرابع والأربعون مملكة الساحرات](#)
[الفصل الخامس والأربعون السيف اخترق القلب](#)
[الفصل السادس والأربعون الملائكة أمثالك](#)
[السابع والأربعون الأشياء الجميلة لا تدوم](#)
[الفصل الثامن والأربعون فراشة سوداء](#)
[خاتمة](#)
[الفهرس](#)